



مجلة

مجمع اللغة العربية بمشق

« مجلة المجمع العلمي العربي سابقاً »

مجلة محكمة فصلية

ذو القعدة ١٤٤٢ هـ - جمادى الأولى ١٤٤٣ هـ

تموز - كانون الأول ٢٠٢١ م

مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق

« مجلة المجمع العلمي العربي سابقاً »

أُنشئت سنة ١٣٣٩ هـ الموافقة لسنة ١٩٢١ م

المدير المسؤول: الدكتور مروان المحاسني، رئيس المجمع

لجنة المجلة

الدكتور محمود السيّد «رئيس التحرير»

الدكتور مكي الحسني الجزائري الدكتور مازن المبارك

الدكتورة لبانة مشوّح الدكتور وهب رومية

الدكتور عبد الناصر عسّاف

أمينة المجلة: ريم الملاح

أغراض المجلة:

إن أغراض المجلة مستمدة من أغراض المجمع الواردة في قانونه ولائحته الداخلية وأبرزها:

المحافظة على سلامة اللغة العربية، وجعلها وافية بمطالب الآداب والعلوم والفنون، وملائمة لحاجات الحياة المتطورة، ووضع المصطلحات العلمية والأدبية والحضارية، ودراساتها وفق منهج محدد، والسعي لتوحيدها في الأقطار العربية كافة.

**البحوث والمقالات المنشورة في المجلة تعبر عن آراء أصحابها،
ولا تعبر بالضرورة عن رأي المجمع باستثناء القرارات الجمعية**

قواعد النشر:

- ١- أن يتسم البحث بالجدة والأصالة والموضوعية.
- ٢- أن يُرفق البحث بالسيرة الذاتية والعنوان البريدي والإلكتروني.
- ٣- ألا يقلّ البحث عن عشر صفحات وألا يزيد على ثلاثين صفحة من صفحات المجلة (٧٠٠٠ كلمة)، أما المقالات والتعريف بالكتب فيُقبل منها ما يقلّ عن عشر صفحات.
- ٤- أن تكتب في بداية البحث مقدمة تبين الغرض منه والبنود الرئيسية التي سيتناولها بالتفصيل.
- ٥- أن يخلو البحث من أي إساءة إلى الكُتّاب والباحثين أو غيرهم، وأن يحترم المعتقدات الدينية والفكرية للشعوب.
- ٦- أن يُعَدّ الباحث - إذا رغب في ذلك - ملخصاً لبحثه بالإنكليزية أو الفرنسية.
- ٧- أن يلتزم الباحث المنهج العلمي في التوثيق، فتُعطى الحواشي أرقاماً متسلسلة من بداية البحث حتى نهايته، وتذكر حواشي كل صفحة في أسفلها كما يلي:
أ- «اسم المؤلف أو الكاتب - اسم الكتاب أو المجلة - رقم الصفحة»، وفي المصادر والمراجع يكتب:

ب- «اسم الكتاب - اسم المؤلف - اسم دار النشر ومكانها - رقم الطبعة وتاريخها».

ويمكن للكاتب أن يتخير أحد البندين (أ) أو (ب) على أن يجري على نسق واحد في توثيق المصادر والمراجع والحواشي.

٨- أن تكون البحوث والمقالات المرسلة إلى المجلة منضدة بالحرف (Mylotus) أو (Traditional Arabic) قياس (١٦)، وأن تشفع بقرص مدمج مسجل عليه عنوان البحث، أو ترسل بالبريد الإلكتروني.

٩- على الباحث أن يلتزم مصطلحاً واحداً في بحثه إذا تعددت المقابلات العربية للأصل الأجنبي والأولى أن يكون مما جاء في المعاجم المتخصصة.

١٠- أن توضع الكلمات العربية أو المُعرَّبة قبل مقابلها الأجنبي عند ورودها أول مرة فقط، نحو: تقانة (Technology)، حاسوب (Computer)، نفسية (Psychologic).

١١- أن يُعنى الكاتب بعلامات الترقيم: النقطة، الفاصلة، الفاصلة المنقوطة، ... إلخ.

١٢- تنشر المجلة البحوث والمقالات التي ترد عليها بعد أن تخضع للتقويم السري.

١٣- ألا يكون البحث منشوراً أو مرسلًا للنشر في مجلة أخرى أو مستلاً من رسالة، ويتعهد الباحث بذلك خطياً.

١٤- إذا لم يلتزم الكاتب بإجراء ما يجب من تعديلات يقترحها المحكمون في مادته التي أرسلها إلى المجلة، في الفرصة المتاحة للتصحيح - ولا تعاد المادة إلى صاحبها لإجراء التعديلات إلا مرة واحدة فقط - كان للمجلة الحق في رفض نشر تلك المادة.

١٥- تُرتَّب البحوث والمقالات وفق اعتبارات فنية.

١٦- البحوث والمقالات التي لا تُنشر لا تردُّ إلى أصحابها.

١٧- ترسل البحوث والمقالات إلى المجلة على العنوان الآتي:

دمشق ص. ب ٣٢٧. البريد الإلكتروني: E - mail: mla@net.sy

تُنشر المجلة في موقع المجمع على الشبكة (الإنترنت):

www.arabacademy.gov.sy

* * *

فهرس الجزأين الثالث والرابع

من المجلد الرابع والتسعين

البحوث والدراسات

- مقاربات في تيسير النحو
الممنوع من الصرف نموذجاً
د. ممدوح خسارة ٣١٥
- مطالعة في مفهوم الساكن والسكون
د. أحمد قدور ٣٢٩
- الشكر مفهوماً أخلاقياً
فضاء التصوف الإسلامي
د. عيسى العاكوب ٣٥٥
- كتابة الأشعار على الجدران
د. رضوان الداية ٣٧٥
- التلفيق في شواهد النحو الشعرية
د. سالم شرابي ٣٩٩
- نظرات لغوية تقابلية في التراث
العربي الإسلامي
د. عباس السوسوة ٤٣٥

المقالات والآراء

- مدرسة دار الحديث الأشرفية
د. مازن المبارك ٤٥٥
- تذكرة بقاعدة كتابة ألف التفريق
د. مكّي الحسني ٤٦١
- الكشكول اللغوي (١)
د. رفعت هزيم ٤٦٥

التعريف والنقد

- المُعَرَّب: شرح كتاب القوافي قرأه وحققه
د. وليد سراقبي ومحمد سراقبي عرضه د. عبد الإله نبهان ٤٧٧
- مراجعة نقدية لمعجم محمود محمد شاكر د. محمد جمعة الدربي ٤٨٣
- ديوان نجم الدين بن سوار الدمشقي
(نظرات نقدية ومستدرك) د. عباس الجراخ ٤٩٩

المحاضرات والمدارس

- الكتابة في العلوم الإنسانية
من منظور حركة الكفاءة اللغوية د. مهدي العش ٥١٩
- العربية وحرب اللغات
د. جورج جبور ٥٦١

أنباء جمعية وثقافية

- كلمة الدكتور محمود السيد في حفل تأبين الدكتور ميخائيل معطي ٥٨٧
- من قرارات مجلس المجمع في الألفاظ والأساليب ٥٩١
- فهرس المجلد الرابع والتسعين ٦٠٧



البحوثُ والدِّراسات

مقاربات في تيسير النحو المنوع من الصرف نموذجاً

أ. د. ممدوح محمد خسارة^(*)

تمهيد:

إنني مقدّم لهذا البحث وأمثاله مما قد أعرضه في قابل، بأمور:

١ - يتحرّج كثير من الباحثين في النحو من عبارة (تيسير النحو)، فيستعملون عبارة (تيسير تعليم النحو)، تخوفاً مما قد يُرْمون به من معاداة علم النحو، أو الإقلال من قيمته ومكانته. ذلك أنّ علم النحو عند بعض المتشدّدين علمٌ مكتمل لا يأتيه النّقص من بين يديه ولا من خلفه، مع أن كثيراً من قواعده خلافية. وإذا كان ابن الأنباري قد ذكر في كتابه (الإنصاف في مسائل الخلاف) مئة وستّ عشرة مسألة^(*)، فإن في النحو مسائل خلافية أخرى كثيرة. ولذا فأنا - الباحث في النحو - لا أجد حرجاً في استعمال عبارة (تيسير النحو)، لأنّ في قواعد ذلك العلم العظيم الجليل ما يستدعي تيسيره وتخليصه مما تُزَيّد فيه. فالقضية لاتقف عند حدود تيسير تعليم

(*) عضو مجمع اللغة العربية بدمشق. آخر ما زوّد به الكاتب رحمه الله المجلة قبل وفاته.

(*) المذكور في كتاب أبي البركات كمال الدين الأنباري (الإنصاف في مسائل الخلاف) كما ورد في بعض نسخه (١١٨) مسألة، وزيد في بعض النسخ ثلاث مسائل، بحيث بلغت (١٢١) مسألة. [المجلة].

النحو، بل إلى تصحيح ما لا يثبت يقيناً وما لا طائل من ورائه، وما هذا التصحيح إلا شكل من أشكال التيسير.

٢- إنَّ ما نقدّمه ونقترحه متوجّه إلى النحو التعليمي الذي يُتَوَخَّى فيه ما هو صحيح وضروري في النحو. وما كتاب ابن رشد (الضروري في النحو) منا ببعيد، ومثله كتاب ابن مضاء القرطبي (٥٩٣هـ): (الرّدُّ على النحاة)، وكذا مؤتمرات وندوات تيسير النحو.

٣- إننا إذ نقدّر ونجلُّ علم أساتيدنا العلماء القدامى، نوّمن جازمين بأنّه: «لا كلمة أضربّ بالعلم وبالعلماء والمتعلّمين من قول القائل: ما ترك الأول للآخر شيئاً»^(١). وكثيراً ما ردّد العلماء عبارة: (كم ترك الأول للآخر!)، التي تعني أنهم تركوا الشيء الكثير.

إن ممّا يوصف به كثير من النحاة - وأنا من تلامذتهم - التصعّب والتشدد حيناً، والنزوع إلى المخالفة بحق وبغير حق أحياناً، والتزيّد في التشعيب والتفريع أحيان. وإذا كانت هذه الصفة الأخيرة ذات فائدة، ولا سيما للمختصّين؛ فإنها لا تخلو من الإعانات إلى حدّ المَعْجزة (العجز) في مواضع كثيرة فيما لا فائدة كبيرة من ورائه، ولا سيما لغير المختصّين. لقد قَعَدُوا وأطلقوا أحكاماً هي أقرب إلى التّعقيد منها إلى التّقييد.

سوف نتناول في كلامنا هذا ثلاثة مباحث فرّع النحاة فيها قواعد، وفرضوا اشتراطات تراوحت بين التزيّد والخطأ. وهي: منع صرف العلم المنتهي بألف ونون زائدتين، ومنع الصرف للعلمية والعدل، ومنع ما خُتِمَ بالأحرف (ويه) من الصرف.

(١) ابن جني - الخصائص ١: ١٩١.

أولاً: منع صرف العلم المنتهي بألف ونون زائدتين:

قال سيبويه: «إذا سَمَّيْتَ رجلاً طَحَّانَ أو سَمَّانَ من السَّمْنِ أو تَبَّانَ من التَّبْنِ، صرفته في المعرفة والنكرة، لأنها نون من نفس الحرف [الكلمة]، وهي بمنزلة دال حمَّاد. وسألته عن رَجُلٍ يُسَمَّى (دهقان)، فقال: إن سَمَّيْتَهُ من التَّدَهَّقْنِ فهو مصروف...، وإن جعلْتَ دهقان من الدَّهْق، وشيطان من الشَّيْط لم تَصْرِفْهُ»^(٢). وتناقل النحاة في مباحث الممنوع من الصرف حُكْمَهُ فقالوا: «يمنع الاسم من الصرف إذا كان علماً مختوماً بألف ونون زائدتين، سواء أكان العلم لإنسان أم لغيره، نحو: بَذْران، حَيَّان، مروان.. أسماء أشخاص، وشعبان ورمضان من أسماء الشهور العربية.. وحكم هذا النوع المنع من الصرف بشرطيَّه، وهما العلمية والزيادة.. فإذا كان الحرفان الألف والنون أصليَّين معاً، أو النون وحدها، لم يمنع الاسم من الصرف. فمثال الأصليَّين: (بان، خان)، ومثال أصالة النون: (أمان، لسان، ضمان). وإذا كانا معاً صالحين للأصالة وللزيادة، أو كان أحدهما هو الصالح وحده، جاز في الاسم الصرفُ وعدمه نحو: (حَسَّان) عَلَّمَ على رجل، فيجوز أن يكون من الحِسِّ بمعنى الشعور فيُمنَع من الصرف للعلمية وزيادة الحرفين، ويجوز أن يكون من (الحُسْن) فلا يمنع، لأن الزائد حرف واحد. وكذلك (غَسَّان)، قد يكون من (الغَسِّ) بمعنى دخول البلاد، فيمنع من الصرف للعلمية وزيادة الحرفين، وقد يكون من (الغَسْن) بمعنى المَضْغ، فلا يمنع، لأن الزائد حرف واحد؛ [أي: الألف]»^(٣).

وكنت أظنُّ أن هذه التشقيقات والتفريعات هي مما جاء في كتب النحو العلميِّ للمختصِّين، وأنَّ النحو الميسَّر التعليمي قد خلا منها، إلا أن كتاب (النحو الواضح) التعليمي وقع في هذه التَّمحلات، إذ قال: «يمنع العلم من

(٢) سيبويه - الكتاب ٣: ٢١٧-٢١٨.

(٣) عباس حسن - النحو الوافي ٤: ٢٧٧.

الصرف إذا خُتم بألف ونون زائدتين، فإن كانت النون أصلية كما في (حَنَّان ومَنَّان)، إذا سُمِّيت بهما، وَجَب الصرف»^(٤).

يعني هذا أن كتب النحو العلمي المتخصّص، وكتب النحو التعليمي الميسّر تواطأت على هذا الحكم الذي نرى فيه من التّزيّد والتّضعيب ما لا طائل من ورائه. وهذا ما دفعنا إلى اقتراح التيسير فيه بل تصحيحه، بأن يكون الحكم كما يلي: (يُمنع اسم العلم المنتهي بألف ونون من الصرف)؛ أي: دون اشتراط زيادة الألف والنون معاً، أو النون وحدها. وحجّتنا في ذلك أن اشتراط أن تكون الألف والنون زائدتين لمنع صرف اسم العلم المنتهي بألف ونون يفضي إلى أن على المتكلم - قبل أن ينطق بهذا الاسم - أن يعود إلى المعاجم ليَرى هل كانت الألف والنون معاً أو النون وحدها زائدة على الأصل ليمنعه من الصرف أو ليصرفه. فعليه أن يعرف هل سُمِّي (دِهْقَان) من (الدَّهَق) بمعنى الملء فيمنعه الصرف، أم من (التَّدَهْقَن) بمعنى القوة على العمل، فيصرفه. فأَيُّ تَعْمَلُ هذا؟ وأَيُّ إِعْنَاتٍ يشغل عقل المتكلم قبل أن ينطق بمثل هذه الأسماء معربة؟

ولعلّ الأطراف أن نسأل من نخاطبه ممّن اسمه (حَسَّان): هل سَمَّاكَ أهلك (حَسَّان) من (الحُسْن) فنصرفك، أم من (الحِسن أو الحَسَن) فنمنعك من الصرف؟! وكذا أن نسأل من اسمه (غَسَّان): هل سَمَّاكَ أهلك (غَسَّان) من الغَسَن فنصرفك، أم من الغَسَن فنمنعك من الصرف؟

إن تيسير النحو وتعليمه يقتضيان أن تكون القاعدة في منع الصرف في هذه الحالة أن يقال: (يُمنع من الصرف اسم العلم المنتهي بألف ونون)، بصرف النظر عن كون الألف والنون زائدتين أم أصليّتين.

(٤) علي الجارم ومصطفى أمين - النحو الواضح ٢: ٣٥٥.

ثانياً: المنع من الصرف للعدل:

قال ابن هشام في (أوضح المسالك)، في باب ما لا ينصرف^(٥): «النوع الثاني. ما يمتنع صرفه بعَلَّتَيْن، وهو نوعان^(٦): أحدهما: ما يمتنع صرفه نكرة ومعرفة، وهو ما وضع صفة، وهو إمّا مزيد في آخره ألف ونون، أو موازن للفعل، أو معدول. وأمّا ذو العدل فنوعان^(٧):

أحدهما: مُوازن (فُعَال) و (مَفْعَل) من الواحد إلى الأربعة باتفاق، وفي الباقي على الأصح. وهي معدولة عن ألفاظ العدد الأصول مكررة، فأصل (جاء القوم أحاداً)؛ أي: جاؤوا واحداً واحداً، وكذا الباقي. ولا تستعمل هذه الألفاظ إلا نعتاً، نحو: ﴿أُولَئِكَ أَجْنَحَةٌ مَّتَنَّى وَتِلْكَ وَرُبْعٌ﴾ [فاطر: ١]، أو أحوالاً، نحو: ﴿فَأَنكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ مَّتَنَّى وَتِلْكَ وَرُبْعٌ﴾ [النساء: ٣]، أو أخباراً، نحو: (صلاة الصبح مَتْنَى مَتْنَى)، وإنما كرر بقصد التوكيد لا لإفادة التكرير. الثاني: (أُخْر) في نحو: مررت بنسوة أُخْر، لأنها جمع الأُخْرَى، والأُخْرَى أنثى آخر.. وكان القياس أن يقال: (مررت بنساءٍ أُخْر).

.....

السابع: المعرفة المعدولة، وهي خمسة أنواع: أحدها: (فُعَل) في التوكيد، وهي جُمْع، وَكْتَع، وَبُصْع، وَبُتْع. الثاني: (سَحَر) إذا أُريدَ سحر يوم بعينه، واستعمل ظرفاً؛ فإنه معرفة معدولة عن (السَّحَر).

الثالث: (فُعَل) علماً لمذكّر، إذ سُمِع ممنوع الصرف، وليس فيه علة

(٥) ابن هشام - أوضح المسالك ٢: ٥٧ وما بعدها.

(٦) ابن هشام - أوضح المسالك ٢: ٥٨.

(٧) المصدر السابق ٢: ٦٠.

ظاهرة غير العلمية، نحو: عُمِرَ وزُفِرَ وزُحِلَ وَجُمِحَ، فإنهم قدَّروه معدولاً، لأن العلمية لا تستقلُّ بمنع الصرف.

الرابع: (فَعَالٍ) علماً لمؤنث كـ(حِذَام) و(قَطَام) في لغة تميم، فإنهم يمنعون صرفه؛ قال سيويو: «للعلمية والعدل عن (فاعلة)، وقال المبرِّد: للعلمية والتأنيث المعنوي كزينب».

الخامس: (أَمْسٍ) مراداً به اليوم الذي يليه يومك، ولم يُضَفْ ولم يقرن بالألف واللام، ولم يقع ظرفاً، فإن بعض تميم تمنعه من الصرف مطلقاً؛ لأنه معدول عن (الأَمْسِ) كقوله: (لقد رأيت عجباً مذ أَمْسَا)».

وقد تداولت معظم كتب النحو هذه الأقوال والأحكام^(٨).

والذي نراه أن مقولة (العَدْل) علّة منع صرف تحتاج إلى إعادة نظر، بغرض التيسير والتسهيل. وبيان ذلك:

١ - افترض النحاة وجود علتين للمنع من الصرف كالعلمية ووزن الفعل أو العلمية والتأنيث.. ولكن ليس من الضروري تعليل منع الصرف بعلتين؛ جاء في (شرح ابن عقيل): «وإنما يُمنَع الاسم من الصرف إذا وُجد فيه عِلَّتَانِ من عللٍ تسع، أو واحدة منها تقوم مقام العِلَّتَيْنِ... وما يقوم مقام علتين منها اثنان:

أحدهما: أَلِفُ التأنيث مقصورة كانت كـ(حُبْلَى)، أو ممدودة كـ(حمراء).

والثاني: الجمع المتناهي كمساجد ومصاييح^(٩).

وقال البعلبي: «الرابع مما لا ينصرف أبداً ما فيه أَلِفُ التأنيث مطلقاً؛ أي: ممدودة كانت أو مقصورة، نكرة ما هي فيه أو معرفة، مفرداً أو جمعاً، اسماً

(٨) ينظر مثلاً: الأستراباذي - شرح الكافية ١: ٤٦. والبعلبي - الفاخر في شرح جمل عبد

القاهر ١: ١٢٧.

(٩) ابن عقيل - شرح ألفية ابن مالك ٢: ٣٢١.

أو صفة، كـ (ذِكْرَى و حَجَلَى و سَلَوَى و مَرَضَى، و رَضَوَى، و صحراء، و أشياء و حمراء، و أصدقاء، و زكرياء)، فلا ينصرف ما هي فيه.

الخامس مما لا ينصرف أبداً الجمع المُشَبَّه (مفاعل أو مفاعيل)»^(١٠).
ويعني به صيغة تنتهي الجموع.

ولعدم وجود عِلَّتَيْن في هذين النوعين عُلِّل بعضهم منعها من الصرف بوجود فرعيتين: واحدة في المعنى، وهي الجمعية، وواحدة في اللفظ، وهي الخروج عن صيغ الآحاد العربية. وهو تمحُّل لا طائل من ورائه ولا عائد إلا التَّصْعِيب. ويلحظ أنهم عدلوا عن كلمة عِلَّتَيْن إلى فرعيتين.

٢- العَدْل في النحو هو «إخراج الاسم عن صيغته الأصلية بغير القلب لا للتخفيف أو الإلحاق، ولا لمعنى»^(١١). وأوزان العدل - كما في شرح الكافية - هي: فُعَال، أو مَفْعَل، أو فُعَل، أو فَعَال^(١٢).

والسؤال هنا: لماذا يَعْدُونَ (عُمَر) معدولاً عن (عامر)؟ الواقع أنهما اسمان عَلَمان بمنزلة واحدة، وليس أحدهما فرعاً من الآخر. ويقال مثلها في (حذام ورقاش)، فهل عَدَلَت العرب عن حاذمة وراقشة إلى هذين البناءين؟ علماً بأن العرب لم تسمَّ بحاذمة ولا راقشة. والواقع كذلك هنا أنهما اسمان عَلَمان، كلُّ منهما قائم بذاته، وليس معدولاً عن غيره. وكذا قولهم: (مثنى وثلاث) في الأعداد، فهما ليسا معدولين عن اثنين وثلاثة^(*)، لأن لكل منهما

(١٠) البعلي محمد بن أبي الفتح - الفاخر في شرح جمل عبد القاهر ١: ١١٤-١١٦.

(١١) الأستراباذي - شرح الكافية ١: ٤٠-٤١.

(١٢) المصدر السابق نفسه.

(*) الذي قدَّره العلماء في ذلك العدول عن اثنين اثنين، وثلاثة ثلاثة، لا كما ورد هنا، وهو ما رتب عليه الباحث اختلاف المعنيين. والمعنى على تقدير العلماء واحد لا مختلف.

معنى، فقولهم: جاؤوا اثنين أو ثلاثة يختلف عن معنى: جاؤوا مثني وثلاث، أي جاء كل اثنين معاً أو ثلاثة معاً.

٣- مقولة العدل مسألة افتراضية تقديرية لا غير، أقرّ بذلك القدماء والمحدثون. يقول النحوي الكبير (عباس حسن) حول مسألة العدل: «والعدل قسمان:

أ- تحقيقي، وهو الذي يدلُّ عليه دليلٌ غير منع الصرف، بحيث لو صُرف هذا الاسم لم يكن صرفه عائقاً عن فهم ما فيه من العدل، وملاحظة وجوده، كالعدل في (سَحَر) و (أَخَر) بمعنى آخَر، ومثني بمعنى اثنين وهكذا.. فالذي دلَّ على أن كلَّ واحد من هذه الألفاظ وأشباهاها معدولة - ليس الصرف أو عدمه، وإنما هو وروده عن العرب بصيغة أخرى تخالف صيغته الممنوعة بعض المخالفة، مع اتحاد معناه في الحالتين برغم هذه المخالفة.

ب- تقديري: وهو الذي يُمنع فيه العلم من الصرف سماعاً من العرب، من غير أن يكون مع العلمية علّة أخرى تنضم إليها في منع الصرف، فيَقْدَر فيه العدل، لئلا يكون المنع بالعلمية وحدها، مثل (عُمَر وزُفَر)، فلو سُمِع مصروفاً لم يُحَكَم بعدله مثل (أُدَد)، وهو جدّ إحدى القبائل العربية.. وهذا النوع التقديري خاص بالأعلام، ومنها: عُمَر، زُفَر، جُثَم، جُمَح، ولا دليل يدلُّ عليه إلا منع العلم من الصرف، وعدم وجود علّة أخرى تنضم إلى العلمية في منع صرفه، جعلهم يعتبرون العلّة الثانية مقدّرة.

وعندي أن كل ما قيل في العدل وتعريفه وتقسيمه وفائدته مَصْنُوع متكلّف، ولا مردّ لشيء فيه إلا السماع. وخير ما يقال عند الإعراب في سبب المنع إنه العلمية وصيغة فُعَال أو مَفْعَل أو فَعَل أو غيرها من الصيغ المسموعة نصّاً عن العرب»^(١٣).

والذي أراه أن ما قاله النحوي الكبير عباس حسن هو عين الصواب، ولعلَّ التيسير في النحو يقتضي أن نسقط عِلَّةَ (العَدْل) في تعليل المنع من الصرف، ويكتفى بالقول في مثل هذه الأنواع من الكلم: يمنع من الصرف الكلمات الآتية:

- ١ - أسماء الأعلام على وزن (فُعَل)، نحو عُمر.
 - ٢ - صفات التوكيد: جُمع، بُع، كُتّع، وأمثالها.
 - ٣ - الصفة (أُخَر) جمع (أُخَرى).
 - ٤ - ظرف الزمان (سَحَر) مراداً به سَحَر يوم بعينه.
 - ٥ - أسماء الأعداد على وزن (مَفْعَل وفُعَال)، نحو: مثنى وثلاث...
- ولا حاجة لذكر نحو (حَذام ورقاش)، لأنها متضمنة في قاعدة منع الصرف للعلمية والتأنيث.

ثالثاً: الأسماء المنتهية بالأحرف (وبه) ممنوعة من الصرف لا مبنية على الكسر.

ممّا وَرَدَ في هذه المسألة من أحكام مايلي:

- جاء في (شرح التسهيل) لابن مالك: «والمراد بالمزج التركيب بتنزيل عجز المركّب منزلة تاء التأنيث، فإن لم يكن عجزه (ويه) فهو معرّب غير منصرف (كحَضْرَ مَوْتٍ)، وقد يُضاف صدره إلى عجزه فيقال: (هذا حَضْرُ مَوْتٍ). وإن كان عجزه (ويه) بني على الكسر، فقليل: (هذا سيبويه ورأيت سيبويه ومررتُ بسيبويه). وبعض العرب يعربه ويمنعه الصّرف»^(١٤).

- وجاء في (شرح الأشموني على الألفية): «أما المركّب المزجي المختوم (بويه) كسبويه وعَمْرَوِيّه، فإنه يبنى على الكسر، وقد يُعَرَّب غير

منصرف كالمختوم بغير (ويه) ^(١٥).

- وجاء في (همع الهوامع) للسيوطي: « ذو المزج هو كالاثنين نُزِلَ ثانيهما منزلة تاء التانيث، وهو نوعان: مختوم بـ(ويه) كسيويه ونفطويه، وفيه لغات: الفُصحى بناؤه على الكسر تغليباً لجانب الصوت، ويليهما الإعراب ممنوع الصرف» ^(١٦).

- وجاء في (النحو الوافي): «ومن الأسماء القديمة، الممنوعة من الصرف خالويه، نفطويه، وسيويه، وغيرها من الأعلام المبنية على الكسر - غالباً - المختومة بكلمة (ويه)» ^(١٧).

- وكتب النحو التعليمي الميسرة لم تخل من هذا الحكم، إذ جاء في (النحو الواضح): «أن المختوم بكلمة (ويه) يبنى على الكسر» ^(١٨).

ويتَّضح ممَّا تقدَّم أن هذا النوع من الأسماء مبني على الكسر غالباً، لأنَّه مُرَكَّب، وأنَّ بناءه على الكسر تغليب لجانب الصوت. وهذا حكم فيه نظر - كما يقول القدماء - أو يحتاج إلى إعادة نظر كما يقول المحدثون.

وإعادة النظر في ذلك الحكم يفضي إلى أنَّ في ذلك الحكم خطأً منهجياً، وهو عَدُّهم ما انتهى بـ (ويه) مثل سيَّويه ونفطويه مركباً مزجياً.

ومورد الخطأ أنهم طردوا أو طبَّقوا قواعد النحو العربي وصَرَفَه على الكلم الأجنبي، ومعروف أنَّ قواعد كل لغة إنما هي مستقراة من منظومتها اللغوية بأنظمتها النحوية والصرفية والدلالية. وتلك الكلمات مثل سيَّويه ونفطويه

(١٥) الأشموني - شرح الأشموني على ألفية ابن مالك ١: ١١٦.

(١٦) السيوطي - همع الهوامع ١: ٢٨٢.

(١٧) عباس حسن - النحو الوافي ١: ٣٥.

(١٨) علي الجارم - النحو الواضح ٢: ٢٣٧.

أسماء أعجمية من اللغة الفارسية المنتمية إلى فصيلة اللغات الهند أوروبية، وهي فصيلة مغايرة بأنظمتها لفصيلة اللغات الجزيرية عامّة، والعدنانية الفصحى خاصّة. فكيف تُطبّق قاعدة التركيب المزجيّ الخاصة بالعربية على كلمات أو تراكيب من لغات مختلفة تماماً؟ وتذكرنا هذه الحالة بخطأ من يزن الكلمات الأعجمية المعرّبة بالميزان الصرفي العربي؛ لأن الميزان الصرفي العربي موضوعٌ لتمييز الأحرف الأصلية من الأحرف الزائدة في الكلمة العربية، وهو لا ينطبق على الكلمات الأعجمية، لأننا لانعرف قواعد الزيادة عندهم، وما الأصلي والزائد منها إن كان فيها زوائد، عدا أن هذا ليس من مهمة الدرس اللغوي العربي. وهذا ما حدا بالخفاجي إلى أن يذكر أن: المعرّب الأعجمي لا يوزن أصلاً لجهالة معرفة الأصلي والزائد في الكلمة الأعجمية^(١٩).

ولعلّ هذا ما جعل بعض النحاة العرب يجدون مصطلحاً خاصاً يمثل ذلك الكلم المعرّب، وهو (الملحق ببناء عربي)، «فدّرهم مُلحق بهجرع، ودينار ألحقوه بديماس... وجوّرب ألحقوه بـ(فؤعل)، وقالوا أجور (الآجر)، فألحقوه بعاقول»^(٢٠).

ولنا مصطلح بديل لوّزن هذه الأسماء، وهو (الإيقاع الصوتي العربي)، ويعني توالي حركات أحرف الكلمة وسكناتها وأصواتها على غرار نظائرها العربية، فإن كلمة (أَمُون) مثلاً صفة للناقة هي على وزن (فَعُول)، أما كلمة (أَيُون) المصطلح الكهربائي المعرّب فهي على إيقاع (فَعُول)، نظيرتها في النطق العربي^(٢١).

(١٩) الخفاجي - شفاء الغليل في ما في كلام العرب من الدخيل: ٢٣.

(٢٠) سيوييه - الكتاب ٤: ٢٠٤.

(٢١) لمزيد من التفصيل، ينظر: ممدوح خسارة - منهجية تعريب الألفاظ في القديم والحديث: ٥٩-٨٢.

فإذا صحَّ أن تلك الأسماء الأعجمية المنتهية بـ (ويه) ليست مركَّباتٍ مزجية على التحقيق، لأنَّها تدخل في عِدَادِ أسماء الأعلام الأجنبية المعرَّبة، وحكمها أن تُمنع من الصرف عند تحقُّق شروطه، أي: الأفراد وعدم الإضافة وعدم التنكير؛ فيقال: (جاء سَيَّوِيٌّ، ورأيت سَيَّوِيَّةً، مررت بسَيَّوِيَّةً) لمن كان هذا اسمه. أما إذا انتفى أحد شروط المنع فيُعَامَل كالأعلام المعرَّبة المنصرفة؛ فيقال: (مررت بسَيَّوِيٍّ وسَيَّوِيَّةٍ آخَرَ) أو (هذا سَيَّوِيٌّ عصره).

ولسنا من المبتدعين في هذا الحكم؛ إذ سبقنا كثير من نحائنا إليه. قال الأشموني: «أما المركَّب المزجي المختوم بـ (ويه) كسَيَّوِيٍّ وعَمْرُوِيٍّ، فإنه مبني على الكسر، وقد يعرب غير منصرف كالمختوم بغير (ويه)»^(٢٢).

وقال السيوطي عنه: «وفيه لغات: الفصحى بناؤه على الكسر لجانب الصوت، ويليهما الإعراب ممنوع الصرف»^(٢٣) كما سبق. وكلامنا إنما هو ترجيح لما كان النحاة قد عدُّوه جوازاً، أو أقل فصاحة من البناء على الكسر. وقد يَرِد علينا أنه إذا كان حكمكم وترجيحكم يصلح لأسماء الأعلام الأجنبية المنتهية بالأحرف (ويه)، فما الحكم في أسماء الأعلام الهجينة؛ أي: المؤلفة من دمج كلمتين عربية وأعجمية مثل: عَمْرُوِيٍّ وحَمْدُوِيٍّ وخالوِيٍّ؟ نقول: الحكم فيها أن تُعَامَل معاملة أسماء الأعلام الأعجمية، مثلها في ذلك مثل نظيراتها المعاصرة من أسماء الأعلام الشائعة في بلاد آسيا الوسطى، نحو: مُحَمَّدُوفٍ ونزارُوفٍ وعليِّيف.. إذ تُمنع من الصرف؛ فيقال: (حَضَرَ مُحَمَّدُوفٌ، أكرمت نزارُوفَ، ومَرَرْتُ بعليِّيفَ).

نخلص مما تقدَّم إلى أن أسماء الأعلام الأجنبية المعرَّبة قديماً أو حديثاً

(٢٢) الأشموني - شرح ألفية ابن مالك ١: ١١٦.

(٢٣) السيوطي - همع الهوامع شرح جمع الجوامع ١: ٢٨٢.

تُمْنَع من الصرف للعلمية والعجمة، سواء أكانت منتهية بالأحرف (ويه) مثل (سيبويه)، أم مُذْمَجَة من اسم عربي وآخر أعجمي مثل (عَمْرُويه). وبهذا تَطَّرَد قاعدة منع الصرف للعلمية والعجمة، ولا تَفْرَد بضعة أسماء أعلام أعجمية بحكم خاص بها، وهو بناؤها على الكسر. وفي هذا بعض تيسير في قاعدة من قواعد النحو العربي... والله أعلم.

* * *

المصادر والمراجع

- أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك - ابن هشام - تح إميل يعقوب - دار الكتب العلمية - بيروت - ط (١٩٩٧) م.
- الخصائص - ابن جني - الهيئة العامة للكتاب - ط ٤ (دون تاريخ).
- شرح الأشموني على ألفية ابن مالك - دار الكتب العلمية - بيروت - لبنان - ط ١ (١٩٩٨).
- شرح تسهيل الفوائد - ابن مالك - تح عبد الرحمن السيد ومحمد بدوي المختون - هجر للطباعة والنشر والتوزيع - ط ١ (١٩٩٠) - (د.م).
- شرح الكافية الشافية - الأستراباذي - منشورات المكتبة المرتضوية (د.ت.م).
- شفاء الغليل في ما في كلام العرب من الدخيل - الخفاجي - تح عبد المنعم الخفاجي - القاهرة - (د.ت).

- الفاخر في شرح جمل عبد القاهر - محمد بن أبي الفتح البعلبي - تح د. ممدوح خسارة - المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب - الكويت - ط ١ (٢٠٠٢) م.
- الكتاب - سيبويه - تح عبد السلام هارون - مكتبة الخانجي - القاهرة - ط ٣ (١٩٨٨) م.
- النحو الواضح - علي الجارم ومصطفى أمين - الدار المصرية السعودية للطباعة والنشر والتوزيع - (د.ت.م).
- النحو الوافي - عباس حسن - دار المعارف - مصر - ط ١٥ (د.ت).
- همع الهوامع شرح جمع الجوامع - الشُّيوطي - تح عبد الحميد هنداوي - المكتبة التوفيقية - مصر - (د.ت).

* * *

مطالعة في مفهوم الساكن والسكون

أ. د. أحمد محمد قدّور^(*)

١- تمهيد:

حين ينظر الدارس إلى الدرس الصوتي أو (علم الأصوات) عند العرب من الوجهة اللسانية الحديثة يتّضح له مبلغ ما توصل إليه القدامى من أفكارٍ ونتائجٍ مع قلة الوسائل وانعدام الأجهزة المساعدة. لكنّ هذه النظرة تختلط أحياناً ببلبلٍ للأفكار، وظهور موجات من الشكّ والتشكيك في إنجاز علمائنا في دراسة اللغة، ولا سيّما الدراسة الصوتية. بل ذهب بعضهم إلى تخطئة هؤلاء العلماء جملة، واصطناع بديلٍ دُعي بالمنهج الصوتي للبنية العربية^(١). مع أنّ هناك في جانب آخر من الصورة جهوداً ضخمة بُذلت منذ فترة ليست بالقصيرة للتعريف بعلم الأصوات عند العرب، ومراجعة الكثير من مسائله في ضوء الدرس اللساني من غير افتئات على القدامى، أو انبهار بالمحدثين.

وتأتي هذه المطالعة في سياق مراجعة عامة لعدد من المسائل الصوتية في درسنا العربي. ويُشار هنا إلى بحث مطوّل للدكتور كمال بشر نشره في

(*) عضو مجمع اللغة العربية بدمشق.

(١) انظر ما اصطنعه عبد الصبور شاهين في كتابه المنهج الصوتي للبنية العربية، ط ١.

١٩٧٧ م. وانظر رداً على بعض ما اقترحه لدى فخر الدين قباوة في كتابه إشكاليات في

البحث والنقد النحويين، ص ٣٦-٤٤.

كتابه القيم «دراسات في علم اللغة»، بعنوان: السكون في اللغة العربية، ضمّه الجزء الأول من الكتاب. ويمثّل منهج الدكتور بشر وسطاً بين فريقين متناقضين من الدارسين: أحدهما لا يحفل بالوافد الجديد، ولا ينظر فيه، والآخر أعرض عن القديم جملةً.

وتعرض هذه المطالعة لثلاث محطّات في درس الساكن والسكون، أوّلها نقف فيها عند سيبويه، والثانية نقف فيها عند ابن جنّي، والثالثة نقف فيها عند ابن الطّحان. وقد انفرد كلّ منهم بشيء مختلف عن الآخر، ولكنّه يصبّ في حوض الموضوع المدروس. على أنّ إفادتنا من بحث الدكتور بشر كانت محصورة في إطار البحث وبعض الآراء فقط، إضافة إلى أنّه الباعث على إنشاء هذه المطالعة أصلاً.

أثار السكون درساً مهمّاً في علوم اللغة عند العرب، فقد تناوله النحاة وعرضوا لكثير من مشكلاته على مختلف المستويات اللغوية: الصوتية والصرفية والنحوية، وما يتعلّق برمزّه في الكتابة. على «أنّ السكون من وجهة النظر الصوتية لم يمثّل مشكلة في نظر المتقدمين من اللغويين، فلم يروّ عنهم فيما نعلم أيّ شيء يناقض قيمته الصوتية، أو حقيقته من حيث النطق بالمفهوم الذي نرتضيه اليوم»^(٢). أما آراء المتأخّرين - كما يذكر بشر - فتُصنّف في ثلاث مجموعات رئيسة، هي: الأولى نظر فيها أصحاب هذه المجموعة إلى «السكون» على أنّه حركة، فجعلوه قسيماً للحركات، وواحداً في سلسلة عددها. والثانية لم يسمّ أصحابها «السكون» حركة، لكنّهم عاملوه على أنّه شيء ينطق، ويتلفّظ به تحقيقاً. واستغلق الأمر على بعض هؤلاء، فلم يستطيعوا التفريق بين الحركات وبين ما سمّوه بالسكون

(٢) دراسات في علم اللغة لكمال بشر، ١/ ٢٠٥.

من ناحية النطق، مع أنّ السكون هو عدم الحركة المملوطة، أو ما يتلفظ به. وقد أطلق هؤلاء مصطلح «ساكن» على كلّ حرف خلا من الحركات الثلاث: الفتحة والكسرة والضمة سواء أكان حرفاً صحيحاً، أم حرف مدّ. فالمدّات عندهم لا يمكن أن يكنّ إلا سواكن. وهي كالحروف الصحيحة في خلّوها من الحركات، لذلك نظروا إلى هذه المدّات نظرتهم إلى الساكن متأثرين في ذلك بالرموز الكتابية. والمجموعة الثالثة رأت أنّ السكون لا يُنطق به، وهو ليس بحركة أصلاً، بل هو «عدم الحركة». واعترض بعض هؤلاء - من المجموعة الأخيرة - على أولئك الذين يعاملون السكون معاملة الحركة من ناحية النطق والتلفظ.

وعلق كمال بشر على هذه الآراء بقوله: إنّ السكون هو عدم الحركة، وهذا العدم لا منطوق له في الواقع أو التصرّو. وتسمية هذا العدم سكوناً أمر يجوز قبوله، ولكن شريطة أن يكون الدارس على وعي بمفهوم هذا المصطلح من ناحية النطق. ولا نوافق على كثير مما نسبوه إلى السكون من خواصّ تجعله كما لو كان صوتاً له تحقّق ماديّ كالأصوات الأخرى. فهو «عدم»، أو لا شيء، إذ إنّّه لا يُنطق به، وليس له أيّ تأثير سمعي. ومعنى هذا أنّه ليس صوتاً «صامتاً» أو حركة «صائتاً»^(٣).

وينبغي أن نشير إلى أنّ مفهومي الحركة والسكون مفهومان اختصّ بهما النحاة عندنا، وليس لهما ما يماثلهما في الصوتيات الغربية. فالنحاة لم ينظروا إلى التسلسل الصوتي في الكلام على أنّه مجرد توالٍ لمقاطع صوتية، بل لاحظوا تضافر الحركة والسكون لإدراج الكلام، أي: وصله وربط عناصره. فالنظرية البنائية لدى العرب كذلك بُنيت على الأصول الساكنة، أي: الحروف التي لا

(٣) المرجع السابق، ١/ ١٩٣-١٩٧، ٢١٧-٢١٨.

تدخلها الحركة، إلا حين النطق بكلمة ما من تلك الأصول. وجاء لدى سيبويه: «وزعم الخليل أنّ الفتحة والكسرة والضمة زوائد، وهنّ يلحقن الحرف ليوصل إلى التكلم به. والبناء هو الساكن الذي لا زيادة فيه»^(٤). ونشير إشارات عجلى إلى بعض ما ورد لدى الدكتور بشر، على أن نعود إلى بعضها بالتفصيل لاحقاً. فالقدا مى وصفوا حروف المدّ بالسكون، لأنّ المدّ يتلاشى، ولا يتأتّى له الخروج إلى مخرج الحرف التالي له، فأشبه بذلك الساكن الجلد في عجزه عن الوصول إلى المخرج التالي. فلا خلاف بين معرفة القدا مى لجوهر المدّ الصائى، واعتبارهم حرف المدّ ساكناً لانحصاره في موضعه، وعدم انتقاله، كما تقدّم. فمن الوجهة الصوتية «الفونيتيكية» عرفوا المدّ ودرسوه وبيّنوا أحكامه، ومن الوجهة الصوتية التشكيلية «الفونولوجية» لاحظوا عجزه عن الإدراج وانتهاءه متلاشياً بالسكون، فعّدوه ساكناً من هذه الوجهة. أما وصف «السكون» بأوصاف نطقية فهو من باب التجوّز، فالوصف للحرف «الساكن» حتماً، ولذلك يختلف السكون باختلاف الحرف من جهة خصائصه النطقية. وإذا نظرنا إلى أنّ المقصود هو الحرف الساكن - كما تقدّم - جاز أن يوصف الحرف الساكن بأوصاف صوتية جرسية كالقلقلة والنفخ والغنة ونحو ذلك.

إنّ مفهوم السكون أو الحرف الساكن - كما يستخلص من آراء كثيرة - هو خلوّ الحرف من الحركة الظاهرة، على أنّ له قيمة إيقاعية معروفة، ولذلك بنيت التفعيلات العروضية على توالي الحركة والسكون. والحرف الساكن لا يخلو من حركة «داخلية» استمدّها من المتحرّك السابق له جعلته يُنطق به بتأثير ذلك المتحرّك، فالسكون حقيقة هو البقاء في الحيّز (أو المخرج) وعدم الانتقال إلى حيّز آخر.

٢- الحرف الحيّ والحرف الميت:

وصف سيويه (ت ١٨٠ هـ) «الحرف» بأنه ميت، إذا كان من حروف المدّ الثلاثة، ووصف الواو والياء إذا تحرّكتا بأنهما حيّتان. ويبدو أنّ هذا المفهوم في وصف حروف المدّ يرجع إلى الخليل، فقد ذكر سيويه أنّه سأله -يقصد شيخه الخليل- عن واو عجوز وألف رسالة وياء صحيفة، لأيّ شيء هُمَزْن في الجمع، ولم يكن كمعاش؟. فقال: «إنّ هذه الحروف لم يكن أصلها التحريك، وكانت ميتة لا تدخلها الحركة على حال. أما نحو معاش ومعاون فأجمع ما أصله الحركة، فهو بمنزلة ما حرّكت كجدول.. فهذه الأحرف الميتة التي ليس أصلها الحركة أجدر أن تغيّر»^(٥). على أنّ سيويه سبق أن عرض في موضع متقدّم من الكتاب لواو عجوز وجزور، وقال: إنّها لا تثبت، وإنّما هي مدّة تبعت الضمة، ولم تجئ لتلحق بناءً ببناء.. فهي لا تثبت في الجمع إذا قلت: عجائز.. فهذه الميتة (أي: واو عجوز) التي لا تثبت في الجمع لا يجوز فيها أن تثبت^(٦). ثم يقول: «إنّ (عجوز) ليست كجدول، ولا قسور. ألا ترى أنّك لو جئت بالفعل عليها لقلت: جدولْتُ وقسورْتُ. وهذا لا يكون في مثل عجوز»^(٧). ويصف واو جدول

(٥) الكتاب، ٣٥٦/٤. وقارن بغانم قدوري الحمد، الدراسات الصوتية عند علماء التجويد، ص ٣٨٠. ويريد بالسؤال أستاذه الخليل، فقد ذكر السيرافي أنّ كلّ ما قال سيويه: وسألته، أو قال من غير أن يذكر قائله، فهو الخليل. انظر: الكتاب لسيويه، من مقدمة المحقق ١/ ١١. وكذلك نزهة الألباء في طبقات الأدباء لابن الأباري، ص ٤٥.

(٦) الكتاب، ٣/ ٤٧٠. فالياء والواو في معاش (مفرده معيشة)، ومعاون (مفرده معونة) حرفان أصلان، وكانا متحركين قبل إعلالهما في المفرد لموازنة الفعل. أما الواو في عجوز فحرف مد زائد لم تكن متحركة من قبل.

(٧) السابق، ٣/ ٤٧١.

وقسور بأنّ الواو فيها حيّة^(٨). وكذلك (الواو) في «طويل وطوال فهي بمنزلة جاور وجوار، لأنّها حيّة في الواحد على الأصل»^(٩). ويذكر أيضاً في هذا النحو «أنّهم بينوا في هذه الأحرف (نحو أجودت وأطولت واستحوذ واستروح)، فجعلوها بمنزلتها في أنّها لا تتغير، كما جعلوها بمنزلتها حيث أحيوها فيما تعتلّ فيه نحو اجتوروا»^(١٠). ويصف كذلك الواو في نحو (سوط وسياط، وثوب وثياب، وروضة ورياض) «بأنّ الواو فيها ميتة ساكنة، لذلك شبهوها بواو يقول، لأنّها ساكنة مثلها، ولأنّها حرف الاعتلال»^(١١).

ويذكر سيبويه أيضاً أنّهم جاؤوا بالمصدر على فعلة، نحو (عيمة)؛ لأنّه كان في الأصل على فعل. ولكنهم أسكنوا الياء وأماتوها^(١٢). والياء إذا كانت ساكنة لم تكن حيّة^(١٣). والألف حرف ميت دائماً، وإنّما صارت هذه الألف إذا كانت خامسة عندهم بمنزلة ألف مبارك وجوّالقي، لأنّها ميتة مثلها^(١٤). وسبب أنّ الألف ميتة دائماً أنّها لا تُحرّك، «فإن حرّكت صارت غير ألف، والواو والياء تحرّكان ولا تغيران»^(١٥).

ويقول كذلك: «وإنّما جسروا على حذف الألف، لأنّها ميتة لا يدخلها

(٨) السابق، ٣/ ٤٦٩.

(٩) السابق، ٤/ ٣٦٣.

(١٠) السابق، ٤/ ٣٤٦.

(١١) السابق، ٤/ ٣٦٠.

(١٢) الكتاب، ٤/ ٢٤-٢٥. وفيه: «وأما ما كان من بنات الياء والواو التي هي عين، فإنّما تجيء على فعلٍ يفعل معتلة لا على الأصل، وذلك عمّت تعام عيمة، وهو عيمان، وهي عيمي، جعلوه كالعطش، وهو الذي يشتهي اللبن، كما يشتهي ذاك الشراب». انظر: ٤/ ٢٤.

(١٣) السابق، ٢/ ٢٦١.

(١٤) السابق، ٣/ ٤١٩.

(١٥) السابق، ٤/ ٥٤٧-٥٤٨.

جرّ ولا رفع ولا نصب فحذفوها، كما حذفوا ياء ربيعة وحنيفة. ولو كانت الياءان متحرّكتين لم تحذفا لقوة المتحرّك. وهذه الألف (نحو مرمّى) أضعف تذهب مع كلّ حرف ساكن»^(١٦). فالحركة هي التي تجعل الحرف حيّاً، «وذلك أنّ آخر الاسم لما تحرّك وكان حيّاً يدخله الجرّ والرفع والنصب صار بمنزلة سلامان وزعفران...»^(١٧).

ويصف سيبويه الحروف الثلاثة السواكن «بأنّها حروف ميتة، وقد بلغت غاية ليس بعدها تضعيف»^(١٨). وما ذلك إلا لسكونها وضعفها، إذ كانت ميتة خفية^(١٩). «ولذلك يجسرون بهذا على هذه الحروف الميتة، وسترى للمتحرّك قوّة ليست للساكن في مواضع كثيرة»^(٢٠).

ويصف سيبويه في نصّ نادر الهمزة بأنّها «كلمة حيّة لم تجئ للمدّ، وإنّما هي بمنزلة جيم مساجد، وهمزة بُرائل.. فالألف أولى بالطرح من الهمزة»^(٢١).

والخلاصة أنّ سكون هذه الحروف وضعفها هو الذي يجعلها ميتة قابلة للحذف، على حين أنّ الحركة هي التي تجعل الواو والياء قويتين عصيتين على الحذف، فالتحرّك قوّة والسكون ضعف^(٢٢)، وصار لذلك المتحرّك

(١٦) السابق، ٣/ ٣٥٥-٣٥٦.

(١٧) الكتاب، الموضع نفسه.

(١٨) السابق، ٣/ ٥٤٤.

(١٩) السابق، ٢/ ٢٦٢.

(٢٠) السابق، ٣/ ٣٥٦.

(٢١) الكتاب، ٣/ ٤٣٩. وسيبويه يطلق لفظ «الكلمة» على حرف الهجاء (الهمزة)، كما أطلق لفظ «الحرف» على الكلمة مطلقاً أيّاً كانت في مواضع من كتابه. انظر: خديجة الحديثي: «المصطلح الصرفي في كتاب سيبويه»، ص ١٧٤.

(٢٢) يذكر أنّ الدكتورة خديجة الحديثي عرّفت استناداً إلى سيبويه الحرف الحيّ والحرف الميت، ونقلت نصوصاً من كتاب سيبويه من غير تعليق ثمّ. انظر بحثها المعنون =

حيًا، والسّاكن ميتًا.

وتابع سيبويه بعضُ شراح الشافية كالأستراباذي (رضي الدين ت ٦٨٨هـ) في شرحه للشافية، فذكر أنّ سيبويه قال: «إنّما لم تحذف الياءات، لأنّها إذا تحرّكت قويت كالحروف الصحيحة»^(٢٣). وعرض لَوَاو «حَوْض»، إذ لم تعلّ، بل فيها شبه الاعتلال، وهو كونها ساكنة، لأنّ السكون يجعلها ميتة، فكأنّها معلة^(٢٤). ووصف حروف العلة بأنّها لا تحتل الحركة^(٢٥).

ونقل الخضر اليزدي (كان حيًا سنة ٧٢٥هـ) كلام سيبويه عن تخفيف الهمز، وعلّق عليه بقوله: «إنّ بينَ بينَ قريب من المتحرّك، كما دريت، فلو جُعِلت كذا لم يكن تخفيف، لكنّ المطلوب هو، أما الملازمة فلأنّ الساكن أخفّ من المتحرّك، وما قرب منه، وأما اللازم فظاهر..^(٢٦)». وكلام سيبويه المقصود هو: إنّما منعك أن تجعل هذه السواكن بينَ بينَ، لأنّها حروف ميتة. وفي إمالة الألف الصائرة ياء مفتوحة، نحو دعا، فنقول: دُعِي، وحُبَلِي، فنقول: حُبَلِيان علّق على قيد الياء بكونها مفتوحة: لئلا يرد جواز إمالة مثل: تاب، وجال (كذا)، وسترّد لاحقاً بالمهملة)، فإنّ ألفه قد تصير ياء، كما في تَيْب، وحَيْل، لكن لا تصير ياء مفتوحة قطعاً، لأنّ التحرك يزيدها قوّة في اليائية، وإن كان عارضاً بخلاف انقلابها ساكنة، لأنّ الحرف الساكن كالميت، ولا سيّما حروف اللين^(٢٧).

= بـ «المصطلح الصرفي في كتاب سيبويه، مؤتمر النقد الأدبي الخامس، ١٩٩٤م، جامعة اليرموك، إربد، الأردن»، ص ٨.

(٢٣) شرح الشافية للأستراباذي، ٢/ ٣٠٠، وقارن بسرّ صناعة الإعراب لابن جنّي، ١/ ٢٠.

(٢٤) شرح الشافية للأستراباذي، ٣/ ١٣٨.

(٢٥) السابق، ٣/ ٤٠.

(٢٦) شرح الشافية لليزدي، ٢/ ٧٥١-٧٥٢.

(٢٧) السابق، ٢/ ٧٢٥-٧٢٦. والكتاب لسيبويه: ٣/ ٥٤٤.

وذكر ابن الطحان (ت نحو ٥٦١هـ) - وهو أحد القراء وعلماء التجويد - في كتابه «مرشد القارئ إلى معالم المقارئ» حين عرض للمخارج الياء الحية مع الجيم والشين، كما ذكر الياء والواو المديتين من غير شرح، إلا أنه ذكر من قبل أن المتحرك حي^(٢٨). وفي هذا دليل على تأثره بسيبويه في مفهوم الحرف الحي والحرف الميت.

ونخلص من هذا الحديث إلى أن الأمر يدور على حروف المد وحدها؛ فإن كانت ساكنة فهي ميتة، لأنها ضعيفة وخفية وقابلة للحذف؛ وإذا تحركت الواو والياء - والألف ساكنة أبداً - قويتا وصارتا حيتين، لأن الحركة تخرجهما من كونهما حرفي لين، أو كونهما من المعتل^(٢٩). وليس فيما تقدّم أي حديث عن طبيعة السكون، أو مقارنته بالحركات.

٣ - الساكن الصحيح والمد:

وقف ابن جنّي (ت ٣٩٢هـ) عند المتحرك والساكن، وفصل أحوال السكون حين اتخذ وزن «فعل» أساساً للدرس؛ إذ رأى أن هذا الوزن أعدل الأوزان التي يتصرف عليها الثلاثي المجرد، والتي تبلغ اثني عشر بناءً، يستعمل منها أحد عشر، ويُهمل واحد للاستثقال^(٣٠). وذكر أن الساكن على

(٢٨) مرشد القارئ إلى تحقيق معالم القارئ لابن الطحان، ص ٣٠، ٥٨، ٥٩. وسقط وصف «الحية» من مطبوعة مخارج الحروف وصفاتها لابن الطحان، وهو جزء من كتاب مرشد القارئ المذكور آنفاً. انظر: مخارج الحروف وصفاتها، بتحقيق محمد يعقوب تركستاني، ص ٨١. وجاء في كتاب «مخارج الحروف وصفاتها» لبرهان الدين بن عمر ابن إبراهيم الجعبري (ت ٧٣٣هـ) في المجموع الذي ضمّ مرشد القارئ وفق ما جاء في المخطوطة: «الجيم والشين والياء المتحركة والينة من وسط اللسان..». انظر: مخارج الحروف لابن الطحان، ص ٧٣، ومرشد القارئ له كذلك، ص ٢٧.

(٢٩) الكتاب، ٤/ ١٩٣، ٣٨٤، وانظر: ٣/ ٣١٠.

(٣٠) الخصائص، ١/ ٦٨، ٥٦-٥٧.

ضربين: ساكن يمكن تحريكه، وساكن لا يمكن تحريكه، الأول منهما جميع الحروف إلا الألف الساكنة المدة. والثاني هو هذه الألف، نحو أَلِف كتاب وحساب وباع وقام^(٣١). وقسم ابن جني الساكن بحسب موقعه إلى ساكن محشوّ به، وساكن موقوف عليه، وشرع يفسّر أحوالهما؛ فسكون العين ليس كسكون اللام (في وزن فَعَل)، فصار الساكن المتوسط لما ذكرنا كائنه لا ساكن ولا متحرّك، وتلك حال تخالف حالّي ما قبله (المتحرّك)، وما بعده (الساكن في الوقف). وسبب ذلك أنّ هذا الساكن المحشوّ به يُدرج إلى ما بعده، فتختلف حاله عن المتحرّك والساكن، إذ يغدو بالإدراج مضارعاً للمتحرّك. فالحرف الساكن ليست حاله إذ أدرجته إلى ما بعده كحاله لو وقفت عليه؛ وذلك لأنّ من الحروف حروفاً إذا وقفت عليها لحقها صُويّت ما من بعدها، فإذا أدرجتها إلى ما بعدها ضعف ذلك الصُويّت وتضاءل للحسّ، فيستهلك إدراجك إيّاه طرفاً من الصوت الذي كان الوقف يقرّه عليه، ويسوغك إمدادك به^(٣٢). ومما يدلّك على أنّ الساكن إذا أُدرج ليست له حال الموقوف عليه أنّك قد تجمع في الوقف بين الساكنين، نحو (بكر) و(عمرو). فلو كانت حال سكون كاف (بكر) كحال سكون رائه لما جاز أن تجمع بينهما من حيث كان الوقف للسكون على الكاف كحاله لو لم يكن بعده شيء، فكان يلزمك حينئذ أن تبتدئ بالراء ساكنة، والابتداء بالساكن ليس في هذه اللغة العربية، لا، بل دلّ ذلك على أنّ كاف (بكر) لم تتمكن في السكون تمكّن ما يوقف عليه، ولا يتناول إلى ما وراءه^(٣٣).

(٣١) الخصائص، ٢/٣٣٧.

(٣٢) السابق، ١/٥٧-٥٩.

(٣٣) السابق، ١/٥٨-٦٠.

وواضح أنّ ابن جنّي يعتقد أنّ هذا الساكن فيه أثر للحركة المستمّدة من فاء الكلمة جعلته حين يُدرَج مشاكلاً للمتحرّك، لأنّ أصل الإدراج للمتحرّك، إذ كانت سبباً له وعوناً عليه^(٣٤). على أنّ هذا الإدراج يتتقصه بعض الخصائص الجرسية التي تظهر في الوقف.

«فالموقوف عليه أتمّ صوتاً من الساكن المحشوّ به. وسبب ذلك أنّك إذا وقفت عليه، ولم تتطاول إلى النطق بحرف آخر من بعده تلبّثت عليه، ولم تسرع الانتقال عنه، فقدرت بتلك اللبّثة على إتباع ذلك الصوت إيّاه. فقد نجد من الحروف ما يتبعه في الوقف صوت، وهو مع ذلك ساكن، نحو (اف، إس، اص). قيل: هذا القدر من الصوت إنّما هو متمّم للحرف، وموفّ له في الوقف، فإذا وصلت ذهب أو كاد. وإنّما لحقه في الوقف، لأنّ الوقف يضعف الحرف»^(٣٥). ويزيد في بيان ذلك - كما يقول - أنّك تقول في الوقف: النفس، فتجد السين أتمّ صوتاً من الفاء، فإنّ قلبت قلت: النفس، وجدت الفاء أتمّ صوتاً، وليس هنا أمر يعرف هذا إليه، ولا يجوز حمله عليه إلا زيادة الصوت عند الوقوف على الحرف ألبّته^(٣٦). ومع ذلك فإنّ هذا الساكن مع تمكّنه في الخصائص الجرسية (النطق به ساكناً غير مدرج) لا يخرجّه عن سكونه، لأنّ ذلك الصوت اللاحق للفاء والسين ونحوهما إنّما هو بمنزلة الإطباق في الطاء، والتكرير للراء، والتفشي في الشين، وقوّة الاعتماد في اللام. فكما أنّ سواكن هذه الأحرف إنّما تكال في ميزان العروض الذي هو عيار الحسنّ وحاكم القسمة والوضع بما تكال به

(٣٤) الخصائص، ٥٨/١.

(٣٥) السابق، ٥٧/١، ٥٨-٣٢٨/٢، ٣٢٩.

(٣٦) السابق، ٦٠/١.

الحروف السواكن غيرها، فكَذلك هي أيضاً سواكن^(٣٧).

ويفهم من كلام ابن جنّي أنّ هذه الفروق الدقيقة سببها الإدراج أو عدمه؛ فالإدراج يستهلك بعض الخصائص الجرسية، على حين أنّ عدم الإدراج يحقق هذه الخصائص كاملة، مع بقاء السكون في الوزن العروضي سكوناً، إذ لم يبلغ ما في بعضه من الصوت اللاحق مقدار الحركة المستقلة عن الحرف، كما أنّ المدرج الذي ينقصه بعض الخصائص الجرسية يبقى ساكناً بالمعنى نفسه. وهذا حال الموقوف عليه بالسكون المجرد، وبالإشمام، لأنّ الإشمام للعين دون الأذن. أمّا روم الحركة فيكاد يكون الحرف به متحرّكاً، ألا تراك - كما يقول - تفصل به بين المذكر والمؤنث في قولك في الوقف: أنتَ وأنتِ. فلو لا أنّ هناك صوتاً لما وجدت فصلاً^(٣٨). وهكذا يتبيّن أنّ هناك ثلاث أحوال لوزن «فعل» الذي اتخذه ابن جنّي مثلاً لدرس السكون، هي تحرّك الفاء ألبتة، وحشو العين الذي صار كأنّه لا ساكن ولا متحرّك، وساكن اللام الذي هو أتمّ صوتاً من سابقه. فتلك إذن ثلاث أحوال متعادية لثلاثة أحرف متتالية، فكما يحسن تألف الحروف المتفاوتة، كذلك يحسن تتابع الأحوال المتغايرة على اعتدال وقرب، لا على إيغال في البعد. لذلك كان مثال (فعل) أعدل الأبنية حتى كثر وشاع وانتشر؛ ففتحة الفاء وسكون العين في الدرج، وإسكان اللام في الوقف أحوال مع اختلافها متقاربة^(٣٩).

وهناك من بعد رأيان في اجتماع الساكنين الصحيحين. فابن يعيش

(٣٧) الخصائص، ٢/ ٣٢٩.

(٣٨) السابق، ٢/ ٣٢٨.

(٣٩) السابق، ١/ ٥٨-٥٩.

(ت ٦٤٣هـ) يرى أنّ الوقف سدّ مسدّ الحركة، لأنّه يمكن جرس ذلك الحرف، ويوفّر الصوت، فيصير توفير الصوت عليه بمنزلة الحركة له، فبان بذلك بما ذكرته أنّ الحرف الموقوف عليه أتمّ صوتاً، وأقوى جرساً من المتحرّك، فسدّ بذلك مسدّ الحركة، فجاز اجتماعه مع ساكن قبله^(٤٠). لكنّ الأستراباذي يرى أنّ اجتماع الساكنين الصحيحين حقيقة مستحيل، إذ لا يمكن التقاؤهما إلا مع إتيانك بكسرة مختلصة غير مشبعة على الأوّل منهما، نحو بكر، بشر، بسر حرّكت عين الثلاثة بكسرة خفيفة، وإلا استحال أن تأتي بعدها بالراء الساكنة. فإذا خليت نفسك وسجيّتها وجدت منها أنّها لا تلتجئ في النطق بالساكن الثاني المستحيل مجيئه بعد الساكن الأوّل من بين الحركات إلا إلى الكسرة؛ لأنّ الثاني من الساكنين هو الذي يمتنع التلقّظ به، إذا كان الأوّل صحيحاً. فالأصل أن يتوصّل إلى النطق بالساكن الثاني بتحريك الساكن الأوّل، لا بحذفه، لأنّ سكونه هو المانع من النطق به، فيرفع ذلك المانع فقط، وذلك بالتحريك^(٤١).

ويتفق هذا الرأي مع ابن جنيّ الذي رأى أنّ الساكن المحشوّ به لو كان ساكناً حقيقة لما توصّلنا إلى النطق بالساكن الموقوف عليه^(٤٢). لكنّه لم ينصّ على حركة مختلصة على الساكن الأوّل، بل اكتفى ببيان اختلاف هذا الساكن صوتياً عن الساكن الآخر الموقوف عليه. وهذا الاختلاف سببه الإدراج، فتمّ الوصل بما في ذلك الساكن المحشوّ به من أثر التحرك غير الظاهر.

(٤٠) شرح المفصل لابن يعيش، ٩/ ١٢٠-١٢١، وقارن بشرح الشافية للأستراباذي،

٢/ ٢١٥، الحاشية رقم (١).

(٤١) شرح الشافية للأستراباذي، ٢/ ٢١٠-٢١١، ٢٠٧، ٢٣٧.

(٤٢) الخصائص، ١/ ٦٠.

ويقرّر ابن جنّي أنّ الصوت لا يجري في الساكن، فإذا حُرِّك انبعث الصوت في الحركة، ثم انتهى إلى الحرف، ثم أشبعت ذلك الحرف، ومطلته.. و«لما كان ساكناً صحيحاً لم يجر الصوت فيه، فلما لم يجر فيه حرّكه بالكسر، ثم أشبع كسره، فأنشأ عنها ياء»^(٤٣). ويرى أنّ حروف المدّ لا يسوغ تحريكها، لأنّها من جنس الحركة، والحركة لا تحرّك: «ومن ذلك أنّ أقعد الثلاثة في المدّ لا يسوغ تحريكه، وهو الألف، فجرت لذلك مجرى الحركة، ألا ترى أنّ الحركة لا يمكن تحريكها..»^(٤٤). فالألف والياء والواو هي حروف لينة مصوّتة، فيها امتداد وقابلية للمطل. أما حين ينهضون بالألف بقوة الاعتماد عليها، فيجعلون طولها ووفاء الصوت بها عوضاً مما كان يجب لالتقاء الساكنين من تحريكها، إذا لم يجدوا عليه تطرّفاً، ولا بالاستراحة إليه تعلّفاً، وذلك نحو: شابة.. وإذا كان كذلك فكُلّما رسخ الحرف في المدّ كان حينئذٍ محفوظاً بتمامه، وتمادي الصوت به، وذلك الألف ثم الياء ثم الواو. فشابة إذن (يقصد ألفها) هو أوفى صوتاً، وأنعم جرساً من أختيها (الواو والياء)^(٤٥). فهذا كلّه يجري ضمن المدّ ولا يخرج عليه ألبته. ويقوم هذا المطل مقام تحريك الساكن الصحيح منعاً لالتقاء الساكنين، كما هو واضح. ومع ذلك فهو لا يعدّ تحريكاً.

ويرى الخضر اليزدي أنّ الصحيح هو أنّ المدّ مهوّن للنطق بالساكن بعده، ولما فيه من استمرار الصوت، فكأنّ المدة حرف متحرّك^(٤٦). وخلص

(٤٣) السابق، ٣/ ١٣٠-١٣١.

(٤٤) السابق، ٢/ ٣١٩.

(٤٥) السابق، ٣/ ١٢٤-١٢٦.

(٤٦) شرح الشافية للخضر اليزدي، ١/ ٤٧٢، ٥٥٤.

اليزدي في هذا الصدد إلى أنّ الحرف المنطوق به إما معتمد على حركته، أو حركة مجاوره، أو لين قبله.. ومن أنكر ذلك فقد كابر المحسوس^(٤٧).

ويفضي بنا هذا الحديث إلى الوقوف عند اعتبار حرف المدّ ساكناً، كما تقدّم في مطلع البحث. فالقداّمى أجمعوا على أنّ حرف المدّ ساكن لا يقبل الحركة بحال ما دام مدّاً^(٤٨)، مع أنّهم فهموا الجوهر الصائتي لحرف المدّ فهماً عميقاً، بل لقد ذهبوا إلى أنّ الحركات مختزلة ومتزعة من حروف المدّ؛ «فالفتحة من الألف، والكسرة من الياء، والضمّة من الواو». وذكر السيرافي أنّ الفتحة حرف من الألف، والكسرة حرف من الياء، وكذلك الضمة حرف من الواو. بل إنّ الحركات أبعاض حروف المدّ^(٤٩)؛ «فأبدلوا هذه الحروف التي منها الحركات، لأنّها أخوات، وهي أمّهات البدل والزوائد، وليس حرف يخلو منها أو من بعضها، وبعضها حركاتها»^(٥٠)؛ أي: الحركات المأخوذة منها. ومعروف وذائع درس ابن جني للحركات في كتابيه «سرّ صناعة الإعراب» و«الخصائص». وقد انتهى منه إلى بيان العلاقة المتبادلة بين الحركات وحروف المدّ بما لا يحتاج إلى إعادة، وقد عرضنا لكثير منه فيما تقدّم.

لكنّ المدود على المستوى التشكيلي «الفونولوجي» عُولتْ معاملة الساكن، لأسباب كثيرة، منها: أنّها لا تقبل الحركة كالحرف الصحيح، فلا تحرّك كباقي الحروف ما دامت في حالة المدّ ما خلا الألف التي لا تحرّك أبداً. وأنّه

(٤٧) السابق، ١/ ٤٩٨.

(٤٨) سرّ صناعة الإعراب لابن جني، ١/ ٢٨.

(٤٩) الكتاب، ٤/ ٢٤٢، والحاشية رقم (١) منه. وانظر كذلك ٤/ ١١٤ - ١١٥، ١٧١، ٣١٣،

٣١٤، ٣٣٩، ٤٣٤، و: سرّ صناعة الإعراب لابن جني، ١/ ١٧ - ٢٧. و: كتاب الرعاية

لتجويد القراءة وتحقيق لفظ التلاوة لمكي القيسي، ص ٨١.

(٥٠) الكتاب، ٣/ ٥٤٤، والحاشية رقم (٦) منه.

يوقف عليها كما يوقف على الساكن الصحيح الجَلْد، والوقف لا يكون إلا على الساكن، فلا يوقف على حركة. وأنّها لا تلتقي مع ساكن صحيح، إلا إذا كان مدغماً، وفي كلمة واحدة، أو موقوفاً عليه؛ لِمَا في الحرف المدغم من التشبّث بالحركة، ولأنّ حالة الوقف عارضة، والكلام على الوصل والإدراج. وأنّها تعدّ في وزن الشعر ساكنة، مثلها مثل الساكن الصحيح من غير فرق، لأنّ المعتبر هو التحرك الذي لا بدّ من أنّه ينتهي بالسكون^(٥١). وهي تبقى دائماً في إطار المقطع الواحد -بحسب التقسيم اللساني للمقاطع- أي: تشكّل مع الحرف السابق المتحرّك قبلها مقطوعاً غير قابل للانفصال. وفي هذا دليل على ارتباط المدّ بالحركة قبله ارتباطاً وثيقاً لا فكاً منه. وهي تشكّل في درج الكلام تركيباً صوتياً، يعادل المتحرّك والساكن ما دامت مدوداً، ويعادل هذا السبب الخفيف في العروض ما خلا حالات خاصة تكون فيها منقلبة عن حرف متحرّك، فيراعى أصلها في الميزان الصرفي عوداً إلى الأصل^(٥٢)؛ فنحو «قال، يقول، يبيع» لا يعتبر حرف المدّ في الوزن مدّاً، بل يعتبر حرفاً صحيحاً متحرّكاً نظراً إلى الأصل المنقلب عنه. والمدّات تحتلّ مكاناً واضحاً في درج الكلام، وهذا ما يصيرها حرفاً مثل الحروف الأخرى، «إذ يمكن أن يبدل من هذه المدّات وإليها. فالهمزة التي في (العصائب) هي الألف التي في العصابة، والواو التي في (الكواهل)، هي الألف التي في الكاهل»^(٥٣)؛ «فملاحظتهم هذه في تصريف الكلم من صيغة

(٥١) كتاب الرعاية لتجويد القراءة وتحقيق لفظ التلاوة لمكي القيسي، ص ٧٦.

(٥٢) التشكيل الصوتي في اللغة العربية لسلمان حسن العاني، ص ١٢٠، وانظر في وزن (قال) و (غزا) و (يقول) و (يبيع) لدى عبد الصبور شاهين في كتابه: المنهج الصوتي للبنية العربية، ص ٨٢-٨٧، إذ يذهب إلى سقوط المدّ من الميزان.

(٥٣) تهذيب اللغة، ١/ ٥١. وبحوث ودراسات في اللسانيات العربية لعبد الرحمن الحاج صالح، ٢/ ١٨٧.

إلى أخرى هي التي أدت بهم إلى اعتبار المَدَّات حروفاً توأمً مثل الحروف غير اللينة، لأنَّ كلَّ ما يقوم مقام شيء ويؤدِّي ما يؤدِّيهِ فهو بمنزلة»^(٥٤).

٢- السكون الحيّ والسكون الميّت:

طلع ابن الطحان على الدارسين بمصطلح جديد، هو السكون الحيّ، والسكون الميّت ضمن فصل خصّصه لحدود الحركات والسكون، في المقدمة الثانية التي تناول فيها أصول القراءات. ونشير بدءاً إلى أنّ الدكتور غانم قدوري الحمد تَبَّه على هذا المصطلح، واجتهد في تفسيره، فله الفضل في ذلك. فالسكون إذن لدى ابن الطحان نوعان: حيّ و ميّت. «فالحيّ هو الذي يتهيأ له العضو ويأخذه فيسمع قرعه به، مثل (حُكَم) و(غَيْر). فأنت تجد الكاف والياء ظاهرتي الجسم والقرع لإعمال العضو فيهما، كما يعمل في المحرّك، مثل (حَكَم) و(مِيلَ)، والمتحرّك حيّ، فلذلك السكون الذي يوجد فيه أخذ العضو إياه حيّ أيضاً. والسكون الميّت لا يكون إلا في حروف المدّ واللين الثلاثة: في الألف الثابتة السكون، وفي الواو بعد الضم، وفي الياء بعد الكسر. فأما الألف فشهرتها بعدم حكمها من أن ينقطع لها في الفم جزء تتحيّز إليه ظاهرة. وأما الواو والياء فإنهما ما وقعتا بعد حركتهما فإن سكونهما ميّت، وذلك أنه غير جار على عضو، ولا حاصل في حيّز، إنّما يصير الفم لصوتيهما كالأنبوب. وهما إذا انفتح ما قبلهما كسائر الحروف، فسكونهما حيّ لسكونهما. إلا أنّ السكون الحيّ يتفاضل بمقتضى طبع الحرف من القوة، وتمكّنه منها. كما أنه في الوقف أُنْدَى منه في الوصل، كما أنه في الوقف بحروف القلقلة أُنْمَى حياة منه في الوصل»^(٥٥).

(٥٤) بحوث ودراسات في اللسانيات العربية لعبد الرحمن الحاج صالح، ١٨٧/٢ - ١٨٨.

(٥٥) مرشد القارئ إلى معالم المقارئ لابن الطحان، ص ٥٨.

ويضيف إلى ذلك أنّ القارئ «إن وصله بغيره بينه بما يحقق له من صفاته القائمة بذاته، من غير قطع مسرف، ولا فصل متعسف سوى ما يحكم به طبيعته من احتباس العضو لإظهار قرعه، فإن وقف عليه بينه أيضاً بما يجب له من صفاته القائمة بذاته، المعينة على حياته..»^(٥٦).

ثم يذكر أنّ «في الواو والياء الحيتين توقيفاً من الأداء، وكذلك السكون الميّت حدّه مقيد بالأداء من شرع القراء»^(٥٧).

ويبدو أنّ فكرة ابن الطحان في تقسيم السكون تعتمد على سيوييه في تقسيم الحروف الثلاثة إلى حيّة وميّتة،^(٥٨) وأنه اعتمد، فيما يبدو، على مفهوم ابن جني للساكن المدرج والموقوف عليه.

فالسكون عنده يعادل (السّاكن) عند من تقدّمه، لأنّ الحرف هو الذي يوصف بالحركة والسكون، والسكون لا يوصف بالحياة والموت إلا تجوّزاً. ويرى ابن الطحان أنّ المتحرّك حيّ، وهي فكرة سيوييه عن الواو والياء المتحركتين خاصّة. والسكون الحيّ وُصف بذلك، لأنّه يرد معه أخذ العضو إيّاه، لا بل إنّهُ يُسمع قرعه به. ولذلك يبدو الحرف الذي هذه صفته ظاهر الجسم والقرع لإعمال العضو فيه. ويذكرنا هذا الكلام بمفهوم ابن جني للسّاكن المحشوّ به، إذ هو لا ساكن ولا متحرّك، إذ فيه أثر الحركة الناتج من حركة العضو الناطق، لذلك فهو قادر على الانتقال إلى المخرج التالي كالمتحرّك. وتنبغي الإشارة إلى أنّ ابن الطحان ذكر (أنّه يُسمع قرعه به) دليلاً على أثر الحركة فيه. ولأنّ المتحرّك حيّ، فالسكون الذي يجري على حرف يتهيأ له العضو حيّ كذلك.

(٥٦) السابق، ص ٥٨-٥٩.

(٥٧) السابق، ص ٥٩.

(٥٨) الدراسات الصوتية عند علماء التجويد لغانم قدوري الحمد، ص ٣٨٠.

ويُتَّضح من كلام ابن الطحان أنّ وجه التقابل بين السكون الحيّ، والسكون الميّت قائم على أساس طبيعة مخرج الحرف في أثناء النطق. فالحروف الصحيحة الجُلدة سكونها حيّ، لأنّ أعضاء النطق تعمل في مخارجها، إما بسدّ مجرى النفس، وإما بتضييقه. أما حروف المدّ فإنّ أعضاء النطق لا تعترض مجرى النفس عند صدورها، ولذلك سكونها ميت^(٥٩). وذلك أنّ السكون الميّت غير جارٍ على عضو، ولا حاصل في حيّز. إنّما يصير الفم لصوتيهما (الياء والواو المدّيتين) كالأنبوب^(٦٠).

وهذا اجتهاد واضح مهمّ من ابن الطحان، لم نجد من يتابعه بالشرح والتمثيل فيما اطلعنا عليه. وربما لم يكن ابن الطحان هو أوّل من شرح هذه الفكرة التي يرجع أصلها إلى سيبويه، مع أنّ أحداً ممّن عرضوا لهذه الفكرة كابن الطحان والقسطلاني (ت ٩٢٣هـ)، وغيرهما احتمالاً، لم يُشر إليها، ولا تحدّث عنها منسوبة إلى مصدرها^(٦١).

و«السكون الحيّ يتفاضل بمقتضى طبع الحرف من القوة، وتمكّنه منها، كما أنّه في الوقف أُنْدى منه في الوصل»^(٦٢). وهذا مماثل لمفهوم ابن جني: أنّ الساكن الموقوف عليه أتمّ صوتاً من حيث الخصائص الجرسية من الساكن المدرج. و«في الوقف بحروف القلقلة أنمى حياة منه في الوصل»^(٦٣). ولهذا الكلام أصل لدى ابن جني كذلك، إذ عرض للوقف على أمثلة من الحروف كحروف الهمس، وذكر أنّ هناك صُويّات مع هذه

(٥٩) الدراسات الصوتية عند علماء التجويد لغانم قدوري الحمد، ص ٣٧٩.

(٦٠) مرشد القارئ لابن الطحان، ص ٥٨.

(٦١) الدراسات الصوتية للحمد، ص ٣٧٩.

(٦٢) مرشد القارئ لابن الطحان، ص ٥٨.

(٦٣) السابق، ص ٥٨.

الحروف يظهر واضحاً في الوقف. أما إذا أدرجتها إلى ما بعدها ضعف ذلك الصُّوَيِّت وتضاءل للحسن، وخفي، وقل، وخفّ ما كان له من الجرس؛ كما ذكر أنّ حروف القلقلة لا تستطيع الوقوف عليها إلا بصوت^(٦٤).

ويصنّف ابن الطحان الواو والياء إذا انفتح ما قبلهما مع الصّحاح، فسكونهما حينئذ حيّ. أما إذا وقعتا بعد حركتهما، فإنّ سكونهما ميّت. وفي هذا صدّى لتصنيف جرى عليه علماء التجويد، وهو جعل الواو والياء المتحركتين والليّتين (أي: الساكتين المسبوقتين بفتح) في مخرجين محققين مع الصّحاح الأخرى، وجعلهما - وهما مدّيتان - في مخرج مقدّر مع الألف. وقد تقدّم أصل هذه الفكرة لدى سيّويه^(٦٥). وذكرنا فيما سبق جعل ابن الطحان الياء الحيّة مع الشين والجيم حين عرض لذكر المخارج^(٦٦).

ومهما كان السكون حيّاً فحدّه هو أن تكمل ضديته لنقيضه، وهو الحركة^(٦٧). فهذا السكون مع حياته يبقى ساكناً غير متحرّك. فالمفاضلة والفرق هما بين سكونين: سكون حيّ، وسكون ميّت، وليس بين السكون والحركة. وربما فهم من كلام ابن الطحان أنّ السكون الحيّ قابل للحركة بدليل مشاكته للمتحرّك الحيّ في وضوحه وبيان قرعه وسماعه، على حين أنّ السكون الميّت ليس قابلاً للحركة ما دامت حروفه في حالة المدّ؛ أو هكذا يتبادر إلى الذهن فعلاً^(٦٨).

ويلاحظ أنّ ابن الطحان تحدّث عن الحركات وأنواعها وحدودها قبل

(٦٤) سرّ صناعة الإعراب لابن جني، ٦٣/١، والخصائص، ٥٧/١ - ٥٨.

(٦٥) الكتاب، ١٩٣ - ١٩٧، والدراسات الصوتية للحمد، ص ٣٦١.

(٦٦) مرشد القارئ، ص ٣٠.

(٦٧) السابق، ص ٥٨.

(٦٨) انظر: رأياً مخالفاً لدى الحمد، الدراسات الصوتية، ص ٣٧٨.

أن يتحدّث عن السكون وحدوده؛ ورأى أن للحركة في الأداء أربع درجات، هي الكمال، وهو «حقّ كل حرف تحرّك بأحدها - الحركات - أن يلفظ به ممكناً من مخرجه، معتمداً عليه في مدرجه حتى يحلّى بجميع صفته، وتمام حركته، معتدلة في الوزن..»^(٦٩) على أنّ الخروج عن الحدّ يلزمه حدوث حرف يقوم عن ذاتها. والدرجة الثانية في أداء الحركة هي الاختلاس، وهو عبارة عن الإسراع بالحركة إسراعاً يحكم السامع به أن الحركة قد ذهبت، وهي كاملة في الوزن. والدرجة الثالثة هي الإخفاء، وهو نقصان الصوت بحرفها، أو نقصان تمطيطها. والدرجة الرابعة هي الروم، وهو عبارة عن النطق ببعض الحركة، ويكون الفاني منها أكثر من الباقي^(٧٠). وأصول هذه الحدود والدرجات واردة لدى سيبويه في الكتاب، وإنّما قصدنا أن نقف على تطوّر النظر في هذه المسائل لدى اللغويين وعلماء التجويد^(٧١). وقد أفضى بنا إلى هذا الحديث طرفٌ من البحث أحببنا استيفاءه.

٥- خاتمة وتعليق:

درس الدكتور كمال بشر السكون دراسة عامّة معتمداً على جملة آراء قبسها من مصنفات النحاة المتأخرين، واتخذها وسيلة لإعادة النظر، وحسناً فعل حين فرّق بين المتقدمين من هؤلاء، والمتأخرين منهم؛ لأنّ أخطاء جمّة تتسرّب إلى الباحثين الذين ينظرون إلى الدرس اللغوي عامّة نظرة واحدة تجمع الرواد الأوائل أصحاب الفكر المبدعة إلى تابعيهم بعد القرن الرابع للهجرة، ولا سيّما المتأخرين زمناً منهم؛ إذ من الضرورة بمكان تحديد

(٦٩) مرشد القارئ، ص ٥٧.

(٧٠) مرشد القارئ، الموضع نفسه.

(٧١) الدراسات الصوتية للحمد، ص ٥٠٩.

الفترة التي يدور فيها الدرس فراراً من التعميم، وسعيًا إلى سلامة النتائج. لكنّ الدكتور بشر فسّر أشياء من بحث السكون تفسيراً شائعاً لدى المستشرقين وبعض اللسانيين، ولا سيّما ما يتّصل بسكون المدّ ووجود حركات قبل حروف المدّ، ونحو ذلك مما هو ذائع في الدراسات الحديثة^(٧٢). وعلّق الدكتور بشر على هذا الموضوع بقوله: «فهذه الأحرف في نظرهم مدّات، وهي في الوقت نفسه ساكنة، وهذه المدّات كذلك مسبوقة بحركات مجانسة، حكمان لا صحّة لأحدهما، ويدلّان على اضطراب في فهم حقائق الأشياء»^(٧٣). والصحيح أنّ القدامى عاملوا حروف المدّ معاملة صوتية نطقية، وهي هنا حركات طويلة لا شكّ فيها، بل إنّ الحركات القصار مأخوذة منها، لكنّها تنتهي بالسكون، فلا يقع بعدها ساكن، ولا تدرج إلى ما بعدها. وقد تقدّم في هذا البحث إلمام واسع بهذا التفسير. لكنّ التقنيات الصوتية الحديثة فسّرت أشياء مما استغلق على الغربيين ورثة اليونانيين فهمه، وخلصت إلى أنّ حرف المدّ يتألف من جزأين: أحدهما متصاعد الحركة، والآخر متخامد الحركة، وهو المدّ؛ وأنّ الوقف على المدود وقف متدرّج، كما سنبين لاحقاً^(٧٤).

فمع أنّ المدّ يعادل مصوّتاً طويلاً، يفتقد القوة الحركية الدافعة (Cinetic Force) والمتصاعدة القوة التي تتصف بها الحركة؛ ولذلك المدّات لا تستطيع الوصول إلى المخرج التالي. وهذا معنى أنّها تفتقد إلى «الصرف»

(٧٢) انظر مثلاً آراء إبراهيم أنيس، الأصوات اللغوية، ص ٣٩، وكمال بشر، دراسات في علم اللغة، ١/ ٢٠١-٢٠٢، ورمضان عبد التواب، فصول في فقه العربية، ص ٤٠٨-٤٠٩،

وغانم الحمد، الدراسات الصوتية، ص ٣٨١.

(٧٣) دراسات في علم اللغة لكمال بشر، ١/ ٢٠١.

(٧٤) بحوث ودراسات في اللسانيات العربية لعبد الرحمن الحاج صالح، ٢/ ١٧٥-٢٠١.

بمصطلح الخليل^(٧٥)، لأنها تحصل بدفع الحركة، وتكون قوتها الحركية متناقصة، على حين أنّ الحروف الجوامد «الصحاح» حين تحرّك تكون لها قوّة «الصرف»، أي: التحرك والانتقال إلى المخرج التالي^(٧٦). والسكون هو توقيف لحركة الحرف، وهو من ثمّ حبس تامّ أو غير تامّ (تامّ في الحروف الشديدة، وغير تامّ في غيرها). فالحبس يختلف باختلاف الحروف، فيكون مع الصحاح الساكنة آتياً، مع قبوله للامتداد بإبقاء التوتر العضلي، وفي المدود يكون السكون زمانياً؛ إذ يحصل التوقيف في الصحاح «الصوامت» دفعة واحدة، ويمكن أن يمتدّ فيه حبس النفس. أما في المدود فيحصل هذا التوقيف دائماً بالتدرّج، لا دفعة واحدة، ويحدث حبس النفس فيه بفتور الحركة وتلاشيها شيئاً فشيئاً^(٧٧). وخلاصة الفرق بين المتحرّك والساكن هي أنّه «إن انتهى الصوت إلى حيّز وقرع مخرجاً من مخارج الحلق أو الفم أو الشفتين تموّج لذلك القرع، فتكيّف بكيفية هي الحرف.. فإن قرّ الهواء قراراً تامّاً، ولم يضطرب فالحرف ساكن، وإن لم يتمّ قراره، واضطرب عند الاعتماد كان الحرف متحرّكاً لانفصاله عن الحيّز بحركة. فالمتحرّك لا يحبس معه النفس، وهو مطلق لوجود ما يعينه على الخروج»^(٧٨).

لقد كان اهتمام سيبويه منصباً على حروف المدّ وحدها، أمّا ابن جني فكان اهتمامه منصرفاً نحو فحص الساكن، وبيان خصائصه في سعيه لإيضاح الإدراج، مع عرضه الواسع لأحوال المدّ والحركات. وانفرد ابن الطحان بالنصّ على أنّ المقصود هو السكون، لا الحرف، كما تقدّم لدى سيبويه وابن جني.

(٧٥) تهذيب اللغة للأزهري، ١/ ٥٠.

(٧٦) بحوث ودراسات في اللسانيات العربية، ١/ ٢٨٤، ٢/ ١٩٨.

(٧٧) السابق، ١/ ٣٦٨.

(٧٨) السابق، ٢/ ١٨٤.

وهكذا عرضنا جوانب من مفهوم «الساكن والسكون» من خلال اتجاهات متعدّدة، عبّرت عن مفهومات علمية جديرة بالدرس العلمي^(٧٩). ولا شكّ في أنّ كثيراً من هذه المفهومات كان سابقاً لعصره في كثير من الأحيان. ونؤكّد أنّ شيئاً من الغبن دخل على علومنا اللغوية من القياس الذي أجراه المحدثون بين هذه العلوم والمفاهيم اللسانية. وهو قياس ضعيف جدّاً، لا يأخذ في الحسبان ما بين العربية واللغات الأوربية من خلافات^(٨٠)؛ فضلاً عن التنبيه إلى تطور الدرس التقني للغة، ولاسيّما درس الأصوات. فقد نقض هذا التطور عدداً من المسلّمات الموروثة عن التراث اليوناني وبحوث الاستشراق وفقه اللغة (الفيلولوجية) وبدايات الدرس اللساني. ومن المفروض أن يستمدّ البحث العلمي مصطلحاته ومبادئه من واقع اللغة نفسها، وما يناسبها، حتى تأتي النتائج علميّة صحيحة، قابلة للفحص والتّطبيق، لا أمشاجاً من نظريات متناقضة أو مبتوتة من سياقها الأصلي.

* * *

المصادر والمراجع

- إشكاليات في البحث والنقد النحويّين لفخر الدين قباوة، دار الملتقى، حلب، ط ١، ٢٠٠٤ م.

(٧٩) انظر: آراء فذة نقلها الدكتور عبد الرحمن الحاج صالح تفسّر آلية النطق والإدراج والتحرّك والسكون. ومعظمها من مصادر مخطوطة. انظر كتابه: بحوث ودراسات في اللسانيات العربية، ٢/ ١٧٥-٢٠١.

(٨٠) إشكاليات في البحث والنقد النحويّين لفخر الدين قباوة، ص ٣٩-٤٢.

- الأصوات اللغوية لإبراهيم أنيس، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ط ٤، ١٩٧١ م (ط ١، ١٩٤٧ م).
- بحوث ودراسات في اللسانيات العربية لعبد الرحمن الحاج صالح، منشورات المجمع الجزائري للغة العربية، الجزائر، ٢٠٠٧ م.
- التشكيل الصوتي في اللغة العربية (فونولوجيا العربية) لسلمان حسن العاني، ترجمة ياسر الملاح ومراجعة محمد محمود غالي، النادي الأدبي الثقافي، جدة، ط. أولى ١٩٨٣ م.
- تهذيب اللغة للأزهري، الجزء الأول، حققه وقدم له عبد السلام محمد هارون، راجعه محمد علي النجار، الدار القومية للطباعة (القاهرة) ١٩٦٤ م.
- الخصائص لابن جني، تحقيق محمد علي النجار، دار الهدى، بيروت، ط. ثانية، د.ت.
- الدراسات الصوتية عند علماء التجويد لغانم قدوري الحمد، وزارة الأوقاف والشؤون الدينية، بغداد ١٩٨٦ م.
- دراسات في علم اللغة لكمال بشر، القسم الأول، دار المعارف بمصر ١٩٧١ م، والقسم الثاني دار المعارف بمصر، ط. ثانية ١٩٧١ م.
- الرعاية لتجويد القراءة وتحقيق لفظ التلاوة لمكي بن أبي طالب القيسي، تحقيق أحمد حسن فرحات، دار المعارف، دمشق، ط. أولى ١٩٧٣ م.
- سر صناعة الإعراب لابن جني، تحقيق حسن هنداي، دار القلم، دمشق، ط. أولى ١٩٨٥.
- شرح شافية ابن الحاجب في علمي التصريف والخط للخضر اليزدي (أتمه سنة ٧٢٠ للهجرة)، دراسة وتحقيق حسن أحمد العثمان، مؤسسة الريان، بيروت، ط. أولى ٢٠٠٨ م.

- شرح شافية ابن الحاجب للأستراباذي (رضي الدين المتوفى عام ٦٨٨ للهجرة) مع شرح شواهده لعبد القادر البغدادي (المتوفى عام ١٠٩٣ للهجرة) تحقيق محمد نور الحسن ومحمد الزفزاف ومحمد محيي الدين عبد الحميد، مطبعة حجازي بالقاهرة ١٣٥٦-١٣٥٨ هـ.
- شرح كتاب سيبويه للسيرافي، تحقيق أحمد حسن مهدي، وعلي سيد علي، دار الكتب العلمية، ط. أولى ٢٠٠٨ م (صورة من الشابكة).
- شرح المفصل لابن يعيش، إدارة الطباعة المنيرية بمصر، د.ت.
- فصول في فقه العربية لرمضان عبد التواب، مكتبة الخانجي بالقاهرة ودار الرفاعي بالرياض، ط. ثانية ١٩٨٣ م.
- الكتاب لسيبويه، تحقيق وشرح عبد السلام هارون. عالم الكتب، بيروت، د.ت، وط. بولاق سنة ١٣١٧ هـ.
- مخارج الحروف وصفاتها لابن الطحان، تحقيق محمد يعقوب تركستاني، ط. أولى ١٩٨٤ م.
- مرشد القارئ إلى تحقيق معالم المقارئ لابن الطحان السمائي، تحقيق حاتم صالح الضامن، دار البشير، عمان ومؤسسة الرسالة، بيروت، ط. أولى ١٩٩٩ م.
- «المصطلح الصرفي في كتاب سيبويه» لخديجة الحديثي، مؤتمر النقد الأدبي الخامس بجامعة اليرموك، إربد، ١٩٩٤ م.
- المنهج الصوتي للبنية العربية لعبد الصبور شاهين، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٨٠ م.
- نزهة الألباء في طبقات الأدباء لابن الأنباري (ت ٥٧٧ هـ)، تحقيق إبراهيم السامرائي، مكتبة المنار، الزرقاء بالأردن، ط. ثالثة ١٩٨٥ م.

«الشُّكْر» مفهوماً أخلاقياً

(فضاء التصوّف الإسلامي^(*))

أ. د. عيسى علي العاكوب^(*)

• المنظور الصوفي العرفاني إلى الشُّكْر:

تقدّم القول في شأن نشأة التّصوّف وحقّيقته. وحديث الصّوفيّة عن «الشُّكْرِ» يُشبه حديثهم عن المسائل المُختلفة، وإذا ما عرّفنا حقيقة التّصوّف أدركنا أنّ كلام المشايخ مهّما اختلف في الظاهر ظلّ في الواقع قريباً بعضه من بعض وبقي كلّ مرتبطاً بمعنى واحد وحقيقة واحدة. أمّا الاختلاف في التّعبيرات فنأشئ عن الاختلاف في أحوال القائلين ومقاماتهم ومراتبهم ودرجاتهم، وكلّ واحد يتحدّث عن منزليته هو، ويُعبّر عن المَقام والدرّجة التي هو فيها. وأمر آخر هو أنّ السَّيرَ والسُّلوكَ الرُّوحانيّ، من درّجة الانقطاع والطلب إلى مقام الفناء في الله، له مراتب ومقامات ودرجات وأحوال وأوقات مختلفة، وللسالك في كلّ مرحلة حال ومقام خاص^(١).

(*) ما يأتي في هذا العدّد هو ما وعدنا به القارئ الكريم في العدّد السّابق الذي عرّضنا فيه جُزئيّة الموضوع المتّصلة بـ «فضاء ما قبل التّصوّف»، إذ يجد القارئ هنا المسألة في فضاء التّصوّف.

(*) عُضُوّ مَجْمَع اللّغة العربيّة في دِمَشق، أستاذ البلاغة والتّقدي في جامعة حلب.

ورد إلى مجلة المجمع بتاريخ ٨ / ١ / ٢٠٢٠ م.

(١) سيّد جعفر سجّادي: فرهنگ اصطلاحات وتعبيرات عرفاني [بالفارسيّة] الطّبعة التاسعة،

انتشارات طهورى، طهران ١٣٨٩ هـ.ش - ٢٠١٠ م، ص ٢٤٣.

وفي عَرْضِنا المنظورَ إلى «الشُّكْرِ» في التَّصَوُّفِ الإسلاميِّ، نَرى ضرورةَ تقديمِ نموذجَيْنِ هما: ١- العباراتُ المُفردةُ السَّائرةُ. ٢- المُناقشاتُ التَّأصيليَّةُ المُفصَّلةُ.

• الشُّكْرُ في العِبَارَاتِ المُفْرَدَةِ لِأَعْلَامِ التَّصَوُّفِ وفي الحِكَايَاتِ:

يُمثِّلُ تَطَوُّرُ مفهومِ «الشُّكْرِ» في الإسلامِ تَقَدُّمًا بِاتِّجَاهِ النَّضْجِ الرُّوْحِيِّ والفكرِيِّ الذي شَرَعَهُ الْقُرْآنُ وَالرُّسُولُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ. فَبَدَأَ مِنْ مُتَنَصِّفِ الْقَرْنِ الثَّانِي الهِجْرِيِّ تَقْرِيبًا، وَمَعَ حَرَكَةِ الْعِلْمِ وَالْمُدَارَسَةِ وَالتَّحْقِيقِ فِي مَوَادِّ الْعُلُومِ وَالْمَعَارِفِ، بَرَزَ إِلَى الْوُجُودِ أَفْرَادٌ كُلُّ عُنَاصِرٍ سُلُوكِهِمْ عِلْمٌ، وَكُلُّ مُكَوَّنَاتٍ كَلَامِهِمْ عِلْمٌ: أَفْرَادٌ لَا يَرَوْنَ مَقْصُودًا غَيْرَ اللَّهِ سُبْحَانَهُ، وَلَا يَجِدُونَ فِي قُلُوبِهِمْ مَحْبُوبًا حَقِيقِيًّا سِوَاهُ. وَالْمُلَاحَظَةُ فِي حَيَاتِهِمْ كَثِيرٌ مِنْهُمْ أَنَّهُ أُتِيحَ لَهُ فِي حَيَاتِهِ مَحْبُوبٌ دُنْيَوِيٌّ مَضَى فِي سَبِيلِهِ بَعِيدًا، ثُمَّ تَرَاهُ انْقَلَبَ عَلَيْهِ وَمَضَى فِي ضِدِّهِ الدِّينِيِّ الرُّوْحِيِّ إِلَى الْآخِرِ. وَأُعِيدَ إِلَى الْأَذْهَانِ فِي هَذَا الَّذِي نَحْنُ فِيهِ، تَذَكُّرُ حَيَاتِ إِبْرَاهِيمَ بْنِ أَدْهَمَ وَرَابِعَةِ الْعَدَوِيَّةِ وَالْفَضِيلِ بْنِ عِيَاضٍ وَأَبِي حَامِدٍ الْغَزَالِيِّ وَآخَرِينَ كَثِيرٍ.

وَيَبْدُو أَنَّ كَثْرَةَ الْعَارِفِينَ الْإِلَهِيِّينَ وَالسَّالِكِينَ لِطَرِيقِ الْمَحَبَّةِ الْإِلَهِيَّةِ ابْتِدَاءً مِنْ مُتَنَصِّفِ الْقَرْنِ الثَّانِي نَشَأَ عَنْهَا ثِقَافَةٌ صُوفِيَّةٌ عِرْفَانِيَّةٌ شَفْهِيَّةٌ انشَغَلَتْ بِحَقَائِقِ الْحَالَاتِ الرُّوْحِيَّةِ وَوَضَعَ الْحُدُودَ لِلْأَحْوَالِ وَالْمَقَامَاتِ الَّتِي يَعِيشُهَا السَّالِكُونَ. وَابْتِدَاءً مِنْ مَطْلَعِ الْقَرْنِ الثَّالِثِ الهِجْرِيِّ تَقْرِيبًا، أَخَذْنَا نَشْهَدُ مِيلَادَ عِلْمِ نَفْسٍ صُوفِيٍّ وَاضِحِ الْمَعَالِمِ. وَيُقَدِّمُ مَفْهُومُ «الشُّكْرِ» مَثَالًا جَيِّدًا لِهَذِهِ الْمُسَارَعَةِ إِلَى تَقْدِيمِ الْحُدُودِ وَالتَّعْرِيفَاتِ. وَيُنْبِئُ ذَلِكَ بِغَيْرِ رَيْبٍ عَنْ قَصْدِ بَيِّنٍ إِلَى إِفْهَامِ حَقَائِقِ الْحَالَاتِ الرُّوْحِيَّةِ.

وَيَبْدُو لَعَيْنِ الْبَصِيرَةِ أَنَّ التَّشْقِيقَ فِي الْمَعَانِي وَالتَّحْقِيقَ فِي طَبِيعَةِ

العناصر والمكونات مرده نزوعٌ إلى إفهام المعاني القرآنية التي جاءت مُجَمَّلَةً في أحيان كثيرة. ومن ذلك تفصيل القول في مفهوم شكر الله سبحانه وشكر الإنسان، فإن «حقيقة الشكر عند أهل التحقيق الاعتراف بنعمة المنعم على وجه الخضوع، وعلى القول بوصف الحق سبحانه بأنه «شكور» توسعاً، ومعناه أنه يُجازي العبد على الشكر. فسمي جزاء الشكر شكراً، كما قال: ﴿وَجَزَّوْا سَيِّئَةً سَيِّئَةً مِّثْلُهَا﴾ [الشورى: ٤٠]. وقيل: شكره [الحق] إعطاؤه الكثير من الثواب على العمل اليسير، من قولهم: دابةٌ شكورٌ: إذا أظهرت من السمن فوق ما تعطى من العلف. ويحتمل أن يقال: حقيقة الشكر الثناء على المحسن بذكر إحسانه: فشكر العبد لله تعالى ثناؤه عليه بذكر إحسانه إليه، وشكر الحق سبحانه للعبد ثناؤه عليه بذكر إحسانه له. ثم إن إحسان العبد طاعته لله تعالى، وإحسان الحق إنعامه على العبد بالتوفيق للشكر له»^(٢).

وينظر التصوف إلى الشكر من جهة الجارحة أو الآلة التي تؤديه في الإنسان، وعلى ذلك هو: «شكر باللسان، وهو اعترافه بالنعمة بنعت الاستكانة، وشكر بالبدن والأركان، وهو اتصاف بالوفاق والخدمة، وشكر بالقلب، وهو اعتكاف على بساط الشهود بإدامة حفظ الحزمة»^(٣). وهذه تصنيفات للشكر تلحظ درجة تحسس النعمة الإلهية عند الشاكر، وتعبّر عن وعي عالٍ في علم النفس الصوفي. فمنازل السائرين في طريق الحق تعالى كثيرة ومُتباينة. ويشير وعي هذا إلى إصرار عند السالكين على ضرورة بلوغ الغايات، وتحمل لاجتياز العقبات. وليس الأمر أمر فكر مجرد يهذى بها ويهذر.

ثم في داخل مفهوم الشكر نفسه منعرجات دقيقة لاحظتها الأرواح

(٢) أبو القاسم عبد الكريم القسيري، الرسالة القسيرية في علم التصوف، سابق، ص ٨١.

(٣) السابق، ص ٨١.

العارفة، فقد «قال الجنيْدُ: الشُّكْرُ فيه عِلَّةٌ؛ لِأَنَّهُ [الشَّاكِرُ] طَالِبٌ لِنَفْسِهِ الْمَزِيدَ، فهو واقِفٌ مع الله تعالى على حَظِّ نَفْسِهِ. وقال أبو عُثْمَانَ: الشُّكْرُ معرفة العَجْزِ عن الشُّكْرِ. ويُقال: الشُّكْرُ على الشُّكْرِ أَتَمُّ مِنَ الشُّكْرِ؛ وذلك بأن تَرى شُكْرَكَ بِتَوْفِيقِهِ، ويكون ذلك التَّوْفِيقُ مِنْ أَجْلِ النِّعَمِ عَلَيْكَ، فَتَشْكُرُهُ على الشُّكْرِ، ثُمَّ تَشْكُرُهُ على شُكْرِ الشُّكْرِ إلى ما لا يَتَنَاهَى»^(٤).

ويفيد التَّنْظِيرُ الصُّوفِيُّ في موضوع الشُّكْرِ مِنَ الْمُعْجَمِ الْقُرْآنِيِّ: فَيَمِيزُ بَيْنَ الشَّاكِرِ وَالشَّكُورِ، فقد قيل: «الشَّاكِرُ الذي يَشْكُرُ على الموجودِ، وَالشَّكُورُ الذي يَشْكُرُ على المفقودِ. ويُقال: الشَّاكِرُ الذي يَشْكُرُ على الرِّفْدِ، وَالشَّكُورُ الذي يَشْكُرُ على الرَّدِّ. ويُقال: الشَّاكِرُ الذي يَشْكُرُ على النَّعَمِ، وَالشَّكُورُ الذي يَشْكُرُ على المَنعِ. ويُقال: الشَّاكِرُ الذي يَشْكُرُ على العَطَاءِ، وَالشَّكُورُ الذي يَشْكُرُ على البَلَاءِ. ويُقال: الشَّاكِرُ الذي يَشْكُرُ عندَ البَذْلِ، وَالشَّكُورُ الذي يَشْكُرُ عندَ المَطْلِ»^(٥).

وتكاد هذه التعريفات والحدود للشُّكْرِ تكون مُتَّفَقَةً على دَرَجَتَيْنِ لِهَذَا المَقَامِ، وعلى أَنَّ «الشَّكُورَ» في غاية المحبة لِرَبِّه، وفي مُتَنَهَى الفناء عن نَفْسِهِ، وعلى أَنَّهُ مُتَخَلِّقٌ بِدَرَجَةٍ عَالِيَةٍ مِنَ الإِيمَانِ، عَبَّرَ عنها حديثُ رَسُولِ اللَّهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بالقَوْلِ: «لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يَكُونَ هَوَاهُ تَبَعًا لِمَا جِئْتُ بِهِ»^(٦). وَيُفْهَمُ اسْتِنْبَاطًا أَنَّ «الشَّكُورَ» مِنَ الْخَلْقِ مُتَخَلِّقٌ بِأَخْلَاقِ اللَّهِ وبِأَخْلَاقِ الرِّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ؛ لِأَنَّ كُلًّا مِنْهُمَا وَصَفَ ذَاتَهُ بِ«الشَّكُورِ» كما تقدَّم.

(٤) نفسه.

(٥) نفسه.

(٦) الإمام التَّوَوِيُّ، شَرَحَ مَثْنِ الْأَرْبَعِينَ التَّوَوِيَّةَ، بعناية لويس بوزيه، دار المشرق، بيروت،

وتنبّه التّصوّف الإسلاميّ على تصنيفٍ للشُّكرِ على مستوى الجَماعاتِ والفئاتِ، فإنّه يُحدّثُ فيه عن «شُكرٍ هو شُكرُ العالمينَ يكونُ من أقوالِهِم، وشُكرٍ هو نَعْتُ العابدينَ يكونُ نوعًا من أفعالِهِم، وشُكرٍ هو شُكرُ العارفينَ يكونُ باستقامتِهِم له [تعالى] في عُمومِ أحوالِهِم... وقال أبو عُثمان: شُكرُ العامّةِ على المَطْعَمِ والملبَسِ، وشُكرُ الخواصِّ على ما يَرِدُ على قلوبِهِم من المَعاني»^(٧). وفي ذلك كُلّه تفتيقٌ لِمَعْنَى الشُّكرِ وتفصيلٌ لِمَفْهُومِهِ، مَرَجِعُهُمَا حِرْصٌ جَدِّ لِأفرادٍ من الأُمَّةِ على فَهْمِ الأشياءِ على ما هي عَلَيَّهِ. وفيه أيضًا دَلِيلٌ على ما أحدثَ الإسلامُ عندَ أبناءِ الأُمَّةِ من حَساسِيَّاتٍ تَشُقُّ الشَّعْرَةَ، كما يُقالُ، في تَحْلِيلِ دَخائِلِ النُّفوسِ.

وقد صَبَّ في خِصَمِّ ثقافةِ التّصوّفِ الإسلاميّ وَحَرَكَةِ التَّأليفِ فيه تَيَّارٌ ظاهرٌ من حِكَايَاتٍ صُوفِيَّةٍ عن شُكرِ الأنبياءِ. ويُساعدُ طابِعُ القَصِّ في هذه الحِكَايَاتِ، وَعُضْرُ الطَّرَافَةِ فيها، وقابليَّةُ القَبُولِ لِمُضموناتها، على إشاعةِ خُبْرَةِ صُوفِيَّةٍ واسِعَةٍ مَحَوَّرُها الذي تَدورُ عَلَيَّهِ مَفْهُومُ الشُّكرِ. ومن ذلك أَنَّهُ قِيلَ: «قالَ داوودُ عَلَيَّهِ السَّلَامُ: إلهي، كيفَ أَشْكُرُكَ وشُكْرِي لَكَ نِعْمَةً من عِنْدِكَ؟ - فأوحى اللهُ إِلَيْهِ: الآنَ قد شَكَرْتَنِي. وقيلَ: قالَ موسى عَلَيَّهِ السَّلَامُ في مُناجاتِهِ: إلهي، خَلَقْتَ آدَمَ بِيَدِكَ وفَعَلْتَ وفَعَلْتَ، فكيفَ شَكَرَكَ؟ - فقالَ: عَلِمَ أَنَّ ذلكَ مِنِّي، فكانَتْ معرفتُهُ بذلكَ شُكْرَهُ لي... وقيلَ: مرَّ بعضُ الأنبياءِ، عَلَيَّهِمُ السَّلَامُ، بِحَجَرٍ صَغِيرٍ يَخْرُجُ مِنْهُ المَاءُ الكَثِيرُ، فتعَجَّبَ مِنْهُ. فأنطقه اللهُ تعالى مَعَهُ فقالَ: مُذْ سَمِعْتُ اللهُ يَقُولُ: ﴿نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾ [التَّحريم: ٦]، وأنا أبكي من خَوْفِهِ. قالَ: فدعا ذلكَ النَّبِيُّ أن يُجِيرَ اللهُ ذلكَ الحَجَرَ. فأوحى اللهُ تعالى إِلَيْهِ: إِنِّي أَجَرْتُهُ مِنَ النَّارِ. فمرَّ ذلكَ النَّبِيُّ،

فَلَمَّا عَادَ وَجَدَ الْمَاءَ يَتَفَجَّرُ مِنْهُ، مِثْلَ ذَلِكَ. فَعَجِبَ، فَأَنْطَقَ اللَّهُ تَعَالَى ذَلِكَ الْحَجَرَ مَعَهُ، فَقَالَ لَهُ: لِمَ تَبْكِي وَقَدْ غَفَرَ اللَّهُ تَعَالَى لَكَ؟ فَقَالَ: ذَلِكَ كَانَ بُكَاءَ الْحُزْنِ وَالْخَوْفِ، وَهَذَا بُكَاءُ الشُّكْرِ وَالشُّرُورِ^(٨).

وقد انطوت مصادِرُ التَّصَوُّفِ عَلَى ضَرْبٍ مِنَ الْقِصَصِ الْمَوْضِحِ لِأَبْعَادِ خَاصَّةٍ لِمَقْهُومِ الشُّكْرِ. وَمَصْدَرُ بَعْضِ قِصَصِ هَذَا اللَّوْنِ الْحَيَاةُ الْعَرَبِيَّةُ نَفْسُهَا. وَمِنْ ذَلِكَ مَا يُحْكِي مِنْ أَنَّهُ قَدِمَ وَفَدُّ عَلَى عُمَرَ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ، وَكَانَ فِيهِمْ شَابٌّ، فَأَخَذَ يَخْطُبُ. فَقَالَ عُمَرُ: الْكِبَرُ الْكِبَرُ. فَقَالَ الشَّابُّ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، لَوْ كَانَ الْأَمْرُ بِالسِّنِّ لَكَانَ فِي الْمُسْلِمِينَ مَنْ هُوَ أَسَنُّ مِنْكَ. فَقَالَ: تَكَلِّمْ. فَقَالَ: لَسْنَا وَفَدَّ الرَّغْبَةَ وَلَا وَفَدَّ الرَّهْبَةَ. أَمَّا الرَّغْبَةُ فَقَدْ أَوْصَلَهَا إِلَيْنَا فَضْلُكَ، وَأَمَّا الرَّهْبَةُ فَقَدْ آمَنَّا مِنْهَا. فَقَالَ: فَمَا أَنْتُمْ؟ - فَقَالَ: وَفَدُّ لِلشُّكْرِ، جِئْنَاكَ نَشْكُرُكَ وَنَنْصَرِفُ. وَأَنْشَدُوا:

وَمِنَ الرَّزِيَةِ أَنَّ شُكْرِي صَامِتٌ عَمَّا فَعَلْتَ، وَأَنْ بَرِّكَ نَاطِقٌ
وَأَرَى الصَّنِيعَةَ مِنْكَ ثُمَّ أَسْرَهَا إِنِّي إِذْ لَيْدِ الْكَرِيمِ لَسَارِقٌ^(٩)
وَيَسْمُ بَعْضُ قِصَصِ الشُّكْرِ بِالطَّرَافَةِ وَالْغَرَابَةِ، وَيُشِيرُ إِلَى ضَرْبٍ مِنَ الشُّكْرِ الْمُتَوَاصِلِ الَّذِي يَكُونُ فِيهِ الْعَبْدُ لِرَبِّهِ لَا لِحُوبِصَةٍ نَفْسِهِ. فَقَدْ حُكِيَ عَنْ بَعْضِهِمْ أَنَّهُ «قَالَ: رَأَيْتُ فِي بَعْضِ الْأَسْفَارِ شَيْخًا كَبِيرًا قَدْ طَعَنَ فِي السِّنِّ، فَسَأَلْتُهُ عَنْ حَالِهِ، فَقَالَ: إِنِّي كُنْتُ فِي ابْتِدَاءِ عُمْرِي أَهْوَى ابْنَةَ عَمِّ لِي، وَهِيَ لِي كَذَلِكَ تَهَوَّانِي؛ فَاتَّفَقَ أَنَّهَا زُوِّجَتْ مِنِّي. فَلَيْلَةً زَفَافَهَا قُلْنَا: تَعَالَ حَتَّى نُحْيِيَ هَذِهِ اللَّيْلَةَ شُكْرًا لِلَّهِ تَعَالَى عَلَى مَا جَمَعَنَا. فَصَلَّيْنَا تِلْكَ اللَّيْلَةَ وَلَمْ يَتَفَرَّغْ أَحَدُنَا لِصَاحِبِهِ. فَلَمَّا كَانَتِ اللَّيْلَةُ الثَّانِيَةَ قُلْنَا مِثْلَ ذَلِكَ؛ فَمُنْذُ سَبْعِينَ أَوْ ثَمَانِينَ سَنَةً، نَحْنُ عَلَى تِلْكَ الصِّفَةِ كُلِّ

(٨) نفسه، ص ٨١-٨٢.

(٩) نفسه.

لَيْلَةٍ. أليس كذلك يا فلانة؟ فقالت العَجُوزُ: كما يقول الشيخ^(١٠).
ويبدو أن بيئات التصوف كانت تتداول أحيانًا حدود المقامات والمنازل
وحقائق المفهومات الصوفية. وقد يكون لصغار السن نصيبٌ من ذلك، وما
ذلك إلا لأن مجالس القوم كانت مدارس في التربية الروحية وتهذيب
النفوس وصل الأرواح. ويروى عن إمام الطائفة السيد الجنيد رحمه الله أنه
قال: «كنت بين يدي السري [السقطي] ألعب، وأنا ابن سبع سنين، وبين
يديه جماعة يتكلمون في الشكر، فقال لي: يا غلام: ما الشكر؟ - فقلت: ألا
تعصي الله بنعمة. فقال: يوشك أن يكون حظك من الله تعالى لسانك. فلا
أزال أبكي على هذه الكلمة التي قالها السري!»^(١١).

ومثل هذا تمامًا ما يقال من أن الجنيد قال: «كان السري إذا أراد أن
ينفعني يسألني، فقال لي يومًا: يا أبا القاسم، إيش الشكر؟ - فقلت: ألا
يستعان بشيء من نعم الله تعالى على معاصيه. فقال: من أين لك هذا؟ -
فقلت: من مجالستك»^(١٢).

• الشكر في المناقشات التأصيلية المفصلة:

يلاحظ المتابع لحركة التأليف في التصوف الإسلامي تقدمًا من الأقوال
المفردة في الأبواب المختلفة نحو المؤلفات التي تنحو نحو التناول التأصيلي
التفصيلي. ويعنُّ للخاطر هنا مؤلفات صوفية من قبيل «قوت القلوب في
معاملة المحبوب» لأبي طالب المكي (ت ٣٨٦هـ)، و«إحياء علوم الدين» لأبي
حامد الغزالي (ت ٥٠٥هـ)، وغير هذين. وقد بدت لي فائدة في إثبات لباب ما

(١٠) نفسه، ص ٨٢.

(١١) نفسه، ص ٨١. وكان السري خال الجنيد.

(١٢) نفسه، ص ٨٢.

قدّمه الغزالي في هذا الكتاب في شأن مفهوم الشُّكر. وينطوي ما كتبه في هذا الشأن على تطوير كبير للبنية المفهومية لـ «الشُّكر».

• البنية المفهومية لفكرة «الشُّكر» عند الغزالي:

جاء حديث الغزالي عن «الشُّكر» في المجلد الرابع من كتابه الإحياء، حيث يجعل العنوان الكامل هكذا: «كتاب الصَّبْر والشُّكر» - وهو الكتاب الثاني من رُبْع المنجيات من كتاب (إحياء علوم الدين). وقال المؤلف في تضاعيف التقديم: «إنَّ الإيمانَ نصفانِ: نصفٌ صَبْرٌ ونصفٌ شُكْرٌ، كما وَرَدَتْ به الآثارُ وشهدتْ له الأخبارُ. وهما أيضًا وصفانِ من أوصافِ الله تعالى، واسمانِ من أسمائه الحُسنى، إذ سَمَّى نفسه صَبُورًا وشُكُورًا. فالجهلُ بحقيقة الصَّبْرِ والشُّكْرِ جهلٌ بكلا شَطْرَي الإيمان، ثم هو غفلةٌ عن وَصفَيْنِ من أوصافِ الرَّحمن... ونحنُ نُوضِّحُ كلا الشَّطْرَيْنِ في كتابٍ واحدٍ لارتباطِ أَحدهما بالآخر، إن شاء الله تعالى»^(١٣).

وبعد أن أنهى المؤلف الحديث عن الصَّبْر أخذ في الحديث عن «الشُّكر»، وبنى حديثه فيه على ثلاثة أركانٍ هي: فضيلة الشُّكر وحقيقته وأقسامه وأحكامه، وحقيقة النعمة وأقسامها الخاصة والعامة، وبيان الأفضل من الشُّكر والصَّبْر. ويهْمنا هنا من هذه جميعاً حديثه في «بيان حدِّ الشُّكر وحقيقته».

يجعل الغزالي الشُّكر من جُملة مقامات السَّالِكين، ويحدِّد له ثلاثة مكوّنات هي: العِلْمُ والحالُ والعملُ. ويجعل العِلْمَ هو الأُصل الذي يُورثُ الحالَ، الذي يُورثُ هو نفسه العملُ^(١٤). ثم يوضح معاني هذه المكوّنات: «فأما العِلْمُ فهو معرفةُ النعمةِ من المُنعم، والحالُ هو الفَرْحُ الحاصلُ

(١٣) الغزالي: إحياء علوم الدين، سابق، ج ٤ ص ٦٠.

(١٤) السابق، ج ٤ ص ٨١.

بِإِنْعَامِهِ، وَالْعَمَلُ هُوَ الْقِيَامُ بِمَا هُوَ مَقْصُودُ الْمُنْعِمِ وَمَحْبُوبُهُ»^(١٥).
وهكذا تبدو البنية المفاهيمية لـ «الشكر» مركبة عند الغزالي من عناصر
نفسية باطنية يدفع بعضها إلى بعض في تسلسلٍ عليّ، انتبه إليه العارفون
الإلهيون في سيرهم وسلوكهم. وحقيقة أنّ الغزالي يتمتع بذهن في غاية
القدرة على التحليل والتعليل والتنظيم، لكنّه في أثناء إعداد كتابه الإحياء
كان يعيش هو نفسه الحالات الروحية التي يتحدث عنها، فإنّ هذا الكتاب
«عَرَضٌ في غاية التنظيم والشمول للعناء الروحي لقلب الإنسان مع وصفات
لكيفية معالجته. إنّ كتاباً في علم المعاملات، بتعبير الغزالي نفسه. ويمكن
أن نفترض باطمئنان، تبعاً لذلك، أنّ محتويات الإحياء ذات صلة بما كان
يعيشه ويعاينه يومياً بما هو صوفي. وإضافة إلى ذلك، مهمّ تماماً، حين
نُدْرُسُ فِذَاذَةً* الغزالي في التقليد الصوفي، أن نتذكّر أنّ كلّ رياضاته تقريباً
كانت تُؤدّي في عزلة»^(١٦).

ثمّ يتقدّم الغزالي ليفصّل القول في كلّ من عناصر الشكر: العلم والفرح
والعمل. فالعلم يتناول أيضاً ثلاثة أمور هي: العلم بعين النعمة، وبوجه كونها
نعمة في حق السالك، وبذات المنعم وصفاته التي يتم بها الإنعام ويصدر
الإنعام منه عليه. ولا بدّ هنا من نعمة ومُنعم ومُنعم عليه تصل إليه النعمة من
المنعم بقصد وإرادة. ويبيّن الغزالي هنا أنّ هذا العلم يمرّ بثلاث مراحل:
التقديس والتوحيد وصدور كلّ ما في العالم عن المقدّس الواحد، فإنّ الرتبة

(١٥) نفسه.

(*) استعمال (فِذَاذَةً) بمعنى فِذَاذَةً لم يُسمع عن العرب، ولا نصّت عليه معاجم العربية، فكأنّه
مولّد معاصر، ولسنا على يقين من وجه قياسيّ فيه. = [المجلة].

NAKAMURA, KOJIRO, GHAZALI AND PRAYER. Islamic Book Trust, Kuala (١٦)

Lumpur, 2001, p. 20.

الأولى في معارف الإيمان هي التقديس، فمعرفة الذات المقدسة ينشأ عنها معرفة أن المقدس واحد وما عداه غير مقدس، وهذا هو التوحيد. ثم معرفة المقدس الواحد ينشأ عنها معرفة أن كل ما في العالم موجود من ذلك الواحد. وتنطوي هذه المعرفة على تقديس الحق وتوحيده وكمال قدرته تعالى وانفراده بالفعل. وهذا ما عبّر عنه رسول الله عليه الصلاة والسلام بالقول: «من قال: سبحان الله فلّه عشر حسنات، ومن قال: لا إله إلا الله فلّه عشرون حسنة، ومن قال: الحمد لله فلّه ثلاثون حسنة»... ولا تتأتى هذه الحسنات من تحريك اللسان بهذه الكلمات، بل لا بد من حصول معانيها في القلب. والأقوال الثلاثة تعني على الولاء: التقديس، والتوحيد، والنعمة من الواحد الحق^(١٧).

ويبين الغزالي حقيقة الشكر بالتزام تعلق عقدي بين معارف الإيمان أو الشكر هذه، بالقول: «لا تشكر إلا بأن تعرف أن الكل منه، فإن خالجت ريب في هذا لم تكن عارفاً بالنعمة ولا بالمنعم، فلا تفرح بالمنعم وحده، بل وبغيره، فبنقصان معرفتك ينقص حالك في الفرح، وبنقصان فرحك ينقص عملك»^(١٨).

ويفصل الغزالي القول في شأن الأصل الثاني، أو العنصر الثاني، من عناصر «الشكر»، وهي الحال الناشئة من المعرفة، وهو الفرح بالمنعم مع هيئة الخضوع والتواضع. وعنده أن هذا الفرح عينه شكر، مثلما أن المعرفة شكر، لكن كونه شكراً مشروط بكونه فرحاً بالمنعم، لا بالنعمة ولا بالإنعام. ولذلك قال السبلي رحمه الله: «الشكر رؤية المنعم، لا رؤية النعمة»^(١٩).

ثم يوضح صاحب الإحياء الأصل الثالث، أو العنصر الثالث من عناصر

(١٧) إحياء علوم الدين، سابق، ج ٤ ص ٨٢، بتصرف يسير.

(١٨) السابق، ص ٨٣.

(١٩) نفسه، ص ٨٣-٨٤.

«الشُّكْر»، وهو الْعَمَلُ الذي يُمْلِيهِ الْفَرَحُ النَّاشِئُ عن معرفة الْمُنْعَمِ. وهذا الْعَمَلُ يَنْهَضُ به عِنْدَ الْغَزَالِيِّ ثَلَاثُ أَدَوَاتٍ، هِيَ الْقَلْبُ وَاللِّسَانُ وَالْجَوَارِحُ. ويعني عَمَلُ الْقَلْبِ قَصْدَ الْخَيْرِ لِلْخَلْقِ جَمِيعًا، ويعني عَمَلُ الْجَوَارِحِ اسْتِعْمَالَ نِعَمِ اللَّهِ تَعَالَى فِي طَاعَتِهِ فَقَطْ^(٢٠).

وَيُقَدِّمُ صَاحِبُ الْإِحْيَاءِ تَحْلِيلًا لِلْعِبَارَاتِ الْمَفْرَدَةِ الْجَامِعَةِ الَّتِي لَا حَظَّنَاهَا قَبْلُ، وَيُبَيِّنُ أَنَّ هَذِهِ الْعِبَارَاتِ لَا يَنْطَبِقُ عَلَيْهَا الْحَدُّ الْمُنْطَقِيُّ الْجَامِعُ الْمَانِعُ، بَلْ تَلَحَّظُ أَحْوَالًا خَاصَّةً عِنْدَ قَائِلِيهَا: «فَأَمَّا قَوْلُ مَنْ قَالَ: إِنَّ الشُّكْرَ هُوَ الْاعْتِرَافُ بِنِعْمَةِ الْمُنْعَمِ عَلَى وَجْهِ الْخُضُوعِ فَهُوَ نَظَرٌ إِلَى فِعْلِ اللِّسَانِ مَعَ بَعْضِ أَحْوَالِ الْقَلْبِ. وَقَوْلُ مَنْ قَالَ: إِنَّ الشُّكْرَ هُوَ الثَّنَاءُ عَلَى الْمُحْسِنِ بِذِكْرِ إِحْسَانِهِ نَظَرٌ إِلَى مُجَرَّدِ عَمَلِ اللِّسَانِ. وَقَوْلُ الْقَائِلِ: إِنَّ الشُّكْرَ هُوَ الْاعْتِكَافُ عَلَى بَسَاطَةِ الشُّهُودِ بِإِدَامَةِ حِفْظِ الْحُرْمَةِ، جَامِعٌ لِأَكْثَرِ مَعَانِي الشُّكْرِ لَا يَشُدُّ مِنْهُ إِلَّا عَمَلُ اللِّسَانِ... وَهَؤُلَاءِ أَقْوَالُهُمْ تُعَرِّبُ عَنْ أَحْوَالِهِمْ، فَلِذَلِكَ تَخْتَلِفُ أَجْوِبَتُهُمْ وَلَا تَتَّفِقُ، ثُمَّ قَدْ يَخْتَلِفُ جَوَابُ كُلِّ وَاحِدٍ فِي حَالَتَيْنِ؛ لِأَنَّهُمْ لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا عَنْ حَالَتِهِمُ الرَّاهِنَةِ الْغَالِبَةِ عَلَيْهِمْ؛ اشْتِغَالًا بِمَا يُهْمُّهُمْ عَمَّا لَا يُهْمُّهُمْ، أَوْ يَتَكَلَّمُونَ بِمَا يَرَوْنَهُ لائِقًا بِحَالَةِ السَّائِلِ، اقْتِصَارًا عَلَى ذِكْرِ الْقَدْرِ الَّذِي يَحْتَاجُ إِلَيْهِ، وَإِعْرَاضًا عَمَّا لَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ..»^(٢١).

عَلَى هَذَا النَّحْوِ تَبْدُو الْبُنْيَةُ الْمَفْهُومِيَّةُ لِـ «الشُّكْرِ» فِي غَايَةِ التَّرَكِيبِ وَالتَّسْلُسِ الْمُنْطَقِيِّ، وَبَدَأَ الْغَزَالِيُّ حَرِيصًا جِدًّا عَلَى إِفْهَامِهَا، حَالُهُ فِي ذَلِكَ حَالُ الْمُعَلِّمِ الَّذِي يَسْتَنْفِدُ جُهِدَهُ فِي تَعْلِيمِ تَلَامِيذِهِ. وَيَبْدُو لِلْمُتَأَمِّلِ أَنَّ الْغَزَالِيَّ كَانَ مُعَلِّمًا لِلتَّصَوُّفِ الْمَبْنِيِّ عَلَى مَبَادِئِ الْقُرْآنِ وَالسُّنَّةِ النَّبَوِيَّةِ، وَلَا

(٢٠) نفسه، ص ٨٤.

(٢١) نفسه، ص ٨٤-٨٥.

تجدُّ في الإحياء اجتهادًا لا يستند فيه المؤلِّف إلى القرآن والحديث.
ويقفُ الغزالي طويلاً عند «الشُّكرِ في حقِّ الله تعالى»، ويُقدِّم تمثيلاتٍ
مُفصَّلةً لهذا الأمر، انسجامًا مع قَصْدِهِ الأوَّل في «إحياء علوم الدِّين». ويُبيِّن
حقيقة الشَّاكِرِ والكافرِ إزاء الله سبحانه، فيقولُ بعدَ إسْهاب: «كُلُّ ما خُلِقَ في
الدُّنيا إنّما خُلِقَ آلهَ لِلْعَبْدِ؛ لِيَتَوَصَّلَ بِهِ إِلَى سَعَادَةِ الْآخِرَةِ وَنَيْلِ الْقُرْبِ مِنَ اللَّهِ
تعالى. فكلُّ مُطِيعٍ فهو بِقَدْرِ طَاعَتِهِ شاكِرٌ نِعْمَةَ اللَّهِ فِي الْأَسْبَابِ الَّتِي
اسْتَعْمَلَهَا فِي الطَّاعَةِ. وَكُلُّ كَسَلَانَ تَرَكَ الاسْتِعْمَالَ، أَوْ عَاصٍ اسْتَعْمَلَهَا فِي
طَرِيقِ الْبُعْدِ، فهو كافرٌ جارٍ في غيرِ مَحَبَّةِ اللَّهِ تعالى. فالْمَعْصِيَةُ وَالطَّاعَةُ
تَشْمَلُهُمَا الْمَشِيئَةُ، وَلَكِنْ لَا تَشْمَلُهُمَا الْمَحَبَّةُ وَالْكَرَاهَةُ، بَلْ رُبُّ مُرَادٍ
مُحِبُّوبٍ، وَرُبُّ مُرَادٍ مَكْرُوهٍ» (٢٢).

وفي مفهوم «الشُّكرِ» يَلْفُتُ الغزالي الانتباه إلى ضرورة اعتقاد التَّوْحِيدِ
لدى القائمِ بفِعْلِ الشُّكْرِ، أَوِ الشَّاكِرِ؛ وَيُبْنِئُهُ عَلَى دَقِيقَةٍ لَا يَنْبَغِي أَنْ تُفَارَقَ
الْأَذْهَانَ، وَهِيَ أَنَّ نِسْبَةَ الشُّكْرِ إِلَى الْعَبْدِ لَيْسَتْ حَقِيقَةً؛ ذَلِكَ لِأَنَّ الْفَاعِلَ
الْحَقِيقِيَّ لِلشُّكْرِ عِنْدَ شُكْرِ الْإِنْسَانِ اللَّهُ هُوَ اللَّهُ تَعَالَى، وَمَا الْإِنْسَانُ إِلَّا مَحَلٌّ
لِمَعْنَى الشُّكْرِ الَّذِي وَجَدَ فِيكَ بِالْقُدْرَةِ الْأَزَلِيَّةِ، فَالْإِنْسَانُ فِعْلٌ لِلَّهِ، وَهُوَ أَيْضًا
مَحَلٌّ لِأَفْعَالٍ أُخْرَى لَيْسَ هُوَ الْفَاعِلَ لَهَا؛ «فَلَهُ الشُّكْرُ عَلَى كُلِّ حَالٍ، وَأَنْتَ
مَوْصُوفٌ بِأَنَّكَ شاكِرٌ بِمَعْنَى أَنَّكَ مَحَلُّ الْمَعْنَى الَّذِي الشُّكْرُ عِبَارَةٌ عَنْهُ، لَا
بِمَعْنَى أَنَّكَ مُوجِدٌ لَهُ، كَمَا أَنَّكَ مَوْصُوفٌ بِأَنَّكَ عَارِفٌ وَعَالِمٌ، لَا بِمَعْنَى أَنَّكَ
خَالِقٌ لِلْعِلْمِ وَمُوجِدُهُ، وَلَكِنْ بِمَعْنَى أَنَّكَ مَحَلٌّ لَهُ، وَقَدْ وَجَدَ بِالْقُدْرَةِ الْأَزَلِيَّةِ
فِيكَ. فَوَضَّفُكَ بِأَنَّكَ شاكِرٌ إِثْبَاتُ شَيْئَةٍ لَكَ، وَأَنْتَ شَيْءٌ إِذْ جَعَلَكَ خَالِقُ
الْأَشْيَاءِ، وَإِنَّمَا أَنْتَ لَا شَيْءٌ إِذَا كُنْتَ أَنْتَ ظَانًّا لِنَفْسِكَ شَيْئًا مِنْ ذَاتِكَ...

فَتَبَيَّنَ أَنَّ الْخَلْقَ مَجَارِي قُدْرَةِ اللَّهِ تَعَالَى وَمَحَلُّ أَعْمَالِهِ، وَإِنْ كَانُوا هُمْ أَيْضًا مِنْ أَعْمَالِهِ، وَلَكِنْ بَعْضُ أَعْمَالِهِ مَحَلُّ لِلْبَعْضِ»^(٢٣).

ويلتفت الغزالي إلى تفصيلات دقيقة ينطوي عليها مفهوم «الشكر»، فيعقد لذلك عنوانًا جزئيًا، هو: «بيان تمييز ما يُحِبُّهُ اللَّهُ تَعَالَى عَمَّا يَكْرَهُهُ»، ثم يجعل معرفة ذلك شرطًا لإداء فعل الشكر وترك الكفر. وفي هذا يقول: «اعلم أن فعل الشكر وترك الكفر لا يتم إلا بمعرفة ما يُحِبُّهُ اللَّهُ تَعَالَى عَمَّا يَكْرَهُهُ، إذ معنى الشكر استعمال نعمه تعالى في محابه، ومعنى الكفر نقيض ذلك: إما بترك الاستعمال أو باستعمالها في مكارهه»^(٢٤).

ثم يبين أن آلي تمييز ما يُحِبُّهُ اللَّهُ تَعَالَى مِمَّا يَكْرَهُهُ هُما سَمْعُ الآيَاتِ والأخبار، وبصيرة القلب. ومن أجل الأول أرسل الله تعالى الرُّسُلَ الذين جاؤوا بجميع أحكام الشرع في أفعال العباد؛ «فَمَنْ لَمْ يَطَّلِعْ عَلَى أَحْكَامِ الشَّرْعِ فِي جَمِيعِ أَعْمَالِهِ لَمْ يُمَكِّنْهُ الْقِيَامُ بِحَقِّ الشُّكْرِ أَصْلًا»^(٢٥).

أما الآلة الثانية، أي: البصيرة والنظر بعين الاعتبار، فهي عنده «إدراك حكمة الله تعالى في كل موجود خلقه، إذ ما خلق شيئًا في العالم إلا وفيه حكمة، وتحت الحكمة مقصود، وذلك المقصود هو المحبوب»^(٢٦).

وقد بذل المؤلف جهدًا كبيرًا في إيضاح الأمر، على طريقته في تقديم الحدود والأقسام والتشيلات.

وحقيقة الأمر هنا أننا نقف أمام مفكر صوفي عملاق، قادر على التفريق والتشقيق والتنظيم، ذي أناة وروية وتدبر، مفكر واسع الثقافة متنوع

(٢٣) نفسه، ص ٨٩.

(٢٤) نفسه، ص ٩٠.

(٢٥) نفسه.

(٢٦) نفسه.

المعارف والخبرات، مُحيط تقريباً بِجُمْلَةِ المعارف التي سَبَقَتْ عَصْرَهُ، والمعارف التي عَرَفَهَا عَصْرُهُ، وَوَعَتْهَا أَمْصَارُ الْإِسْلَامِ عَلَى امْتِدَادِ قُرُون. وفي هذا الشَّانِ رُبَّمَا يَكُونُ فِي مُتَنَاوَلِ الْمُتَأَمِّلِ أَنْ يَقُولَ: إِنَّ الْغَزَالِيَّ يَنْتَمِي إِلَى صِنْفٍ مِنَ الصُّوفِيَّةِ ظَهَرَ عَلَى نَحْوٍ وَاضِحٍ بَعْدَ ذَلِكَ فِي الْمَنْهَجِيَّةِ الْجَامِعَةِ بَيْنَ الْعَوَاصِرِ فِي التَّجَارِبِ الرُّوحِيَّةِ وَالتَّنْظِيرِ الْفَلَسَفِيِّ، أَطْلَقَ عَلَيْهِ فِي فَارِسَ «نَمَطِ الْحِكْمَةِ فِي الْفَلَسَفَةِ»، يَقُولُ عَنْهُ (توشيهيكو إيزوتسو) الْبَحَاثَةُ الْيَابَانِيَّةُ: «وفي شَأْنِ التَّجَرِبَةِ الصُّوفِيَّةِ أَوْ الرُّوحِيَّةِ، الَّتِي تُؤَلَّفُ الْأَسَاسُ لِلْبُنْيَةِ الْكَامِلَةِ لِنَمَطِ الْحِكْمَةِ فِي الْفَلَسَفَةِ، يُمْكِنُ أَنْ نَبْدَأَ بِمُلاحِظَةِ أَنَّهُ لَيْسَ نَتَاجًا لِعَمَلٍ عَقْلِيٍّ صِرْفٍ عَلَى مَسْتَوَى الْعَقْلِ. بَلْ هُوَ نَتَاجٌ أَصْلِيٌّ لِنَشَاطٍ عَمَلٍ تَحْلِيلِيٍّ قَوِيٍّ صَاحِبِهِ وَأَيَّدَهُ فَهْمٌ حَدْسِيٌّ عَمِيقٌ لِلْحَقِيقَةِ أَوْ لَشَيْءٍ وَرَاءَ ذَلِكَ النَّوعِ مِنَ الْحَقِيقَةِ الْمُتَاحِ لَوَعْيِ الْبَشَرِ. وَيُمَثِّلُ نَمَطُ الْحِكْمَةِ تَفْكِيرًا مَنْطِقِيًّا قَائِمًا عَلَى شَيْءٍ يَفْهَمُهُ مَا يُمْكِنُ أَنْ نُسَمِّيَهُ مَا فَوْقَ الْوَعْيِ - supra consciousness... إِذْ مَاجُ تَامٌ لِلتَّجَرِبَةِ الصُّوفِيَّةِ وَالْفِكْرِ التَّحْلِيلِيِّ فِي بُنْيَةِ مَفْهُومِيَّةِ لِلْفَلَسَفَةِ الْمَدْرَسِيَّةِ»^(٢٧).

وقد كَانَ الْغَزَالِيُّ يَعِي تَمَامًا أَنَّ مَا هُوَ عِنْدَهُ مُسَاوٍ تَقْرِيْبًا لِنَمَطِ الْحِكْمَةِ فِي الْفَلَسَفَةِ الَّذِي أَسَّسَ لَهُ الشُّهُرُورْدِيُّ وَابْنُ عَرَبِيٍّ، وَأَنْضَجَهُ فِي فَارِسَ فِيمَا بَعْدَ صَدْرِ الدِّينِ الشِّيرَازِيِّ وَمُلَّا هَادِي السَّبْزَوَارِيِّ.

وَلِأَنَّ النَّظَرَ إِلَى الْأَمْرِ الْوَاحِدِ، أَوْ الْمَفْهُومِ الْوَاحِدِ، لَهُ اعْتِبَارَاتٌ كَثِيرَةٌ، يَصِلُ الْغَزَالِيُّ إِلَى أَنْ يَقُولَ فِي «بَيَانِ تَمْيِيزِ مَا يُحِبُّهُ اللَّهُ تَعَالَى عَمَّا يَكْرَهُهُ» مِنْ

Izutsu, Toshihiko. The Concept and Reality of Existence, Islamic Book Trust, (٢٧)

Kuala Lumpur, 2007. p. 9.

ويمكنُ الْعُودُ إِلَى التَّرْجَمَةِ الْعَرَبِيَّةِ لِلْكِتَابِ بِعَنْوَانِ: مَفْهُومُ الْوُجُودِ وَحَقِيقَتُهُ،

ترجمة عيسى علي العاكوب، نشر دار نينوى في دمشق، ٢٠١٩م، ص ١٢١.

جَهة اعْتِمَادِ الشُّكْرِ وَالْكَفْرِ عَلَيْهِ: «إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى حِكْمَةٌ فِي كُلِّ شَيْءٍ، وَإِنَّهُ جَعَلَ بَعْضَ أَفْعَالِ الْعِبَادِ سَبَبًا لِتَمَامِ الْحِكْمَةِ وَبُلُوغِهَا غَايَةَ الْمُرَادِ مِنْهَا، وَجَعَلَ بَعْضَ أَفْعَالِهَا [الْعِبَادِ] مَانِعًا مِنْ تَمَامِ الْحِكْمَةِ، فَكُلُّ فِعْلٍ وَافِقٍ مُقْتَضَى الْحِكْمَةِ حَتَّى انْسَاقَتْ الْحِكْمَةُ إِلَى غَايَتِهَا فَهُوَ شُكْرٌ، وَكُلُّ مَا خَالَفَ وَمَنَعَ الْأَسْبَابَ مِنْ أَنْ تَنَسَاقَ إِلَى الْغَايَةِ الْمُرَادَةِ بِهَا فَهُوَ كُفْرَانٌ»^(٢٨). فَلُبُّ لُبَابِ «الشُّكْرِ» عِنْدَهُ أَنْ يَكُونَ الْعَبْدُ مُسْتَعْمَلًا فِي إِتْمَامِ حِكْمَةِ اللَّهِ تَعَالَى.

وَالْحَقِيقَةُ أَنَّ مَا أَتَى بِهِ الْغَزَالِيُّ فِي شَأْنِ مَفْهُومِ «الشُّكْرِ» كَثِيرٌ وَفِي غَايَةِ التَّفْصِيلِ. وَقَدْ أَثَرْنَا الْاِقْتِصَارَ عَلَى هَذَا الَّذِي أَتَيْنَا بِهِ لِصِلَتِهِ الْوُثْقَى بِمَا نَحْنُ إِزَاءَهُ مِنْ مَفْهُومِ الشُّكْرِ، وَلِضِيقِ مَجَالِ الْقَوْلِ عَنِ التَّفْصِيلِ، الَّذِي نَخَالُ أَنَّ لَهُ مَحَلًّا آخَرَ.

المُحَصَّلُ الْأَخِيرُ:

تَابَعَتِ الْوَرَقَةُ رِحْلَةَ مَفْهُومِ «الشُّكْرِ»، بِمَا هُوَ مَفْهُومٌ أَخْلَاقِيٌّ فِي التَّصَوُّفِ الْإِسْلَامِيِّ، مِنْذُ أَنْ كَانَ مَذْلُولًا لِمُفْرَدَةٍ فِي الْعَرَبِيَّةِ الْقَدِيمَةِ تَعْنِي ظُهُورَ الْأَثَرِ الْإِيجَابِيِّ فِي الْمُتَأَثِّرِ، مُمَثِّلًا لَهُ بِأَخْضَارِ شَجَرَةِ الْبَرُوقِ، أَوْ الْبَرْوَقَةِ، بِتَأْثِيرِ السَّحَابِ قَبْلَ أَنْ تَعْدُوَ السَّحَابُ غَيْثًا نَافِعًا، أَوْ مَطَرًا، إِلَى أَنْ صَارَ يَعْنِي الرِّضَا بِالْيَسِيرِ، ثُمَّ ذَكَرَ فَضْلُ الْمُنْعِمِ لِإِنْعَامِ يُؤَلِيكُهُ، فِي الْعَصْرِ الْجَاهِلِيِّ. وَهَكَذَا إِلَى أَنْ بَرَعَ فَجْرُ الْإِسْلَامِ، وَسَطَعَ نُورُهُ فِي الْقُلُوبِ وَالْعُقُولِ، فَهَيَّا الْقُرْآنُ وَالسُّلُوكُ النَّبَوِيُّ عُقُولَ الْمُؤْمِنِينَ لِأَنْ تُدْرِكَ فِي «الشُّكْرِ» عُنَاصِرَ مَفْهُومِيَّةٍ جَدِيدَةٍ، أَظْهَرَتْهُ مُوجَّهًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ إِلَى الْمُنْعِمِ الْحَقِّ الْأَوْحَدِ سُبْحَانَهُ، ثُمَّ مِنْهُ جَلَّ وَعَلَا إِلَى الشَّاكِرِينَ. وَعَلَى هَذَا النَّحْوِ صِرْنَا نَجِدُنَا أَمَامَ شَاكِرِينَ عَرَفُوا وَحْدَةَ الْمُنْعِمِ، الَّذِي خَاطَبَهُمْ فِي الْقُرْآنِ مُبَاشَرَةً: ﴿وَإِنْ تَعَدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا﴾ [النحل: ١٨]، وَعَدَّدَ لَهُمْ كَثِيرًا مِنْ نِعَمِهِ عَلَيْهِمْ، وَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْأَعْلَمُ بِالشَّاكِرِينَ، وَأَنَّهُ لَا مَحَالَةَ

جازيهم ثواب صَنِيعِهِمْ هذا. وبعبارة في غاية القوة البلاغية حَدَدَ لَهُمُ الْعِلَاقَةَ بَيْنَهُ سُبْحَانَهُ وَبَيْنَهُمْ عَلَى هَذَا النَّحْوِ: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ﴾ [البقرة: ١٥٢]. وهكذا أشاع القرآن الكريم والسلوك النبوي مفهومًا متطورًا لـ «الشُّكْرِ» ساوَى بَيْنَ الشُّكْرِ وَالْإِيمَانِ، حَتَّى صَارَ مُقَابِلًا تَمَامًا لِنَقِيضِ الْإِيمَانِ، وَهُوَ الْكُفْرُ وَإِنْكَارُ الْحَقِّ تَعَالَى. ثُمَّ ابْتَدَأَ مِنْ مُتَصَفِّ الْقَرْنِ الْهَجْرِيِّ الثَّانِي أَخَذَتْ عُقُولُ أَهْلِ الْإِحْسَانِ وَقُلُوبُهُمُ الطَّالِبَةُ لِلَّهِ وَحْدَهُ تَرَى فِي «الشُّكْرِ» مَنْزِلًا مِنْ مَنَازِلِ السَّائِرِينَ، يُعَرَّفُ وَيُحَدُّ وَيُجْتَهِدُ كَثِيرًا فِي إِفْهَامِ عُنَاصِرِهِ وَمُكَوِّنَاتِهِ، إِلَى أَنْ هَيَّاَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ مَنْ يُقَدِّمُ لـ «الشُّكْرِ» دِرَاسَاتٍ مُفَصَّلَةً تَنَاوَلَتْ حَقِيقَتَهُ وَعُنَاصِرَهُ الرُّوحِيَّةَ وَالْبَوَاعِثَ عَلَيْهِ، وَالْمَوَانِعَ الَّتِي تَحُولُ بَيْنَ الْعِبَادِ وَبَيْنَهُ، حَتَّى جَعَلَهُ بَعْضُهُمْ دَرَجَاتٍ: الشُّكْرُ فِي الْمَحَابِّ، وَالشُّكْرُ فِي الْمَكَارِهِ، وَأَلَّا يَشْهَدَ الْعَبْدُ إِلَّا الْمُنْعَمَ؛ «فَإِذَا شَهِدَ الْمُنْعَمَ عُبُودَةً اسْتَعْظَمَ مِنْهُ النِّعْمَةُ، وَإِذَا شَهِدَهُ حُبًّا اسْتَحْلَى مِنْهُ الشَّدَّةُ، وَإِذَا شَهِدَهُ تَفَرُّدًا لَمْ يَشْهَدْ مِنْهُ شِدَّةٌ وَلَا نِعْمَةٌ»^(٢٩).

والله سُبْحَانَهُ الْهَادِي إِلَى سَوَاءِ السَّبِيلِ.

* * *

المصادر والمراجع

آ- في العربية:

- القرآن الكريم.
- البُخَارِيُّ، صَحِيحُهُ بِشَرْحِ الْكِرْمَانِيِّ، المطبعة البهية، القاهرة، ١٩٣٩ م.

(٢٩) شَيْخُ الْإِسْلَامِ عَبْدُ اللَّهِ الْأَنْصَارِيُّ الْهَرَوِيُّ (ت ٤٨١هـ)، مَنَازِلُ السَّائِرِينَ، بِتَحْقِيقِ أَحْمَدِ السَّايِحِ وَتَوْفِيقِ وَهْبَةِ، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ١٤٢٨هـ-٢٠٠٧م، ص ٩١-٩٢.

- أبو الفتح البُستِي، ديوانُ شِعْرِهِ، بِتَحْقِيقِ دُرِّيَّةِ الخُطِيبِ وَلُطْفِي الصَّقَالِ، نَشْرُهُ مَجْمَعُ اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ فِي دِمَشْقَ، ١٩٨٩ م.
- مُحَمَّدٌ عَلِي التَّهَانَوِي، كَشَافُ اصْطِلَاحَاتِ الْفُنُونِ وَالْعُلُومِ، بِعِنَايَةِ رَفِيقِ الْعِجْمِ وَآخَرِينَ، مَكْتَبَةُ لُبْنَانَ نَاشِرُونَ، بِيروت، ١٩٩٦ م.
- الشَّرِيفُ الْجُرْجَانِيُّ، كِتَابُ التَّعْرِيفَاتِ، مَكْتَبَةُ لُبْنَانَ، بِيروت، ١٩٧٨ م، ص ١٣٣.
- الْجَوْهَرِيُّ، تَجْدِيدُ صِحَاحِ الْعَلَامَةِ الْجَوْهَرِيِّ، إِعْدَادُ وَتَصْنِيفُ نَدِيمِ مَرْعَشَلِي وَأَسَامَةِ مَرْعَشَلِي، دَارُ الْحَضَارَةِ الْعَرَبِيَّةِ، بِيروت، ١٩٧٤ م.
- الْحُصَيْنُ بْنُ الْحِمَامِ الْمُرِّي، سِيرَتُهُ وَشِعْرُهُ، بِتَحْقِيقِ شَرِيفِ عَلَاوَنَةِ، دَارِ الْمَنَاهِجِ، عَمَّانَ، ٢٠٠٢ م.
- الرَّاعِبُ الْأَصْفَهَانِيُّ، مُفْرَدَاتُ أَلْفَاظِ الْقُرْآنِ، بِتَحْقِيقِ صَفْوَانَ دَاوُودِي، نَشْرُ دَارِ الْقَلَمِ فِي دِمَشْقَ، ١٤٢٣ هـ - ٢٠٠٢ م.
- ابْنُ رَشِيقِ الْقَيْرَوَانِيِّ، الْعُمْدَةُ فِي مَحَاسِنِ الشَّعْرِ وَأَدَابِهِ وَنَقْدِهِ، بِتَحْقِيقِ مُحَمَّدٍ مُحْيِي الدِّينِ عَبْدِ الْحَمِيدِ، دَارُ الْجِيلِ، بِيروت، ١٩٨١ م.
- زُهَيْرُ بْنُ أَبِي سُلَمَى، دِيوَانُ شِعْرِهِ، بِتَحْقِيقِ فَخْرِ الدِّينِ قِبَاوَةَ، الْمَكْتَبَةُ الْعَرَبِيَّةَ، حَلَبَ، ١٩٧٠ م.
- الزَّمَخْشَرِيُّ، الْكَشَافُ، نَشْرُهُ دَارُ الْكِتَابِ الْعَرَبِيِّ، بِيروت.
- حَاتِمُ الطَّائِي، دِيوَانُ شِعْرِهِ، بِتَحْقِيقِ عَادِلِ سَلِيمَانَ جَمَالِ، دَارُ الْمَدَنِيِّ، الْقَاهِرَةِ.
- أَبُو عُبَيْدَةَ، مَعْمَرُ بْنُ الْمُثَنَّى، كِتَابُ النَّقَائِصِ، بِعِنَايَةِ مُحَمَّدٍ أَحْمَدَ عَبْدِ الْعَزِيزِ سَالِمِ، دَارُ الْكُتُبِ الْعِلْمِيَّةِ، بِيروت.
- شَيْخُ الْإِسْلَامِ عَبْدِ اللَّهِ الْأَنْصَارِيُّ الْهَرَوِيُّ، مَنَازِلُ السَّائِرِينَ، بِتَحْقِيقِ أَحْمَدَ السَّايِحِ وَتَوْفِيقِ وَهْبَةَ، مَكْتَبَةُ الثَّقَافَةِ الدِّينِيَّةِ، الْقَاهِرَةِ، ١٤٢٨ هـ - ٢٠٠٧ م.
- الْغَزَالِيُّ، إِحْيَاءُ عُلُومِ الدِّينِ، نَشْرُهُ دَارُ الْفِكْرِ، بِيروت.

- أحمدُ بنُ فارس، معجم مقاييس اللغة، بتحقيق عبدالسلام مُحمَّد هارون، نَشْرَةُ اتِّحَادِ الكُتَّابِ العرب في دمشق، ١٤٢٣هـ-٢٠٠٢م.
- الفَخْرُ الرَّازِي، التَّفْسِيرُ الكبير، دار إحياء التَّراث العربي، بيروت، ١٤٢٠هـ.
- ابن قُتَيْبَة، الشَّعْرُ والشُّعْرَاء، بتحقيق م. ج. دي غويه، نَشْرَةُ مطبعة بريل، ليدن، ١٩٠٢م.
- أبو القاسم عبدالكريم القُشَيْرِي، الرِّسَالَةُ القُشَيْرِيَّةُ فِي عِلْمِ التَّصَوُّفِ، نَشْرَةُ دار الكتاب العربي، بيروت.
- عمرو بنُ كُلثوم، ديوانُ شِعْرِهِ، بِعناية علي أبو زيد، دار سعد الدِّين، دمشق، ١٩٩١م.
- المُتَنَبِّي، شَرْحُ ديوانِ شِعْرِهِ، بِعناية عبدالرحمن البرقوقي، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٩٨٦م.
- أبو طالب المكي، قُوْتُ القلوب، بتحقيق محمود الرِّضْوَانِي، مكتبة دار التَّراث، القاهرة، ١٤٢٢هـ-٢٠٠١م.
- مُنِير البُعْلَبَكِي، الموردُ الأكبر (قاموس إنكليزي - عربي)، نَشْرَةُ دار العِلْمِ للملايين، بيروت، ١٩٦٧م.
- المَيْدَانِي، مَجْمَعُ الأمثال، نَشْرَةُ مطبعة عبدالرحمن مُحمَّد، القاهرة، ١٣٥٢هـ.
- الإمام النَّوَوِي، شَرْحُ مَثْنِ الأربَعِينَ النَّوَوِيَّةِ، بِعناية لويس بوزيه، دار المشرق، بيروت، ١٩٨٢م.
- هُدْبَةُ بنُ الحَشْرَمِ العُذْرِي، ديوانُ شِعْرِهِ، بتحقيق يحيى الجبوري، دار القلم، الكويت، ١٩٨٦م.
- الهَذَلِيُّونَ، ديوانُ أشعارهم، دار الكتب المِصْرِيَّة، القاهرة، ١٩٤٥م.

- مُحَمَّدُ بْنُ إِبْرَاهِيمَ الْوُطُوطِ، غُرُرُ الْخَصَائِصِ الْوَاضِحَةِ، بِعْنَايَةِ إِبْرَاهِيمَ شَمْسِ الدِّينِ، دَارُ الْكُتُبِ الْعِلْمِيَّةِ، بِيروت، ٢٠٠٨ م.
 - ياقوت الحَمَوِيُّ: معجم البلدان، دار صادر، بيروت.
- ب- في الفارسيّة:**

- سَيِّدُ جَعْفَرِ سَجَّادِي: فرهنگ اصطلاحات و تعبيرات عرفاني، چاپ نهم انتشارات طهوري، طهران ١٣٨٩ هـ.ش - ٢٠١٠ م.
- مهين پناهي: اخلاق عارفان، أخلاق المُتصَوِّفَةِ مِنْ خِلَالِ الْمَتُونِ الْعِرْفَانِيَّةِ: منذ الْبَدْءِ إِلَى أَوَائِلِ الْقَرْنِ السَّابِعِ الْهَجْرِيِّ، انتشارات روزنه، طهران، ١٣٧٨ هـ.ش - ١٩٩٩ م.

ج- في الإنكليزيّة:

- 1- Izutsu, Toshihiko. Ethico - Religious Concepts in the Qur'an. McGill University Press, Montreal, Canada, 1966.
- 2- _____, The Concept and Reality of Existence. Islamic Book Trust, Kuala Lumpur, 2007.
- 3- Nakamura, Kojiro. Ghazali and Prayer. Islamic Book Trust, Kuala Lumpur, 2001.



كتابة الأشعار على الجدران بين التزيين والتوثيق والإبداع الأدبي

أ. د. محمد رضوان الداية(*)

تميّزت الحضارة العربية الإسلامية بخصائص طبعها بطابع خاص، وقد رسخت هذه الخصائص، وتطورت سريعاً منذ القرن الهجري الأول، ومنذ انتبه الخلفاء الأمويون إلى ضرورة الاستقلال بطراز عربي خاص، وبنقده يتميز بنقوشه والكلام المكتوب عليه. وأسهمت الحياة الإسلامية في رسم القواعد العامة التي تنتظم جوانب الفن الإسلامي: من الطراز والرسم والنقش والزخرفة والعمارة. وكان لاستبحار الحضارة في الدولة العربية الإسلامية في القرن الثالث في المشرق والأندلس أثرٌ في استكمال عناصر الفن الإسلامي.

وحين أعرض الفنانون في الدولة العربية الإسلامية عن الاحتفال بتصوير البشر ونقش تماثيل خاصة بهم، وتورّعوا عن استغلال صورة المرأة في جسدها كالذي صنعه اليونان والرومان وغيرهم التفتوا إلى الطبيعة بمعطياتها المختلفة واستفادوا من الهندسة وفنونها والرسم وتفصيلاته، وكان الخطُّ واحداً من إبداعاتهم حين شكلوا الحرف العربي تشكيلاتٍ

(*) أستاذ الأدب الأندلسي في جامعة دمشق سابقاً.

ورد إلى مجلة المجمع بتاريخ ١٠/٦/٢٠٢٠ م.

شَتَّى، وأدخلوا التنوع في الكتابة في جملة إبداعاتهم الفنية.

(١)

وكان لتطوّر الخطّ العربي، ولإبداعات النُسخ والخطاطين، وتنوّع أساليب الكتابة والخط والنقش، والتزيين أثرٌ في دخول (الخط العربي) جزءاً أساسياً من عناصر الفن العربي الإسلامي.

واحتاج الفنّانون إلى الخطّ العربيّ بأشكاله وأنواعه، وجمالياته في نسخ الكتب، وتنميق خطوطهم، وفي الكتابة الفنية على أشياء أخرى غير الورق، مثل الخشب والحجر والنسيج والمعادن والجلود وغير ذلك ممّا يمكن الكتابة عليه، أو تقتضي أحوال الكتابة المختلفة استعماله والاستفادة منه.

ومع نهضة العمران في الدور والقصور والمصانع والقناطر والقيساريّات والمساجد، والمرافق المختلفة مثل القاعات والحدائق وما شابه ذلك صار للخط أكثر من مهمة.

- فقد صار وسيلةً للتّزيين والتّجميل على شكلٍ يتلاءم والمجال المطلوب الكتابة فيه؛

- وصار وسيلةً للتّاريخ والتوثيق.

والخطّ العربيّ بأنواعه المتعددة هو أرقى خطوط العالم وأجملها على وجه البسيطة، فإنّ له من حُسن شكله وجمال هندسته، وبديع نسقه، وجاذبية صورته ما جعله محبوباً «محترماً» لدى الأجانب الغربيين، فضلاً عن مكانته بين المسلمين الذين هم ما يزالون يخدمونه، ويتفنّنون فيه، ويتكروّن له صوراً وأشكالاً بديعة^(١).

واسترسل الشيخ محمد طاهر الكردي في بيان مزايا الخط العربي

(١) يُنظر تاريخ الخط العربي وآدابه - محمد طاهر الكردي المكي الخطاط: ١٦٠.

ورَدَّها إلى ثمانية أمور، أطال التفصيل فيها، منها أنه يتشكّل بأي شكل هندسي، ويتمشى على أية صورة بحيث لا تختلف ماهيته، ولا يطرأ على جوهره تغيير أو تبديل. وسجّل أنه ظهر للخط العربي منذ صدر الإسلام أكثر من خمسين شكلاً^(٢).

والخطّ العربيّ شكلاً هندسيّ، والأشكال الهندسيّة الزخرفيّة هي طوع يد الماهر والنابع والمبدع الفنّان يتصرّف فيها كما يشاء.

وقد أدخل الشعراء في مدائحهم الإشادة بالعمائر والمباني التي ينشئها الخلفاء والحكام والوزراء ومن جاراهاهم في ذلك، واستحسن أصحاب تلك الدّور والقصور والمجالس تلك الأشعار، وكتبوا من تلك الأشعار ونقشوا في مواضع مختلفة من البناء؛ وفي خبر رواه الوشاء^(٣) قال: أخبرني أبو جعفر القارئ قال: أخبرني بعض شيوخنا أنه قرأ في صدر مجلسٍ لأمير المؤمنين المأمون:

صِلْ مَنْ هَوَيْتَ ودَعْ مقالة حاسِدٍ ليس الحسودُ على الهوى بمُساعدٍ
وحدثت نقلة ذات أهمية في الفنّ الإسلامي حين صار التزيين والتنسيق من جهة، والتوثيق والتأريخ من جهة أخرى مرتبطين بالشعر بعد أن كان موقوفاً على الشرّ التسجيلي، ذلك بأن اتساع حركة العمران في الأقطار العربيّة الإسلاميّة، ورهافة الذّوق الفني والأدبي، ودخول الشعراء ساحة المشاركة في هذا التطوّر الفنّي الجمالي: كل أولئك أدّى إلى الاستفادة من الشعر، ومن إبداع الشعراء.

ونقرأ أيضاً لاهتمام الأمم بالبيان والعمران في كتاب المحاسن والأضداد^(٤)، فقد «كانت العجم تقيّد (تسجّل) مآثرها بالبيان والمدن

(٢) المرجع السابق: ١٦١. هذا العدد المذكور مؤرخ بسنة ١٣٥٨ هـ - ١٩٣٩ م.

(٣) الموشى: ٢٧٠.

(٤) المحاسن والأضداد (الخانجي): ٣.

والحصون مثل بناء أردشير وبناء إصطخر وبناء المدائن والسدير.. ثم إنَّ العرب شاركت العجم في البنيان، وتفرّدت بالكتب والأخبار، والشعر والآثار، فلها من البنيان: غمدان، وكعبة نجران، وقصر مأرب، وقصر مارد، وقصر شعوب، والأبلق الفرد، وغير ذلك من البنيان، وتصنيف الكتب أشد تقييداً للمآثر على مرّ الأيام... وكانت العجم تجعل الكتاب في الصخور ونقشاً في الحجارة، وخلقة مركبة في البنيان؛ فربما كان الكتاب هو الناتج، وربما كان هو المحفور إذا كان ذلك تاريخاً لأمرٍ جسيم، أو عهداً لأمرٍ عظيم، أو موعظة يُرتجى نفعها، أو إحياء شرف يريدون تخليد ذكره، كما كتبوا على قبة غمدان، وعلى باب القيروان، وعلى باب سمرقند، وعلى عمود مأرب.. يعمدون إلى المواضع المشهورة والأماكن المذكورة، فيضعون الخط في أبعد المواضع من الدثور، وأمنعها من الدُّروس، وأجدر أن يراه من مرّ به ولا يُنسى على وجه الدهور».

وقد أوردت هذا النصّ، لأنه يوضح ما نحن بسببه من التوثيق (والتخليد) والتزيين؛ وتسجيل النصوص المناسبة من الكلام في المواضع الملائمة من الدُّور والقصور والقباب والقناطر وسائر العمائر ومخلدات المباني.

ومن أخبار الخلفاء العباسيين ما ذكره ياقوت^(٥) من أن المعتصم والواثق والمتوكل (وهم خلفاء عباسيون جاؤوا ولاءً بعد المأمون) كانوا إذا بنى أحدهم قصرًا، أو غيره من المباني أمر الشعراء أن يعملوا فيه شعراً، من ذلك قول علي بن الجهم في قصر الجعفرّي الذي للمتوكل:

وما زلتُ أسمعُ أن الملو ... كَ تبني على قَدَرِ أقدارها
وأعلمُ أن عقول الرجا ... لٍ يقضى عليها بآثارها

فلَمَّا رأينا بناء الإِما ... م رأينا الخلافة في دارها
بدائع لم ترها فارسٌ ولا الروم في طول أعمارها!
فقصر الجعفري - يقول الشاعر - يصور عظمة الخليفة الكبير، وهو
مبنى يزيد في فخامته على ما صنع الفرس والروم معًا.
وهذا الخبر الذي أورده ياقوت يكشف عن سبب مهم من أسباب كثرة
أوصاف المباني والقصور والجسور والمصانع والحدائق، وغيرها في
دواوين الشعراء العباسيين في القرن الثالث وما وراءه.
ويَنفَصِلُ عن هذه القصائد المهمة في التاريخ الفني والاجتماعي جانب
طريف يمكن التقاط أشعاره وأخباره من ثنايا كتب الأدب والشعر والتاريخ
والجغرافية والتراجم والرحلات، وهو كتابة الأشعار على الجدران
والأبواب من الداخل ومن الخارج، وعلى مواضع أخرى بارزة.
وأخبر لسان الدين بن الخطيب أن الأمير النصري أبا الحجاج يوسف^(٦)
أمره بنظم قصيدة يصف فيها الشروع ببناء القصر الكبير في غرناطة، وكان
الأمير قد جلب الرّخام، وبرز الناس إلى مشاهدتها تساق على الأعجال^(٧).
قال: وكان بروزًا فخماً^(٨):

ولَمَّا استتمَّ بناء العُلا وأُحرزَ شأو الجلالِ البعيدِ

(٦) أبو الحجاج يوسف بن إسماعيل بن فرج ولد ٧١٨هـ، وتولى السلطنة سنة ٧٣٣هـ،
وتوفي غيلة سنة ٧٤٥هـ. وقد تدرّج لسان الدين بن الخطيب في خدمة الديوان، في
الكتابة، ثم تولى مهمة مساعدة أستاذه الكاتب الوزير ابن الجياب. وفي أيام (يوسف)
بنيت المدرسة الكبرى في غرناطة، وكان حاكمًا بارعًا محبًا للعمران، ومن آثاره قسم
كبير من قصر الحمراء. (نهاية الأندلس لمحمد عبد الله عنان: ١١٤، واللمحة البدرية
لابن الخطيب: ٨٤).

(٧) الأعجال: العربات التي تجرها البغال وغيرها.

(٨) الصيب والجهم: ٤٠٠-٤٠١.

وأيقن أن لم يدع غايةً لراج ولا موضعاً للمزيد
 وأنّ الديار جُسوم الجُسوم تولّى إقامة قصرٍ مَشِيدٍ
 تجير أعظمه مرمراً وجاءوا بكلّ قويٍّ شديد...
 (٢)

وأكثر ما تُكتبُ عليه الأشعار:

- الجُدران فإنها صالحة للكتابة وإن طالت الأبيات، قابلة للبقاء ما بقي
 الجدار ماثلاً، ظاهرة للناس كما كان يشتهي ناظمها.

- والجدران تكون جدران القصور من الداخل ومن الخارج، وجدران
 البيوت في الدور، وجدران الفنادق، إن كان هناك مناسبة، وجدران
 السجون للشعراء الذين دخلوها ونظموا الشعر فيها، فقد وجد
 بخط (صُرغتمش) في سجن إسكندرية^(٩):

أبدأً تستردُّ ما تَهَبُّ الدُّنْ ... يا، فيا ليتَ جُودَها كان بُخلًا!
 - وقد يكتب الناظم على جذع شجرة، أو غصنٍ وافٍ منها، قال
 المبرد: قرأت على شجرةٍ بشعب بَوَّان^(١٠):

إذا أشرفَ المحزون من رأسٍ تلعةٍ على شعب بَوَّان استراح من الكَرْبِ
 وألهاه بَطْنٌ كالحريرة مَسَّه ومُطَرَّدٌ يجري من الباردِ العذبِ
 وطيبٌ ثمارٍ في رياضٍ أريضةٍ على قرب أغصانٍ جناها على قُربِ^(١١)
 فبالله يا ريح الجنوب تحملي إلى أهل بغدادٍ سلامَ فتى صَبٍّ!
 - وقد يكتب الشعر على النسيج،

(٩) الذيل التام على دول الإسلام - للسخاوي - (حوادث ٧٢٥ - ٨٥٠).

(١٠) نقله ياقوت في معجم البلدان (صادر) ١: ٥٠٤.

(١١) من أرضت الأرض: زكت وكثُر عُشْبُها، وحُسِنَ مَرَاها.

- ويكتب على الخشب،

- ويكتب على الرُخام، وغيره مما يوجد من أنواع الأحجار.

ومن الشعر الذي كُتب على النسيج ما نظمه أبو الحسن الكسبي البيروتي على ستار روايته التي سماها: حكمة الأفكار، فقد قال^(١٢):

يا أيها القوم الذين بهم غداً هذا المكان مُكَلَّلاً بِبوقارِ
إنِّي أتيت لكم بحُسن روايةٍ أهدت عيونَ الدَّرِّ للأبكارِ
سميتها من بعد ما اتَّعظت بها نفسُ الزمان بحكمة الأفكارِ
قد كنتُ قبلاً بالضمير حجبُها فأبت، ولاحت من وراء ستارِ

وكتابة الأشعار على الجدران وغيرها تكون عادةً برغبة صاحب الدار أو القصر أو المحلة لأغراضٍ مختلفة، فإذا كانت في الأماكن العامة فهي تابعة لظروفها، ويكثر أن تكون تطوعاً من الناظم لغرضٍ يريده، أو حادثة يسجلها، أو موقفٍ يُثبته.. إلى غير ذلك.

ومن الطريف أن تطلب إدارة مؤسسة رسمية من أحد الشعراء نظم قصيدة تُثبت في قاعة كبرى؛ وذلك تبيهاً لأهمية المكان والمهمة التي يؤدّيها، واعتزازاً، فقد اقترحت الحكومة المصرية على الشاعر نجيب الحداد^(١٣)، نظم أبيات تُرسم على محطة القاهرة الجديدة^(١٤):

يا حُسن عصرٍ بعبّاس العُلا ابتسما حتّى الحديدُ غداً ثغراً له وفما^(١٥)

(١٢) ديوان أبي الحسن الكسبي: ترجمان الأفكار: ١٦٧، وهو شاعر بيروتي من القرن التاسع عشر، له دواوين وكتب أخرى.

(١٣) ديوان: تذاكر الصبا: لنجيب الحداد: ٥٩.

(١٤) تعرف باسم: «محطة مصر»، وهذا هو التعبير الشائع عن: «محطة القاهرة».

وقد نبهني بعض من حكّم هذا البحث على أنّ الحكومة المصرية أجرت مسابقة لذلك فاز فيها نجيب حداد بهذه الأبيات، وقد ذكرت ذلك مجلة (الزهور).

(١٥) هو الخديوي عباس أحد أفراد أسرة محمد علي باشا.

طرائقٌ في ضواحي القطرِ تبلغنا أقصى البلاد، ولم نُنْقَلْ بها قَدما
 مصرٌ كصفحة قرطاسٍ بُتْرِبتْها غدا القطارُ عليها الخطَّ والقلم^(١٦)
 أرضٌ بها كان خصب النّيل منتشراً حتّى أتاها قطار النّارِ فانتظما^(١٧)
 لنا غنى عن قطار السحب منسجماً ولا غنى عن قطار النار مضطرباً^(١٨)
 يجري بها الرزق في جسم البلاد كما يجري دَمٌ في عروق الجسم منتظماً^(١٩)
 محطةٌ هي قلبٌ، والخطوط بدتْ مثل الشرايين فيها والقطار دمًا
 مع السّلامة يا مَنْ سار مُرتحلاً عنّا، وأهلاً وسهلاً بالذي قَدما^(٢٠)

والخبر يوضح انتباه الناس آنذاك إلى أهميّة الشعر وجماليته، ووظيفته الجماليّة، والإداريّة والإعلاميّة.

(٣)

وُثِّبَتِ الأشعار على الجدران، وما يشبهها:

- كتابةً بالأقلام المناسبة للموقع، وهي أقلام مختلفة تفنن الخطاطون والنقاشون في استخدامها.

- ونقشاً بالإزميل وما يشبهه من أدوات النقش الملائمة للمنقوش عليه.

- وتجيء نافرة الحروف بارزة، ولكي تبرز يُفرغ ما حولها بصنعة فنية دقيقة.

- وتكون أحياناً مثبتةً إثباتاً في مواضعها، لأنها تُصنَعُ قبلاً موافقةً لمكان وضعها مثل الكتابة بالذهب والفضّة وغيرهما.

(١٦) الصورة حسنة، مبتكرة.

(١٧) القطار البخاري.

(١٨) القطار الأولى: المطر. يقول: إنّ كان النيل يغني عن المطر فلا غنى عن قطار الحديد.

(١٩) التشبيه حسن.

(٢٠) في البيت طرافة، وفيه روح المصريّين دعابةً ولطافةً، (والشاعر لبناني نزيل مصر).

ونضرب مثلاً لهذه الفقرة، فقد قال عليُّ بن الجهم^(٢١): «رأيت في صدر قبةٍ مكتوبًا بألوان فصوص منضدة:

لا تُطْمِعِ النَّفْسَ بالسُّلُوِّ إِذَا أَحْيَيْتَ حَتَّى تُذْيِبَهَا كَمَدَا
من لم يذق لوعة الصُّدُودِ ولم يصبرْ على الذِّلِّ والشَّقَا أَبَدَا
فذاك مستطرف الفؤاد يرى في كلِّ يوم أحبابه جُدُدا!!»
- وقد تُنقَشُ الأشعار بأسلوب آخر ذكره الوشاء^(٢٢)؛ فقد قال: «قرأتُ

على باب دارٍ خدشاً في الجِصِّ بَعُودٍ:
هَلَّا رَحِمْتُمْ مَوْقِفِي بِفَنَائِكُمْ مَتَعَرَّضًا لِنَسِيمِكُمْ أَتَشْتَقُّ
متلدِّداً أبكي لما قد حلَّ بي مثل الغريق بما يرى يتعلَّقُ»
ونقل ابن عبد ربه في العقد^(٢٣):

«رأيت في جدارٍ من جُدُرِ بيت المقدس بيتين مكتوبين بالذهب:
وَكُلُّ مُقِلٍّ حِينَ يَغْدُو لِحَاجَةٍ إِلَى كُلِّ مَنْ يَلْقَى مِنَ النَّاسِ مَذْنُبٌ
وكان بنو عمِّي يقولون: مرحباً فلما رأوني مُقْتَرِئاً بان «مَرْحَبٌ»
وهذا يحتمل الكتابة بماء الذهب، وتفرغ المكتوب من رقائق الذهب
وتثبيتها.

والشعر المكتوب يكون أحياناً معروف القائل، ويكون أحياناً مرسلاً، نسي
التاريخ اسم الشاعر لأسباب مختلفة. والشعر المجهول القائل في ما يكتب على
الجدران كثير، وأضرب مثلاً من معجم البلدان، فقد أورد ياقوت في
معجمه^(٢٤) خبرين متواليين، قال: «وُجِدَ على بعض الأميال بطريق مكة مكتوباً:

(٢١) الموشى: ٢٧٠. وعلي بن الجهم هو الشاعر العباسي المشهور.

(٢٢) الموشى: ٢٧١.

(٢٣) العقد ٣: ٣٥.

(٢٤) معجم البلدان ١: ٤٦٢.

أيا بغداد يا أسفي عليك متى يُقضى الرجوع لنا إليك؟
 فنحيا^(٢٥) سالمين بكل خيرٍ وينعمُ عيشنا في جانبك
 ووُجد على حائط بجزيرة قبرص مكتوبًا:
 فهل نحو بغداد مزارٌ فيلتقي مشوقٌ ويحظى بالزيارة زائرٌ؟
 إلى الله أشكو لا إلى الناس إنه على كشف ما ألقى من الهم قادرٌ
 وقد يكون ناظم الشعر المكتوب أو المنقوش هو نفسه صاحب الموقع
 الذي زُين بالشعر، ومن هؤلاء لسان الدين بن الخطيب فقد قال^(٢٦):

وكتبت لينقش على طاقٍ لنا بباب القبة (وتثبت أختها بباب السين)
 أنا طاقٌ تزهى بي الأيامُ تعبتُ في بدائي الأفهامِ
 وتبدّيت للنواظر محرا ... بأكأنّ الإناء في إمامٍ
 واقف للصلاة حتى إذا ما جئت للشرب حان مني السلامُ
 ووصف لسان الدين بن الخطيب قبة اتخذت له مبنية على الماء في
 قطعة قال فيها^(٢٧):

إذا نمتَ نمّ للأمر فوق سريرٍ وإن قمتَ قُم في غبطة وسرورٍ
 ودونك فاستغرب على الماء موقفي كما وقف ابنُ الماء وسط غديرٍ!

(٤)

ولما مال الشعراء، بنظرٍ منهم، أو برغبة من صاحب البناء ومشيدّه إلى
 تسجيل المعلومات المختلفة شعراً، ضمنوا القطع (أو القصائد) التي
 نظموها ما يريدون إثباته من الثناء والإشادة والدعاء وما شابه ذلك، ثم

(٢٥) في المطبوع: «منعنا»، ولم أجد لها معنىً مناسباً، واقترحت مؤقتاً: فنحيا.

(٢٦) الصيّب والجهم والماضي والكهام: ٥٨٤.

(٢٧) الصيّب والجهم (ديوان لسان الدين): ٥٤٦.

أضافوا التاريخ شعراً بحساب الجُمَل.

وكثر هذا مع عصر المماليك، واستمر بعدهم إلى العصر الحديث. ومعروف أن حساب الجُمَل باختصار: «نوع من الحساب يُجْعَلُ فيه لكل حرف من الحروف الأبجدية عدد (رقم) من الواحد إلى الألف على ترتيب خاص، وهو: «أبجد هوّز حطي كلمن سعفص قرشت ثخذ ضظغ»^(٢٨). فالألف واحد والباء اثنان والجيم ثلاثة...، والياء عشرة، والقاف مئة، والغين ألف؛ أي: يستمر العدد من واحد إلى عشرة، ثم من عشرين إلى مئة، ثم من مئة إلى ألف.

وصار التأريخ بالشعر ظاهرة تشمل ما يكتب على المباني والمساجد والدُّور والقصور والقناطر والقيساريّات والقباب والزوايا والرّبط والغرف داخل القصور، على وجوه شتى من النقش والكتابة والتلوين، وانتقل إلى شواهد الشواهد، فأرخوا الوفيات بالشعر.

والحُروف التي يُعتدّ بها من القطعة هي من العبارة أو العبارات التي تتلو كلمة (أَرخ) وما شابهها من كلمات. وأضرب لهذا مثلاً، فقد قال أبو الحسن الكسّبي لما تجدد مَسْجِدُ «المجنّوب» في بيروت: قلت مؤرّخاً عن لسان حاله^(٢٩):

إِنَّ مَنْ سَعَى لِتَجْدِيدِ وَضْعِي وَبِهِ يَرْتَجَى عُمُومُ الثَّوَابِ
بَشَّرُوهُ عَنِّي بِخَيْرٍ جَزِيلٍ جَاءَ تَارِيخُهُ: «بِغَيْرِ حِسَابٍ»

- والتاريخ هو: ١٢٨٣هـ.

ومن أشعار التأريخ في جامع الدرويشية (بدمشق) ما كتب (أو نقش)

(٢٨) المعجم الوسيط (ج م ل).

(٢٩) مرآة الغريبة: ١٨.

على بركة ماء في حائطه الشمالي، في صدرها^(٣٠):

هذا سبيلٌ بل سلسيلٌ يُخيي عليلاً يشفي غليلاً
وزمزم الماء منه يجري عند مقام حوى خليلاً
أجراه أجراً فأرَّخوه: «درويش باشا بنى سيلاً»

- والتاريخ هو: سبع وثمانون وتسع مئة هجرية.

ولا يخلو هذا الموضوع من طرائف تروى.

(٥)

وقد يثير نصّ جداريّ سجّالاً بين شاعرين لم يلتقيا، وإنّما حرّك السّجال ما كتبه الأول وتأثر به الثاني، أو استثاره؛ ومن ذلك ما نقله لسان الدين بن الخطيب، قال^(٣١):

«في بعض أيام الفتنة تهدمت قصور بمراكش، ومَرَّ أبو الحسن علي بن لُبّ بن محمد بن سعيد العنسي الأندلسي^(٣٢) ببعض القصور الخربة، فوجد مكتوباً بالفحم على بعض جدرانها المتهدمة:

ولقد مررتُ على رسوم ديارهم فبكيّتها والرُّبع قاعٌ صفصفُ
وذكرتُ مجرى الحُور في عَرَصاتهم فعلمت أنّ الدهر منهم منصفُ!

فتناول أبو الحسن بياضاً من بقية جيّار، وكتب تحت ذلك الشعر:

لهفي عليهم بعدهم فمثالهم بالله قل لي في الروى هل يُخلفُ؟
من ذا يجيب منادياً بوسيلة أم من يجير من الزمانِ ويعطفُ؟
إنّ جارَ فيهم واحد من جملة كم كان فيهم من كريمٍ ينصفُ!

(٣٠) منادمة الأطلال ومسامرة الخيال: ٣٧٧.

(٣١) الإحاطة في أخبار غرناطة ٤: ٧٣.

(٣٢) توفي: ٦٢٧هـ.

- وفي نفح الطيب خبر طريف قال فيه:

«خرج ثلاثة أدباء للنزهة^(٣٣) خارج مُرسية^(٣٤)، وصلّوا خلف إمام
بمسجد قرية، فأخطأ في قراءته، وسَهَا في صلاته! فلما خرج أحدهم كتب
على حائط المسجد:

يا خَجَلْتِي لِصَلَاةٍ صَلَّيْتُهَا خَلْفَ خَلْفٍ^(٣٥)

فلما خرج الثاني كتب تحته:

أَغْضُ مِنْهَا حَيَاءً مِنْ الْمُهَيِّمِنِ طَرْفِي

فلما خرج الثالث كتب تحته:

فَلَيْسَ تُقْبَلُ مِنَّا لَوْ أَنَّهَا أَلْفُ أَلْفٍ!

وقد تجيء نصوص الأشعار التي تُثبت على الجدران وما شابهها وليدة
ظروف خاصة، هي وقائع تمت لأصحابها، وتبدو لنا أحداثاً كأنها وليدة
المصادفات.

وفي مادة (أَرْتَخْشَمِشْن) في معجم ياقوت^(٣٦) خبر طريف جرى
لياقوت هناك. فقد وصل إلى هذه المدينة بعد شدائد لقيها من شدة البرد
وجمود الماء في نهر جيحون الذي كان يركب سفينة فيه، قال: «وقد أيقنت
أنا ومن في صحبتي بالعطب، إلى أن فرّج الله علينا بالصعود إلى البرّ (سنة
٦١٦هـ)، فكان من البرد والثلوج في البرّ ما لا يبلغ القول إلى وصف
حقيقته، وعَدَم الظَّهَر الذي يُركب، فوصلتُ إلى هذه المدينة بعد شدائد،
فكتبت على حائط خانٍ سكنته إلى أن تيسّر المضيّ إلى الجُرْجانية:

(٣٣) نفح الطيب ٤: ١٨.

(٣٤) مُرسية: من مدن شرقي الأندلس.

(٣٥) الخَلْف: الولد الطالح، الرديء.

(٣٦) معجم البلدان ١: ١٤٢.

ذمنا رخشميشن إذ حللنا بساحتها لشدة ما لقينا^(٣٧)
 أتيناها ونحن ذوو يسار فعدنا للشقاوة مفلسينا
 فكم برّداً لقيت بلا سلام وكم ذلاً وخسراناً مبينا
 وثلجاً تقطر العينان منه وحلاً يعجز الفيل المتينا
 وكالأنعام أهلاً في كلام وفي سمّت، وأفعالاً ودينا
 إذا خاطبتهم قالوا «بغساً» وكم من غصة قد جرّعوننا^(٣٨)
 فأخرجنا أيا ربّاه منها فإن عُدنا فإننا ظالمونا
 وليس الشأن في هذا ولكن عجيب أن نجونا سالمينا
 ولست بيأس والله أرجو بعيد العسر من يسر يلينا^(٣٩)
 - وأثبت لسان الدين بن الخطيب في ديوانه^(٤٠) قصيدة من عشرة أبيات
 قال في مقدمتها: «قلت وقد حلت في بعض التوجهات بمدينة سبتة،
 وكتبها في حائط القصر:
 يا سبتة العزيزين الألى درجوا وقد تضرّع من أخبارهم أرج^(٤١)

(٣٧) تبه ياقوت إلى أنه اختصر اسم المدينة ليوافق كلامه وزن الشعر.

(٣٨) كذا فيه «بغساً» لفظة يقولونها في كلامهم، وقابلها لفظاً وصوتاً بكلمة غصة.

(٣٩) قال ياقوت بعد الشعر «قال هذه الأبيات وسطّرها على ركاكتها وغلثتها لأن الخاطر لصدئه لم يسمح بغيرها... وقد لاقى (ناظمها) العبر في وعثاء السفر يخفي نفسه عفاً ويسأل الناس كفاً، وكتب في شوال سنة ٦١٦هـ. وإلا «فالبلد وأهله بالمدح أولى وبالتقريب أحق وأحرى».

- قلت في أصل ياقوت: «لأن الخاطر لصده.. ولينال الناس كفاً» وقرأتها كما سبق أن أثبت.

(٤٠) الصيب والجهم والماضي والكهام: ٣٥٥.

(٤١) سبتة: مدينة مغربية مطلّة على البحر، وعلى القسم الجنوبي من جزيرة الأندلس، والعزفيون (أو بنو العزفي) أسرة كان لهم حكم وتاريخ في المدينة.

(7)

يا حُسْنَهُ مِنْ سُلْسَبِيٍّ	لِ قَدْ سَمَا فِي رُتَبُهُ
إِذْ إِنَّهُ عَنْ رُوحٍ مَنْ	خُلِقَ الْوَرَى بِسَبَبِهِ
(طه) الَّذِي مَا إِنْ يَصِلُ	مُقَرَّبُ لِقُرْبِهِ
مَنْ عَمَّنَا إِمْدَادُهُ	فَحَقَّ أَنْ يَمُنَّ بِهِ
وَمَنْ هَدَانَا سَبِيلًا	هِيَ الْهُدَى لِلْمُتَبِّهِ
وَمَنْ أَزَاخَ نُورُهُ	كُلَّ ظَلَامٍ مُشْتَبِهِ

- وفى النص شيء من المديح النبويّ، بمناسبة افتتاح هذا السبيل.

ومن جميع الأنبياء نرْجُو هباتِ سُحْبِهِ
 غَوْتُ الْوَرَى فِي مَوْقِفِ الْ حَسَابِ مُجْلِي كَرِبِهِ^(٤٣)
 فَلَذِبُهُ وَلَا تَحْدُ عَنْهُ وَلَا عَنْ طَلِبِهِ
 فَإِنَّ مَنْ لَا ذِبَّهُ نَالِ جَمِيعِ أَرِبِهِ
 وَاشْرَبَ زَلالاً سَائِغاً صَيِغَتِ لآلِي حَبِيبِهِ
 وَاسْتَشْفَى فِيهِ فَالشِّفَا مَمَّنْ جَزَى بِسَبِيبِهِ
 وَدُونِكَ التَّارِيخُ فِي بَيْتِ عَلا فِي أَدَبِهِ
 صَلَّى عَلَيْهِ اللَّهُ مَا قَدْ طَابَ وَرْدُ مَشْرَبِهِ

والنص - في ما اطلعتُ عليه من نصوص السُّبُل في دمشق وغيرها - فريدٌ فيما صنع واقفو تلك السبيل؛ فقد بناه واقفه وأجرى مائه «عن روح رسول الله ﷺ». والنص من الفترة العثمانية، مجهول الناظم، مؤرخ بسنة ١٢١٦هـ.

وقد جمع الشاعر الناظم في قصيدته (القصيرة) بين:

- وصف السبيل الذي أتقن المعماري صنعه، وزخرفته.
- ووقفه للناس بحبه لرسول الله ﷺ.
- والاسترسال إلى مدح رسول الله، وتكريمه وذكر شيء من خصاله، وفضائله.
- ودعوة مرتاد السبيل، والمارِّ به إلى اتباع سُنَّة رسول الله ﷺ.
- وإباحة الاستفادة من ماء السبيل: على الوجوه المختلفة التي يحتاج قاصد السبيل إليها.
- ثم زاد فنبّه الوارد على السبيل على الاستشفاء بماء السبيل؛ لأنه مكرَّم بإنشائه عن روح النبي الكريم.

وفي الأشعار المنقوشة على الجدران قصائد وقطع وأبيات نظمها كبار شعراء غرناطة في القرن الثامن الهجري فيهم: لسان الدين بن الخطيب، وابن زُمرَك.

لقد تزيّنت قاعات، وأقواس، ونوافذ، ومداخل أبواب، ومصانع مختلفة داخل قصر الحمراء وخارجة؛ وهي نقوش بعضها نافر وبعضها غائر، وقد جاءت تنمة مكملة لروعة البناء الذي اجتمع فيه الفن المعماري الأندلسي وسائر الفنون والعلوم، وخاصة نظام المياه الواردة إليه باردة (من الينابيع) وحارة من الحمّات، وبعضها أدنى مستوى من أرضية قصر الحمراء. لقد كان البنيان بكل ما فيه من هندسات مختلفة من عطاء عبقرية أهل الأندلس وتفوّقهم الحضاري.

ونقف عند فناء الأسود (أو باحة الأسود)^(٤٤)، وهو يُعدّ بطرازه المصقول، وقبابه المضلّعة، وأعمدته الرشيقة، وزخارفه البديعة، وناפורته الفريدة التي تحملها الأسود أروع أجنحة الحمراء، وأوفرها رُواءً وسحرًا، وهو فناء مستطيل مكشوف، طوله خمسة وثلاثون مترًا وعرضه عشرون، تحيط به من الجوانب الأربعة مشرفيات أو أروقة ذات عقود تحملها مئة وأربعة وعشرون عمودًا من الرخام الأبيض، صغيرة الحجم، متناهية في الجمال والرشاقة، وعليها أربع قباب مضلّعة، تقع كلّ واحدة منها وسط ضلع من أضلاع المستطيل: اثنتان منها تتقابلان شرقًا وغربًا؛ والأخريان تتقابلان شمالًا وجنوبًا. وهي متماثلة الصنع والزخرف كأنّها رواشن. ويحمل كل واحدة منها عدد متماثل من الأعمدة. وفي وسط الفناء نافورة الأسود الشهيرة... وفي فناء الأسود طائفة من النقوش التي كتبت بخط النسخ أو الكوفي الجميل على الجدران والأعمدة..

(٤٤) الآثار الأندلسية الباقية في إسبانيا والبرتغال: محمد عبد الله عنان: ١٩٩ وما بعدها.

وُنُقِشت عبارات تبين عمل السلطان الغني بالله في قصر الحمراء،
وُنُقِشت كثيرًا عبارة «ولا غالب إلا الله»، وكانت شعار دولة غرناطة. وُنُقِشت
أدعية كثيرة.

وُنُقِشت قصيدة رائعة فوق دائرة صحن النوفرة التي تحملها الأسود
تضم اثني عشر بيتًا، من نظم الوزير الكاتب ابن زمرك^(٤٥)، وهي أبيات
وردت في قصيدته في وصف (الحمراء) قال:

تبارك من أعطى الإمام محمدًا	مغاني زانت بالجمال المغانيا
وإلا فهذا الروض فيه بدائع	أبى الله أن يلقي لها الحسن ثانيا
ومنحوتة من لؤلؤ شق نورها	تحلى بمرفض الجمان التواغيا
يذوب لجين سال بين جواهر	غدا مثلها في الحسن أبيض صافيا
ألم تر أن الماء يجري بصفحتها	ولكنها مدت عليه المجاريا
كمثل محب فاض بالدمع جفنه	وغص بذاك الدمع إذ خاف واشيا
وهل هي في التحقيق غير غمامة	تفيض إلى الآساد منها السواقيا؟
وقد أشبهت كف الخليفة إذ غدت	تفيض إلى أسد الجهاد الأياديا
فيا من رأى الآساد وهي روابض	عداها الحيا عن أن تكون عواديا
ويا وارث الأنصار لاعن كلاله	تراث جلال يستخف الرواسيا ^(٤٦)
عليك سلام الله فاسلم مخلصًا	تجدد أعيادًا وتبلي أعاديا!

وقد يجعل الشاعر الأبيات على لسان القصر نفسه أو قاعة من قاعاته كالذي

نجدته في جانب العقد الأيمن من بهو السفراء، وفي هذه الأبيات^(٤٧):

(٤٥) أبو عبد الله محمد بن يوسف بن زمرك (توفي ٧٩٥هـ).

(٤٦) قال فيه: وارث الأنصار؛ لأن الممدوح الغني بالله، هو من نسل الصحابي سعد بن عبادة الأنصاري.

(٤٧) الآثار الباقية: ١٩٠-١٩١.

فقتُ الحسان بحليتي وبتاجي وهوت إليَّ الشهب في الأبراج
يبدو إناء الماء في كعابدٍ في قبلة المحراب قام يُناجي
ضمنت على مر الزمان مكارمي ريَّ الأوامِ وحاجة المحتاج
فكأنني استقربت آثار الندى من كفّ مولانا أبي الحجاج
لا زال بدرًا في سمائي لائحًا ما لاح بدر في الظلام الداجي!

(٧)

هذه النصوص الشعرية التي تثبت على الجدران، وعلى كل شيء يمكن إثبات الكتابة عليه هي نتاج مشترك المقاصد: هي تحلية وتسجيل ومشاركة من الشعراء في عادة اجتماعية طريفة.

- في بعض هذه النصوص إثبات حال، وتسجيل موقف فيه خصوصية تامة، لكن الناظم الشاعر أراد أن يعرض ما خطر له على كل مجتاز بمكان الكتابة. ومن ذلك ما أخبر به لسان الدين بن الخطيب عن نفسه، أنه لما اجتاز على مدينة (سبتة) كتب في بعض الحيطان^(٤٨):

أقمنا برهةً ثم ارتحلنا كذاك الدهر حالٌ بعد حالٍ
وكلّ بدايةٍ فالى انتهاءً وكلّ إقامةٍ فالى ارتحالٍ
ومن سام الزمان بقاء أمرٍ فقد وقف الرجاء على المُحال!
وفي الشعر عبرة من عبر الحياة، ولفتة إنسانية أوردتها على الخاطر:
الحلّ والارتحال.

- وفي أغراض كتابة الشعر على الجدران التأريخ، ومنه التأريخ

(٤٨) الإحاطة في أخبار غرناطة ٤: ٥٢٥.

- قلت الأصل في البيت الأول: «كذلك الدهر» وفي الثالث: «بعام أمر» وقد صوّبته كما ترى.

بحساب الجُمْل، وينطوي الشعر أحياناً على اسم صاحب العلاقة.
 - وفي هذه النصوص الشعرية المنقوشة على الجدران ما يثبت حالاً تاريخية كبيرة، ومشاركة للشعر في جماليات المبنى المشيد.
 وأروع ما قرأتُ في هذا الباب ما نظمه شعراء الأندلس من عصر غرناطة على معالمهم الحضارية، وخصوصاً ما نقش من الشعر في قصر الحمراء: أبهائه وغرفه وأطراف أبوابه ونوافذه وأعمدته..
 إلخ. وترى الآن تلك الأشعار ماثلةً مع بقايا القصر العظيم دالةً على جوانب من الحضارة... وفيها هذا الشعر الخالد.

- ويختلط في بعض ما نُقش على جوانب كثيرة من (الحمراء): وصف المشهد ومدح الباني، ومن ذلك هذه القطعة^(٤٩)، وفيها مدح للغني بالله:
 فيا ابن العلا والحلم والبأس والندى ومن فاق آثار النجوم إذا انتمى
 طلعت بأفق الملك للناس رحمةً لتجلو ما قد كان بالظلم أظلماً
 فإن رعشت زهر النوم فخيفةً وإن مال غصن البان شكرك يَمما
 وقد يكون المكتوب من الشعر على الجدران وصفاً شخصياً لحال الناظم وتسجيلاً لظرفٍ طارئٍ وقع له، وفي خبرٍ أنه وجد على حائطٍ محبس ابن العميد بعد قتله هذان البيتان^(٥٠):

ملك شد لي عُرا الميثاق بأمانٍ قد سار في الآفاق
 لم يحلُ رأيه ولكنّ دهري حال عن رأيه فشدّ وثاقي!
 - وكتابة الأشعار على الجدران في البيوت والدور والمعاهد والمباني العامة وغير ذلك تفيد الزخرفة والتزيين. وكان النقاشون

(٤٩) الآثار الأندلسية الباقية: ١٩٤.

(٥٠) الوافي بالوفيات ٢٤: ٤٢٦.

والخطّاطون يتفنّنون في كتابة تلك الأشعار بأنواع مناسبة من أشكال الخط العربي.

وهذه النصوص المكتوبة على الجدران، وما شابهها هي نصوص أدبية: تجيء مختصرة محدودة الأبيات، وهذا كثير، وتجيء متأنية مطولة بين قطعة وقصيدة.

وهي تابعة للإبداع الأدبي: فيها خصائص المقطوعات من الأشعار، وفيها أيضاً خصائص القصائد. ويغلب على هذه النصوص: السهولة، والوضوح، والتوثيقية، والإحساس بملامح الجمال.

ويضاف إلى مهمة التزيين والزخرفة في هذه الأشعار: التأريخ والإشادة بالباني، والمدح حين يقتضي الأمر ذلك.

وحين يطول النصّ يصبح كنصوص الأشعار الأخرى في ديوان الشاعر (تخرج عن كونها من شعر المناسبات) كالذي قرأناه في قصيدة نجيب الحداد وقصيدة ابن زمرّك.

هذه الأشعار نصوص أدبية كثيرة اخترقت الزّمان، وثبتت على الجدران ثباتها في كتب الأدب والتاريخ والآثار وغيرها، وهي تلوين أدبيّ فنيّ له خصائصه، مثلما ثبتت له أحواله الدّاعية إلى إبداعه وظروفه.

* * *

المصادر والمراجع

- الإحاطة في أخبار غرناطة - لسان الدين بن الخطيب - تحقيق محمد عبد الله عنان - مكتبة الخانجي - القاهرة - الطبعة الأولى.
- الآثار الأندلسية الباقية - محمد عبد الله عنان - مكتبة الخانجي - القاهرة - الطبعة الأولى.
- تاريخ بغداد - الخطيب البغدادي - مكتبة الخانجي - القاهرة - ١٣٤٩هـ - ١٩٣١م.
- تذكار الصبا - نجيب الحداد - بيروت الطبعة الأولى.
- التذييل العام على دول الإسلام للسخاوي - (حوادث ٧٤٥-٧٥٠هـ).
- ترجمان الأفكار - لأبي الحسن الكستي البيروتي - (ديوان شعر) - بيروت - الطبعة الأولى.
- الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة - ابن بسام الشنتريني - تحقيق د. إحسان عباس - دار صادر - الطبعة الأولى.
- السبل في مدينة دمشق - تأليف: أحمد فرزة طرقي ومطر خشان - الناشر: الجمعية التعاونية للطباعة - دمشق - ٢٠٠٥م.
- الصيب والجهام والماضي والكهام - لسان الدين بن الخطيب - الجزائر - الطبعة الأولى.
- عيون الأخبار - ابن قتيبة - دار الكتب المصرية - القاهرة - الطبعة الأولى.

- العقد الفريد - ابن عبد ربه - لجنة التأليف والترجمة والنشر - القاهرة - الطبعة الأولى.
- اللوحة البدرية في الدولة النصرية - لسان الدين بن الخطيب - المطبعة السلفية - القاهرة - الطبعة الأولى.
- الموشى - الوشاء: أبو الطيب محمد بن أحمد - تحقيق مصطفى كمال - القاهرة ١٣٢٤ هـ - الطبعة الثانية.
- معجم البلدان - ياقوت الحموي - دار صادر - بيروت - الطبعة الثانية - ١٩٩٥ م.
- المحاسن والأضداد - الجاحظ - مكتبة الخانجي - القاهرة.
- مرآة الغريبة - (ديوان شعر) - لأبي الحسن الكسبي البيروتي - بيروت - الطبعة الأولى.
- منادمة الأطلال ومسائرة الخيال - عبد القادر بدران - المكتب الإسلامي - دمشق - الطبعة الثانية.
- نفح الطيب - المقرئ - تحقيق د. إحسان عباس - دار صادر - بيروت - الطبعة الأولى.
- نهاية الأندلس - محمد عبد الله عنان - القاهرة - الخانجي - الطبعة الأولى.
- الوافي بالوفيات - الصفدي - نشر لجنة المستشرقين الألمانية - (النشريات الإسلامية) - جزء ٢٤
- يوميات شامية - (الحوادث اليومية من تاريخ أحد عشر وألف ومئة) - محمد بن كمال الصالحى - تحقيق أكرم العلي - دار الطباع - دمشق - الطبعة الأولى.

- يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر - الثعالبي - تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد - المكتبة التجارية - القاهرة - الطبعة الأولى.

* * *

التلّفيق في شواهد النّحو الشعريّة

أ. د. سالم شرابي (*)

مقدمة:

تعدّ الشّواهد الشعريّة النّحويّة من أهمّ الأصول التي بنى عليها النّحاة قواعدهم لما يتميّز به الشّعر من سهولة حفظ، وفصاحة تركيب في أغلب الأحيان، وقد لقيت هذه الشّواهد اهتمامًا بالغًا، فأُلّفت مؤلّفات كثيرة تتناولها بالشرح، والتّفسير، وبيان محلّ الاستشهاد بها، واختلاف رواياتها إنّ رُويت بروايات مختلفة، قديمًا وحديثًا.

غير أنّ الاستشهاد بهذه الشّواهد اعتراه بعض الأحيان خلل تمثّل في تليفيق بيت شاهد من بيتين لشاعر واحد، وأحيانًا من بيتين لشاعرين مختلفين، فيوردون البيت الشّاهد على غير وجهه الذي قيل عليه.

وممّا لا شكّ فيه أنّ تركيب الأبيات وتليفيقها له أسبابه، لأنّ الأصل في الاستشهاد أن يُورد الشّاهد على الوجه الذي قاله صاحبه، وقد يكون له أثره في الاستشهاد النّحويّ، ودلالته على الحكم.

ومسألة التّليفيق في الشّواهد الشعريّة عامّة، والنّحويّة منها على وجه الخصوص ممّا نبّه عليه القدماء والمحدثون، فمن المتقدّمين نذكر تنبيهات

(*) أستاذ محاضر - أ - جامعة البليدة ٢.

ورد إلى مجلة المجمع بتاريخ ٩/٩/٢٠٢٠ م.

الصَّغَانِي فِي (التَّكْمَلَة وَالذَّيْل وَالصَّلَة) فِي اسْتِدْرَاكَاتِهِ عَلَى الْجَوْهَرِيِّ فِي (الصَّحَاحِ)، وَالْبَغْدَادِيِّ فِي (خَزَانَةِ الْأَدَبِ) فِي مَوَاضِعِ مَعْدُودَاتٍ، وَمِنْ الْمُحَدِّثِينَ الَّذِينَ اسْتَفَدَتْ مِنْهُمْ، أَذْكَرُ إِمِيلٍ بَدِيعٍ يَعْقُوبُ فِي مَوْسُوعَتِهِ (شَوَاهِدُ اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ)، فَقَدْ تَبَّهَ عَلَى تَرْكِيبِ الشَّوَاهِدِ فِي مَوَاضِعٍ عَدِيدَةٍ مِنْهَا، كَمَا اسْتَفَدَتْ مِنْ مَلَا حِظَاتٍ بَعْضُ مُحَقِّقِي الْكُتُبِ الَّتِي اعْتَمَدَتْ عَلَيْهَا وَلَا سِيَّمَا التَّحْوِيَّةَ مِنْهَا، خَاصَّةً مُحَقِّقَ (اللَّحْمَةِ فِي شَرْحِ الْمَلْحَةِ).

أَوَّلًا: مَعْنَى التَّلْفِيقِ فِي اللُّغَةِ وَالْإِصْطِلَاحِ:

وَسَأَتَنَاوَلُ فِي مَعْنَاهِ اللَّغَوِيِّ مَا يَتَوَّاهُ مَعَ الْمَعْنَى الْإِصْطِلَاحِيَّ فَقَطْ.
فَالْتَّلْفِيقُ فِي اللُّغَةِ: مُصَدَّرُ الْفِعْلِ (لَفَّقَ)، وَثَلَاثِيَّةُ (لَفَّقَ)، وَ«الْلَامُ وَالْفَاءُ وَالْقَافُ أَصِيلٌ يَدُلُّ عَلَى مُلَاءَمَةِ الْأَمْرِ. يُقَالُ: لَفَّقْتُ الثَّوْبَ بِالثَّوْبِ لَفْقًا. وَهَذَا لِفَقٌ هَذَا، أَيُّ: يُوَأِّمُهُ. وَتَلَفَّقَ أَمْرُهُمْ: تَلَاءَمَ»^(١).
وَجَاءَ فِي اللِّسَانِ: «لَفَّقْتُ الثَّوْبَ أَلْفَقَهُ لَفْقًا: وَهُوَ أَنْ تَضُمَّ شَقَّةً إِلَى أُخْرَى فَتَخِيطَهُمَا. وَلَفَّقَ الشَّقَتَيْنِ يَلْفِقُهُمَا لَفْقًا وَلَفَقَهُمَا: ضَمَّ إِحْدَاهُمَا إِلَى الْأُخْرَى فَخَاطَهُمَا، وَالتَّلْفِيقُ أَعَمُّ»^(٢).

أَمَّا مِنْ جِهَةِ الْإِصْطِلَاحِ الْمَقْصُودِ فِي هَذَا الْبَحْثِ فَهُوَ يَقْتَرِبُ مِنَ الْمَعْنَى اللَّغَوِيِّ، وَهُوَ «ضَمُّ شَطْرٍ بَيْتٍ إِلَى شَطْرٍ بَيْتٍ آخَرَ، وَجَعْلُهُمَا بَيْتًا وَاحِدًا جَدِيدًا»، وَيَعْبَرُ عَنْهُ أَيْضًا بِالتَّرْكِيبِ، وَهُوَ أَمْرٌ شَائِعٌ فِي التَّحْوِ وَغَيْرِهِ.
وَكَانَ الصَّغَانِيُّ يَعْبَرُ عَنْهُ بِمُصْطَلَحِ «الْمُدَاخَلِ»، مِنْ التَّدَاخُلِ، وَمِثَالُهُ قَوْلُهُ^(٣): «وَقَالَ الْجَوْهَرِيُّ: قَالَ الْفَرَزْدَقُ:

(١) مَقَائِيسُ اللُّغَةِ، أَحْمَدُ بْنُ فَارَسٍ: (لَفَّقَ) ٢٧٥/٥.

(٢) لِسَانُ الْعَرَبِ، ابْنُ مَنْظُورٍ، مَادَّةُ (لَفَّقَ): ٣٣٠/١٠.

(٣) التَّكْمَلَةُ وَالذَّيْلُ وَالصَّلَةُ لِلصَّغَانِيِّ: ٢٩/١، وَيَنْظُرُ أَيْضًا: ٢٨٤/١، ٣٢٠، ٣٥٤، ٧١/٣،

فَلَوْ كَانَ هَذَا الْأَمْرُ فِي جَاهِلِيَّةٍ شَنَنْتُ بِهِ أَوْ غَصَّ بِالْمَاءِ شَارِبُهُ
 وَهُوَ إِنْشَادٌ مُدَاخَلٌ، وَالرَّوَايَةُ:
 فَلَوْ كَانَ هَذَا الْأَمْرُ فِي جَاهِلِيَّةٍ عَرَفْتُ مِنَ الْمَوْلَى الْقَلِيلُ حَلَابُهُ
 وَلَوْ كَانَ هَذَا الْأَمْرُ فِي غَيْرِ مُلْكِكُمْ شَنَنْتُ بِهِ أَوْ غَصَّ بِالْمَاءِ شَارِبُهُ
 وَيُرْوَى: لَا دَيْتُهُ أَوْ غَصَّ».

قال البغدادي^(٤): «وتركيب بيت من بيتين ونحوه في الاستشهاد شائع عند المصنفين».

ثانياً: أسباب التلفيق:

يذكر البغدادي أن التلفيق بين بيتين قد يفعله النحويون قصداً، ولذلك في رأيه سببان:

١ - السَّبَبُ الْأَوَّلُ: لاختصار المعنى؛ لأنَّ المعنى يَكُونُ مُتَفَرِّقًا فِي أَبْيَاتٍ^(٥):
 وذلك يعني أنَّ النحويَّ يريد اختصار المعنى المتفرَّق في أبيات عدَّة ليقصر على المعنى الأساس، ويستغني عن المعاني الثانوية، ليجعله في بيت واحد، فيتحقَّق له المعنى العام، ووجه الاستشهاد في بيتٍ واحدٍ عوض المجيء بأبيات عدَّة، إذ الغرض هو موضع الاستشهاد مع المحافظة على المعنى العام.
 وقد ضرب البغدادي للتلفيق في شواهد النحو مثلاً، وهو ما استشهد به كثير من النحويين من قول الجميع الأسدي^(٦):

(٤) خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب، عبد القادر البغدادي: ١٨١ / ٤.

(٥) المرجع السابق، الصفحة نفسها.

(٦) ينظر: شرح كتاب سيويه، أبو سعيد السيرافي الحسن بن عبد الله بن المرزبان: ٩٩ / ٣، واللمع في العربية، أبو الفتح عثمان بن جني الموصلي: ٧٠، والمفصل في صنعة الإعراب، أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد، الزمخشري جار الله: ٣٨٦، والإنصاف في مسائل الخلاف بين النحويين البصريين والكوفيين، أبو البركات عبد الرحمن بن محمد بن =

حَاشَى أَبِي ثَوْبَانَ إِنَّ بِهِ ضِنًّا عَنِ الْمَلْحَاةِ وَالشَّثْمِ
قال ابن يعيش: «هكذا أنشده أبو العباس المبرّد، والسيرافي، وغيرهما
من البصريين. وفيه تخليطٌ من جهة الرواية. وذلك أنه ركب صدره على
عجزٍ غيره»^(٧).

وقال ابن مالك: «كذا أنشده أكثر النحويين»^(٨).

وهو بيت ملفق من بيتين، والأصل^(٩):

حَاشَى أَبِي ثَوْبَانَ إِنَّ أَبَا ثَوْبَانَ لَيْسَ بِبُكْمَةٍ فَذَمِّ
عَمْرَوِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ إِنَّ بِهِ ضِنًّا عَنِ الْمَلْحَاةِ وَالشَّثْمِ
فأنت ترى كيف رُكِبَ البيت الشاهد من صدر بيت مع عجز بيت آخر
اكتفاء بحصول المعنى منهما، في حين نبّه آخرون على هذا التركيب،
وأوردوه على أصله كما فعل ابن الخبّاز، وابن يعيش، وابن مالك، وأبو
حيّان الأندلسي، وناظر الجيش، وغيرهم^(١٠).

= أبي سعيد الأنباري: ١/٢٢٨، ٢/٧١٠، واللمحة في شرح الملحّة لابن الصائغ:
١/٢٣٨، ٤٧٨، والمقاصد الشافية في شرح الخلاصة الكافية للشاطبي: ٣/٤١٢،
ويروى: حَاشَا أَبَا ثَوْبَانَ.. بالنصب على أَنَّ (حاشا) فعل ك(عدا) و(خلا).

(٧) شرح المفصل، موفق الدين أبو البقاء ابن يعيش الموصلي: ٤/٥١٠.

(٨) شرح التسهيل، جمال الدين بن مالك الجياني الأندلسي: ٢/٣٠٨.

(٩) كذا ورد في المفضليات، المفضل الضبي: ٣٦٧، وتوجيه اللمع، أحمد بن الحسين بن
الخبّاز: ٢٢٦، وشرح التسهيل لابن مالك: ٢/٣٠٨، والتّذييل والتّكميل في شرح
التسهيل، أبو حيّان الأندلسي: ٨/٣١٢، وتمهيد القواعد بشرح تسهيل الفوائد،
محمد بن يوسف بن أحمد، محب الدين الحلبي ثم المصري، المعروف بناظر الجيش:
٥/٢٢٠٦، والمقاصد النّحويّة في شرح شواهد شروح الألفية المشهور بـ «شرح
الشواهد الكبرى»، بدر الدين محمود بن أحمد بن موسى العيني: ٣/١١٠٣، ...

(١٠) ينظر: توجيه اللمع، أحمد بن الحسين بن الخبّاز: ٢٢٦، وشرح المفصل، ابن يعيش:
٤/٥١١، وشرح التسهيل، جمال الدين بن مالك الجياني الأندلسي: ٢/٣٠٨، والتّذييل =

ومع تركيب البيت إنَّ وجه الاستشهاد به باق، وهو الجرّ بـ(حاشا) على رواية الجرّ، والنّصب بها على رواية النّصب.

ومثاله أيضًا ما استشهد به جمع من النّحويين على زيادة (ال) وعدم الاعتداد بها من قوله ^(١١):

تُعْطِي الضَّجِيعَ إِذَا تَبَّهَ مَوْهِنًا كَالْأَقْحُوَانِ مِنَ الرَّشَاشِ الْمُسْتَقِي
والشّاهد فيه: (مِنَ الرَّشَاشِ الْمُسْتَقِي) إِذِ الْأَلِفُ وَاللَّامُ فِي (الرَّشَاشِ) زَائِدَتَانِ،
والتّقدير: من رشاش المستقي؛ واستدلّ به على زيادة (أل) في المضاف ^(١٢).
وهو للقطامي، وقد رُكِبَ من بيتين في ديوانه؛ وهما ^(١٣):

تُعْطِي الضَّجِيعَ إِذَا تَبَّهَ مَوْهِنًا مِنْهَا وَقَدْ أَمِنْتَ لَهُ مَنْ يَنْقِي
عَذَبَ الْمَذَاقِ مُفْلَجًا أَطْرَافُهُ كَالْأَقْحُوَانِ مِنَ الرَّشَاشِ الْمُسْتَقِي
٢- السّبب الثاني: أَنَّ فِي أَحَدِ الْمِصْرَاعَيْنِ قَلَاقَةً مَعْنَى أَوْ لُغَةً،
فَيُخْتَصِرُونَهُ بِأَخَذِ مِصْرَاعَيْنِ مِنْ بَيْتَيْنِ مُخْتَلِفَيْنِ ^(١٤):

ومعناه أَنَّ المعنى لا يستقيم من صدر بيت وعجزه، ويبقى ناقصًا، لكن يتّضح من مصراعي بيتين مختلفين. ويمكن التّمثيل لذلك بما استشهد به من قول الشّاعر ^(١٥):

= والتّكميل في شرح التسهيل، أبو حيّان الأندلسي: ٣١٢/٨، وتمهيد القواعد بشرح تسهيل الفوائد، ناظر الجيش: ٢٢٠٦/٥.

(١١) هو القطامي، كذا ورد في شرح التسهيل لابن مالك: ١/٢٦٠، ٢/٣٨٦، واللمحة في شرح الملحة: ١/٤٢٨، والتّذييل والتّكميل: ٩/٢٨٣، وتمهيد القواعد: ٢/٨٣٤، ٥/٢٣٨٤، ٢٤٠٥، ١٠/٥١٨٢.

(١٢) من كلام محقّق اللّلمحة في شرح الملحة: ١/٤٢٨، حاشية: (٤).

(١٣) ديوان القطامي: ١١٠-١١١، والمقاصد النّحويّة: ٤/١٥٣٦.

(١٤) خزانة الأدب: ٤/١٨١.

(١٥) نسبة البيت لابن أبيض في شرح أبيات مغني اللبيب للبغدادي: ٨/٩٦.

لَعَمْرُكَ مَا الْفَتِيَانُ أَنْ تَبَّتَ اللَّحَى وَلَكِنَّمَا الْفَتِيَانُ كُلُّ فَتَى نَدِي
فقد ورد بهذه الصورة في (معاني القرآن) للفراء^(١٦) من إنشاد الكسائي،
و(إيضاح شواهد الإيضاح) للقيسي^(١٧)، و(التذيل والتكميل) لأبي
و(المغني) لابن هشام^(١٩)، وكذلك ورد في بعض كتب الأدب ك(أمالى
المرتضى)^(٢٠)، و(المقصود والممدود) للقالى^(٢١).

ومحلّ الشاهد من البيت قوله: «ما الفتيان أن تبت اللحى»، إذ الظاهر أن
المصدر المؤول واقع خبراً عن جثة - كما هو تعبير ابن مالك - في الألفية.
وقد استدللّ به بعضهم على الإخبار بالمصدر عن الإنسان (الفتيان)،
وعلى ذلك استدللّ به الفراء، والمرتضى في أماليه، وذهب ابن هشام إلى أن
المصدر المخبر به عن الإنسان مؤول باسم الفاعل حتّى لا يخبر بالمصدر
عن الإنسان^(٢٢)، وقدّر أبو حيان أن في الكلام مضافاً محذوفاً، فقال في
التذيل^(٢٣): «وأيضاً فلا حجة في البيت الذي قد استشهد به؛ لأنّه يحتمل أن
يكون على حذف مضاف، التقدير: لعمر ك ما كمال الفتيان أن تبت اللحى».
وقد نبّه البغداديّ في شرح أبيات المغني^(٢٤) على تركيبه فقال: «البيت
ملقّق من مصراعين من أبيات لابن بيض، وقافيتهما الراء، وهي:

(١٦) معاني القرآن للفراء: ١/ ١٠٥، ٤٢٧.

(١٧) إيضاح شواهد الإيضاح للقيسي: ١/ ٤٨٤.

(١٨) التذيل والتكميل لأبي حيان: ٨/ ٣٣٩.

(١٩) المغني لابن هشام: ٦/ ٦٩٥.

(٢٠) أمالي المرتضى، الشريف المرتضى علي بن الحسين الموسوي العلوي: ٢٠١.

(٢١) المقصود والممدود، أبو علي القالي إسماعيل بن القاسم: ٢٥.

(٢٢) معاني القرآن للفراء: ١/ ١٠٥، والمغني: ٦/ ٦٩٥، وشرح أبيات المغني: ٨/ ٩٧.

(٢٣) التذيل والتكميل لأبي حيان: ٨/ ٣٣٩.

(٢٤) شرح أبيات المغني: ٨/ ٩٧.

لَعَمْرُكَ مَا الْفَتِيَانُ أَنْ تَبَّتَ اللَّحَى وَتَعْظَمَ أَبْدَانُ الرَّجَالِ مِنَ الْهَبْرِ
وَلَكِنَّمَا الْفَتِيَانُ كُلُّ فَتَى نَدِي صَبُورٍ عَلَى الْآفَاتِ فِي الْعُسْرِ وَالْيَسْرِ...»
قلت: البيت الشاهد ورد عند أغلب من استدلّ به بالرواية الأولى، وقد أنشده الكسائي، وهو ثقة في روايته، فلعله رواية للبيت، وحينها لا يكون من باب التلفيق.

ويصحّ التمثيل به على رأي البغداديّ، إذ لو أتى به النحاة على وجهه لكان بهذه الصورة:

لَعَمْرُكَ مَا الْفَتِيَانُ أَنْ تَبَّتَ اللَّحَى وَتَعْظَمَ أَبْدَانُ الرَّجَالِ مِنَ الْهَبْرِ
وكان المعنى الذي أراده الشاعر ناقصاً، لأنّ الشاعر أراد بيان من هو الفتى الحقيقي، ومراده لا يتوصّل إليه إلّا بالبيت الثاني، أو على الأقلّ بالبيت الأوّل مع صدر الثاني.

وعلى كلتا روايتي الشاهد يبقى محل الشاهد صحيحاً.

٣- السَّبَبُ الثَّالِثُ: إِرَادُ النَّحْوِيِّ الشَّاهِدَ مِنْ حِفْظِهِ دُونَ الْعُودَةِ لِلدَّوَائِنِ:

وهو أمر محتمل في الأبيات الملفقة من بيتين من قصيدة واحدة، أو من بيتين من قصيدتين، فقد يقدّم النحويّ ويؤخّر بين الصّدور والأعجاز، أو يخلط بين شطر من قصيدة مع شطر آخر من قصيدة أخرى، لوقوع الشّبه بينهما في الوزن، أو القافية، أو اللفظ، أو المعنى. وهذا يعني أنّ النحويّ لم يقصد إيراد البيت على هذا الوجه، بل يقع في الوهم، فيخطئ في الإتيان بالشّاهد على وجهه الصّحيح. وأمثلة الأبيات المركّبة من هذا النوع عديدة، وأغلب الوهم آت من تشابه الأبيات أو أشطارها.

ومن أمثلة ما يمكن أن يكون فيه التلفيق لحصول الوهم ما استشهد به

سيبويه في كتابه، وهو قوله:

يَا مَيِّ لَا يَعْجِزُ الْإِيَّامُ ذُو حَيْدٍ فِي حَوْمَةِ الْمَوْتِ رَزَامٌ وَفَرَّاسٌ
وهي رواية سيبويه للشاهد مع بيت بعده، وهو قوله^(٢٥):
يَحْمِي الصَّرِيمَةَ أَحْدَانُ الرِّجَالِ لَهُ صَيْدٌ وَمَجْتَرِيٌّ بِاللَّيْلِ هَمَّاسٌ
«وَهَذَانِ الْبَيْتَانِ أَيْضًا اسْتَشْهَدَ بِهِمَا سَيْبَوَيْهِ عَلَى جَرِي الصِّفَاتِ عَلَى مَا قَبْلَهَا
مَعَ مَا فِيهَا مِنْ مَعْنَى التَّعْظِيمِ وَلَوْ نَصَبَ لِحَازٍ»^(٢٦)، فقولُه: (رَزَامٌ)، و(فَرَّاسٌ)،
و(يَحْمِي الصَّرِيمَةَ)، و(أَحْدَانُ الرِّجَالِ لَهُ صَيْدٌ)، و(مَجْتَرِيٌّ بِاللَّيْلِ)، و(هَمَّاسٌ)
صفات لـ(ذُو حَيْدٍ)، وهو نكرة. ولو نصب الصفات التي بعد الصفة الأولى
على الحالية لحاز؛ لأنَّ النكرة إذا وصفت تقربت من المعرفة.
والذي أوقع سيبويه في ذلك هو مشابهة الصدر لصدر عجز بيت آخر،
فصدر البيت بعده، هو قوله:

يَا مَيِّ لَا يَعْجِزُ الْإِيَّامُ مُبْتَرِكٌ
وقد اختلف في نسبة الشعر فقل: لمالك بن خالد (أو خويلد) الخناعي
الهذلي، وقيل: لأبي هذيل. وهو بهذه الصورة مركب من مصراعين من بَيْتَيْنِ^(٢٧):
وَالْخُنُسُ لَا يَعْجِزُ الْإِيَّامُ ذُو حَيْدٍ بِمَشْمَخَرٍّ بِهِ الظَّيَّانُ وَالْأَسْ
يَا مَيِّ لَا يَعْجِزُ الْإِيَّامُ مُبْتَرِكٌ فِي حَوْمَةِ الْمَوْتِ رَزَامٌ وَفَرَّاسٌ
قال السيرافي في (شرح كتاب سيبويه)^(٢٨): «ووقع في البيت الأول من
هذين البيتين غلط في كتاب سيبويه، لأنَّ قوله: (ذُو حَيْدٍ): وعل، و(رَزَامٌ)،
و(فَرَّاسٌ): أَسَدٌ، والصواب الذي حملته الرواة:

(٢٥) الكتاب لسيبويه: ٢/ ٦٧.

(٢٦) خزانة الأدب: ٥/ ١٧٦.

(٢٧) ديوان الهذليين: ٣/ ٠٢-٠٤، وشرح أشعار الهذليين: ٢٢٦-٢٢٨، وخزانة الأدب:

٥/ ١٧٨، وديوان أبي ذؤيب: ١٢٢-١٢٣.

(٢٨) شرح كتاب سيبويه: ٢/ ٣٩٨.

يا مَيِّ لا يعجز الأيام ذو حيدٍ بمشمخرٍ به الظَّيَّانُ والآسُ
وقد فسّر ابن السّيرافي سبب تغليظه رواية سيبويه فقال: «كذا وقع
الإنشاد في كتاب سيبويه، وقد ألّف صدر بيت إلى عجز بيت آخر، والبيت
الأوّل الذي أنشده؛ صدره في صفة وعِل، وتمامه في صفة أسد»^(٢٩).

٤ - السَّبَبُ الرَّابِعُ: تَشَابُهُ بَيْنَ الْبَيْتَيْنِ فِي الصَّدْرِ أَوْ الْعَجْزِ:

يحدث أن يتشابه بيتان في شطريهما، فيحدث الخلط بين البيتين، فيركّب
منهما بيت ثالث يتألّف من شطريهما. ويحصل هذا في بيتين من قصيدة
واحدة، كما يحصل بين بيتين من قصيدتين مختلفتين، فمثال ما كان من
القصيدة نفسها استشهد ابن الصّائع في شرح اللّمْحة بقول الأعشى ميمون^(٣٠):
وَصَلِّ عَلَى حِينِ الْعَشِيَّاتِ وَالضُّحَى وَلَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ وَاللّهَ فَاعْبُدَا
هكذا أنشده مستشهداً به على مجيء (على) بمعنى (في)، وهو ملفّق
من بيتين، وهما قوله^(٣١):

وَذَا النُّصْبِ الْمَنْصُوبِ لَا تَنْسُكَنَّهُ وَلَا تَعْبُدِ الْأَوْثَانَ وَاللّهَ فَاعْبُدَا
وَصَلِّ عَلَى حِينِ الْعَشِيَّاتِ وَالضُّحَى وَلَا تَحْمَدِ الشَّيْطَانَ وَاللّهَ فَاحْمَدَا
ويروى: وَلَا تَحْمَدِ الْمُثْرِينَ، فركب صدر بيت مع عجز آخر لتشابه عجزيهما.
وقال العيني في (المقاصد النّحويّة)^(٣٢) وقد أورد البيت كما ذكره صاحب
(اللّمْحة): «هكذا رتبّه ابن حبيب حين دون شعر الأعشى، والمعنى ظاهر».

(٢٩) شرح أبيات سيبويه، ابن السيرافي: ٣٤٤ / ١.

(٣٠) اللّمْحة في شرح الملحّة: ٢٢٩.

(٣١) ديوان الأعشى ميمون: ١٣٧، وشرح القصائد السبع الطوال: ١٧ / ١، ونهاية الأرب:

٧١ / ١٨، والمقاصد النّحويّة للعيني: ١٠٥٥، وشرح شواهد المغني للسيوطي:

٥٧٧ / ٢، وقد نبّه محقّق اللّمْحة في شرح الملحّة على تلفيق البيت.

(٣٢) المقاصد النّحويّة: ١٨١٧.

وهذا يوحى أنه رواية للبيت، فلا يكون حينئذ من باب التلّفيق.
ومثال الثاني ما ذكره أبو عليّ الفارسيّ في (الحجة) مستشهداً به على وقوع (كان) بمعنى (وقع)، وهو قوله^(٣٣):
فِدَى لِبْنِي ذُهْلٍ بِنِ شَيْبَانَ نَاقَتِي إِذَا كَانَ يَوْمٌ ذُو كَوَاكِبٍ أَشْنَعَا
وهو بيت ملفّق من بيتين أحدهما قول مقّاس العائذي^(٣٤):
فِدَى لِبْنِي ذُهْلٍ بِنِ شَيْبَانَ نَاقَتِي إِذَا كَانَ يَوْمٌ ذُو كَوَاكِبٍ أَشْهَبُ
والثاني: قول عمرو بن شأس^(٣٥):
بَنِي أَسَدٍ هَلْ تَعْلَمُونَ بَلَاءَنَا إِذَا كَانَ يَوْمٌ ذُو كَوَاكِبٍ أَشْنَعَا
وقد نبّه ابن عطية في تفسيره على الرواية الصحيحة للبيت^(٣٦).
ولشدة تشابه العجزين ركّب الزّجاج البيت الشّاهد من البيتين، فجعل
عجز بيت عمرو بن شأس مع صدر بيت مقّاس، وصدر بيت عمرو مع عجز
بيت مقّاس^(٣٧).

ثالثاً: صور التّلفيق في شواهد النّحو الشعريّة:

مما وقفت عليه من خلال بعض الشّواهد التي لفّقها النّحاة أو بعضهم،
جاءت الأبيات الملفّقة على صور عديدة يمكن تقسيمها من وجهين:
١ - باعتبار القائل: التّركيب والتّلفيق من جهة القائل نوعان هما:
أ - التّلفيق من بيتين من قصيدة واحدة: وقد مرّ التمثيل لذلك في

(٣٣) معاني القرآن وإعرابه للزجاج: ٢/ ٢٥٩، والحجّة للقراء السبعة: ٢/ ٤٣٩، ٤٤١.

(٣٤) الكتاب: ١/ ٤٧، وشرح كتاب سيبويه: ١/ ٣٠٢، وشرح أبيات سيبويه: ١/ ١٧١.

(٣٥) شعر عمرو بن شأس الأسدي: ٣١.

(٣٦) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز: ١/ ٣٨٤.

(٣٧) معاني القرآن وإعرابه للزجاج: ٢/ ٢٥٩.

معظم الأمثلة السابقة.

ب- التّلفيق من شطري بيتين لشاعرين مختلفين: والأمثلة عليها في كتب النّحو عديدة، وسأكتفي بثلاثة أمثلة فقط.

فمن أمثلة ذلك قوله:

جَزَى اللهُ بِالْإِحْسَانِ مَا فَعَلَا بِكُمْ رَفِيقَيْنِ قَالَا خَيْمَتِي أُمَّ مَعْبَدٍ
استشهد به على هذه الصّورة ابن عصفور في شرحه على الجمل^(٣٨)،
وأبو حيّان في (التّذييل)^(٣٩).

والشّاهد عندهما في العجز، وهو وصول الفعل (قالا) إلى الظرف المختصّ (خَيْمَتِي) بلا واسطة (في)، وهو من الصّوريات الشّعريّة. والبيت بهذه الصّورة مركّب من بيتين لشاعرين مختلفين. ولعلّ الذي أوقعهما في ذلك هو تشابه الصّدرين، ولعلّ أبا حيّان تابع ابن عصفور في إيراد الشّاهد دون أن يراجع ثقة بروايته:

أما صدره فهو صدر بيت زهير^(٤٠):

جَزَى اللهُ بِالْإِحْسَانِ مَا فَعَلَا بِكُمْ فَأَبْلَاهُمَا خَيْرَ الْبَلَاءِ الَّذِي يَبْلُو
وهذا البيت استشهد به بعض النّحاة واللّغويين على أنّ «أبلاه» قد تأتي في معنى أبلاه بلاء حسناً. وهو بهذه الصّورة لا شاهد فيه على ما استشهد به ابن عصفور وأبو حيّان.

وأما العجز فهو عجز بيت منسوب لبعض الجنّ، وله قصّة في كتب

(٣٨) شرح جمل الزجاجي، أبو الحسن علي بن مؤمن بن محمد بن علي بن عصفور الإشبيلي (تح: الشّعار): ٣١٠ / ١.

(٣٩) التّذييل والتّكميل: ٤٠ / ٨.

(٤٠) ديوان زهير بن أبي سلمى: ٥٠.

التاريخ^(٤١)، وهو قوله:

جزى الله ربُّ النَّاسِ خَيْرَ جَزَائِهِ رَفِيقِينَ قَالَا خَيْمَتِي أُمُّ مَعْبَدٍ
وفيه محلّ الشّاهد، وهو - الشّاهد - باقٍ على رواية التّركيب.

البيت الثّاني:

وَلَأَنْتَ أَشْجَعُ مِنْ أَسَامَةِ إِذْ دُعِيتْ: نَزَالٍ وَلَجَّ فِي الدُّعْرِ
كذا رواه كثير من النّحاة^(٤٢)، والشّاهد في قوله: (نَزَالٍ)، وهو اسم لقوله
(انزِلْ)، ودلّ على أنه اسمٌ مؤنثٌ دُخُولُ التّاء في فعله، وهو (دُعِيتْ). وإنّما أخبر
عنها على طريق الحكاية وإلّا فالفعل وما كان اسماً له لا ينبغي أن يخبر عنه.
وهذا البيت بهذه الرواية مركّب من بيتين لشاعرين مختلفين، فعجزه من
بيت لزهير بن أبي سلمى، وهو قوله^(٤٣):

(٤١) غريب الحديث، أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري: ١/ ٤٦٤، والفائق في
غريب الحديث، أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد، جاز الله الزمخشري: ١/ ٩٥،
وشرح شذور الذهب في معرفة كلام العرب، جمال الدين عبد الله بن يوسف بن هشام
الأنصاري: ٣٠٥، وشرح شذور الذهب في معرفة كلام العرب، شمس الدين محمد بن
عبد المنعم بن محمد الجوّجري القاهري الشافعي: ٢/ ٤٣٨، والدرر اللوامع على همع
الهوامع شرح جمع الجوامع، أحمد بن الأمين الشنقيطي: ١/ ٤٢٩.

(٤٢) شرح كتاب سيبويه: ١/ ٦٣، ٤/ ٤٤، وشرح المقدمة المحسّبة، ابن بابشاذ: ٢/ ٣٣٩،
والإنصاف في مسائل الخلاف: ٢/ ٤٣٥، وعلل النّحو، محمد بن عبد الله بن العباس،
أبو الحسن، ابن الوراق: ٤٧٣، واللباب في علل البناء والإعراب، أبو البقاء عبد الله بن
الحسين بن عبد الله العكبري البغدادي محب الدين: ١/ ٤٥٤، وشرح كافية ابن
الحاجب، رضي الدين الأسترابادي: ٣/ ١٠٩، ٢٤٩، وشرح شافية ابن الحاجب مع
شرح شواهد، رضي الدين الأسترابادي: ٢/ ٣٠٣.

(٤٣) ديوانه: ٣٢، والكتاب: ٣/ ٢٧١، والمقتضب: ٣/ ٣٧٠، والأصول في النّحو: ٢/ ١٣٢،
وشرح أبيات سيبويه: ٢/ ٢١٢، وإيضاح شواهد الإيضاح: ٢/ ٦٩٠، وشرح المفصل:
٣/ ٤٧٤، وخزانة الأدب: ٦/ ٣١٨، ٣١٩، وشرح شواهد شرح الشافية: ٢٣١، واللمحة
في شرح الملحة: ٢/ ٩١٣، وتمهيد القواعد: ٨/ ٣٨٦٧، والمقاصد النّحويّة: ٣/ ١٢٤٩.

وَلَنِعَمَ حَشُو الدَّرْعِ أَنْتَ إِذَا دُعِيتَ نَزَالٍ وَلُجَّ فِي الدُّعْرِ
ومحل الشاهد باقٍ.

وصدره من بيت للمسيب بن علس، وهو قوله^(٤٤):

وَلَأَنْتَ أَشْجَعُ مِنْ أَسَامَةَ إِذْ يَقَعُ الصُّرَاخُ وَلُجَّ فِي الدُّعْرِ
ولا شاهد في البيت.

والعجزان يشتركان في آخرهما: (وَلُجَّ فِي الدُّعْرِ)، وهو الحامل على تركيب البيت.

البيت الثالث:

مَتَى تَأْتِهِ تَعْشُو إِلَى ضَوْءِ نَارِهِ تَجِدُ حَطْبًا جَزَلًا وَنَارًا تَأْجَجَا
استشهد به على هذه الصورة الأخفش في (معاني القرآن)^(٤٥)، والرّضي
في (شرح الكافية) في بعض طبعاته^(٤٦)، استشهدا به على رفع (تعشو) بين
المجزومين (الشَّرْطُ وَالْجَزَاءُ)، لِأَنَّهُ قَصَدَ بِهِ الْحَالُ، أَي: مَتَى تَأْتِهِ عَاشِيًا؛
أَي: نَاطِرًا إِلَى ضَوْءِ نَارِهِ.

وهو مركّب من بيتين كما أورد ذلك جماعة من النّحاة. وممّن نبّه على
تركيبه البغداديّ في (خزانة الأدب)^(٤٧)، وذكر أنّه وقع كذلك سهوًا، فصدره
للحطيئة، من قوله^(٤٨):

مَتَى تَأْتِهِ تَعْشُو إِلَى ضَوْءِ نَارِهِ تَجِدُ خَيْرَ نَارٍ عِنْدَهَا خَيْرُ مُوقِدٍ

(٤٤) ديوان المسيب بن علس: ٨٧، وشرح شواهد شرح الشافية: ٢٣١، وخزانة الأدب: ٣٢٥-٣١٨/٦.

(٤٥) معاني القرآن، أبو الحسن الأخفش الأوسط: ٥١٤/٢.

(٤٦) شرح الكافية للرّضي: ٢٦٦/٢.

(٤٧) خزانة الأدب: ٩٠-٩١/٩.

(٤٨) ديوان الحطيئة: ٥٣، والكتاب: ٨٦/٣، وفي كثير من كتب النّحو.

وعجزه لعبد الله بن الحر الجعفي من قوله^(٤٩):

مَتَى تَأْتِنَا تُلْمِمُ بِنَا فِي دِيَارِنَا تَجِدُ حَطَبًا جَزَلًا وَنَارًا تَأْجَجَا
وَأَنْتَ تَرَى شِدَّةَ الشَّابِهِ بَيْنَ الْبَيْتَيْنِ فِي الصَّدْرِ وَالْعِجْزِ مِنْ جِهَةِ التَّرْكِيبِ
وَالْمَعْنَى، وَفِي بَعْضِ أَلْفَاظِ الْعِجْزِ. وَالْبَيْتَانِ شَاهِدَانِ نَحْوِيَّانِ، أَمَّا الْأَوَّلُ
فَاسْتَشْهَدُوا بِهِ فِي مَوْضِعَيْنِ مِنْهُ، فِي قَوْلِهِ فِي الصَّدْرِ: (تَعْشُو) بِالرَّفْعِ، لِأَنَّ
الْمَعْنَى (مَتَى تَأْتِي عَاشِيًا..)، فَهُوَ فِي مَوْضِعِ الْحَالِ، وَلَيْسَ جَوَابَ الشَّرْطِ.

وَأَمَّا الشَّاهِدُ الثَّانِي فَاسْتَشْهَدُوا بِهِ فِي الصَّدْرِ أَيْضًا فِي قَوْلِهِ: (تَلْمِمُ بِنَا)،
فَالْفِعْلُ (تَلْمِمُ) جُزْمٌ، لِأَنَّهُ بَدَلٌ مِنْ (تَأْتِنَا)

وَتَرْكِيبُ صَدْرِ أَحَدِهِمَا مَعَ عِجْزِ الْآخَرِ يَفُوتُ وَجْهَ الِاسْتِشْهَادِ عَلَى أَحَدِ
الْحَكَمَيْنِ، لَكِنَّهُ يَكُونُ صَحِيحَ الِاسْتِشْهَادِ بِهِ عَلَى مَا اسْتَشْهَدَ بِهِ مِنْ جَاءَ بِهِ مَرْكَبًا.

٢- بِاعْتِبَارِ مَا تَرَكَّبَ مِنْهُ الْبَيْتُ الْمُتْلَقُ: التَّلْفِيقُ مِنْ جِهَةِ مَا تَرَكَّبَ مِنْهُ
الْبَيْتُ الْمَرْكَبُ ثَلَاثَةَ أَنْوَاعٍ: إِمَّا أَنْ يَتَرَكَّبَ مِنْ صَدْرِي بَيْتَيْنِ مُخْتَلِفَيْنِ، أَوْ مِنْ
عِجْزَيْنِ، أَوْ مِنْ صَدْرٍ وَعِجْزٍ، وَهَذَا النَّوعُ الْآخِرُ أَكْثَرُهَا وَقُوعًا.

أ- التَّلْفِيقُ مِنْ صَدْرَيْنِ: يَكُونُ الْبَيْتُ مَرْكَبًا مِنْ صَدْرٍ بَيْتٍ مَعَ صَدْرٍ
بَيْتٍ آخَرَ. وَمِنْ أَمْثَلَتِهِ:

البيت الأول:

وَنَاهِدَةُ الثَّدْيَيْنِ قَلْتُ لَهَا: اتَّكِي فَقَالَتْ: عَلَى اسْمِ اللَّهِ أَمْرُكَ طَاعَةٌ
نَسَبُ الْبَغْدَادِيِّ^(٥٠) رَوَاتِهِ عَلَى هَذِهِ الصُّورَةِ لَابْنِ الشَّجَرِيِّ وَابْنِ هِشَامٍ
فِي (الْمَغْنِيِّ)، وَقَدْ عُدَّتْ لِأَمَالِي ابْنِ الشَّجَرِيِّ، وَالْمَغْنِيِّ فَلَمْ أَجِدْ الْأَمْرَ كَمَا

(٤٩) لعبد الله بن الحر في الكتاب: ٨٦/٣، وشرح أبيات سيبويه: ٧٧/٢، وسر صناعة

الإعراب: ٦٧٨/٢، وشرح المفصل: ٢٨١/٤، والخزانة: ٩٠/٩.

(٥٠) خزانة الأدب: ١٨١/٤.

ادّعاه البغداديّ، بل فيهما البيت إمّا على الرواية المشهورة كما عند ابن الشّجريّ، أو الاكتفاء بمحلّ الشّاهد كما في المغني، فلعلّ ذلك وقع في بعض النّسخ المخطوطة التي وقف عليها.

قال البغداديّ^(٥١): «وَالْأَصْلُ هَكَذَا:

وَنَاهِدَةَ الثَّدْيَيْنِ قُلْتُ لَهَا: اتَّكِي عَلَى الرَّمْلِ مِنْ جَنَابَتِهِ لَمْ تُوسِدِ
فَقَالَتْ: عَلَى اسْمِ اللَّهِ أَمْرُكَ طَاعَةٌ وَإِنْ كُنْتُ قَدْ كُلفْتُ مَا لَمْ أُعَوِّدِ
فَأَخَذَ مِنْهُمَا مَصْرَاعَيْنِ، وَلَمْ يَتَّبِعْ لِهَذَا أَحَدٌ مِنْ شَرَاخِ الْمَغْنِيِّ».

البيت الثاني:

جَزَى اللَّهُ عَنِّي وَالْجَزَاءُ بِفَضْلِهِ رِبْعَةً خَيْرًا مَا أَعَفَّ وَأَكْرَمًا
ورد كذلك في أغلب كتب التّحو^(٥٢)، والشّاهد فيه: (ما أَعَفَّ وأكرما!)
حيث حذف المتعجّب منه - وهو المنصوب بعد «أَفْعَلْ» -؛ لأنّه ضمير يدلّ
عليه سياق الكلام عائد على القبيلة (ربّعة)؛ ولوضوح المعنى والتّقدير: ما
أَعَفَّها وأكرمها!.

وفيه أيضًا الفصل بين الفعل (جزي) ومفعوله (ربّعة) بجملة اعتراضية
(والجزاء بفضلها).

وهو ملفق من بيتين لعلّي بن أبي طالب في الدّيوان^(٥٣):

(٥١) البيتان في شرح ديوان عمر بن أبي ربّعة: ١١٦، وخزانة الأدب: ٤/ ١٨١.
(٥٢) اللّمحة في شرح اللّمحة: ١/ ٥١٢، وشرح ابن النّازم: ٣٢٨، والتّذيل: ١٠/ ١٩٧،
وتوضيح المقاصد: ٢/ ٨٨٩، وتخليص الشواهد: ٤٩١؛ وأوضح المسالك: ٣/ ٢٣٠؛
وشرح المكودي على الألفية: ٢٠١، والمقاصد الشافية: ٤/ ٤٥٣، والمقاصد التّحويّة:
٣/ ١٤٧٧، وشرح الأشموني: ٢/ ٢٦٦؛ وشرح التصريح: ٢/ ٦٣؛ وحاشية الصّبان:
٣/ ٢٨، وهمع الهوامع شرح جمع الجوامع: ٣/ ٥٠، والدرر اللوامع: ٢/ ٢٩٦.
(٥٣) ديوان الإمام علي بن أبي طالب رضي الله عنه: ١٣٥، وتاريخ دمشق: ١٤/ ٣٩٣، وزهر
الأدب وثمر الأبواب: ١/ ٨٢، وتاج العروس (ودق): ٢٦/ ٤٥٦.

جَزَى اللَّهُ قَوْمًا قَاتَلُوا فِي لِقَائِهِمْ لَدَى الْمَوْتِ قَدَمًا مَا أَعَزَّ وَأَكْرَمًا
رَبِيعَةً أَغْنَىٰ إِيَّاهُمْ أَهْلُ نَجْدَةٍ وَبَأْسٍ إِذَا لَاقُوا عَرِيسًا عَرْمَرَمًا
وتبعًا لهذه الرواية يبقى الشاهد صحيحًا في قوله: «ما أعفَّ وأكرما!»
فقد حُذِفَ المتعجب منه - وهو المنصوب بعد (أَفْعَلِ) التعجب -،
والتقدير: ما أعفَّهم وأكرمهم!، ويكون الضمير عائداً على (القوم) المذكور
في صدر البيت الأول.

وفوت الاستشهاد به على الفصل بين الفعل ومفعوله، ويختلف أيضاً
الموضع الإعرابي لـ (ربيعة)؛ فهو في البيت المركب مفعول أول لـ (جَزَى)،
وفي البيتين مفعول به مقدّم للفعل (أغني)، وفيه تصريح بما يقدره النحاة في
المنصوب على الاختصاص.

ب - التلقيق من عجزين: وهو أن يتركب البيت الشاهد من عجزين
بيتين مختلفين، ومن أمثله قول الشاعر:

يَصُورُ عُنُقَهَا أَحْوَى زَنِيمٍ لَهُ ظَأْبٌ كَمَا صَخَبَ الْغَرِيمُ
استشهد به أبو عليّ الفارسيّ في (الإيضاح العضديّ)^(٥٤)، و(الحجة
للقرء السبعة)^(٥٥)، وكذا أورده القالي في أماليه^(٥٦)، والشاهد فيه أنّ وزن
(فَعَال) يجوز جمعه جمع كثرة على وزن (فُعُول)، فقوله (عُنُقَهَا) على وزن
(فُعُول)، وهو جمع كثرة لـ (عَنَاقٍ) على وزن (فَعَالٍ)، ويجمع على (أَفْعُل)

(٥٤) لم أجده في المطبوع من الإيضاح، لكنّه في كتاب التكملة له: ٤٤٩، ولعلّ من شَرَحَ
شواهد الإيضاح جعل الإيضاح والتكملة كتاباً واحداً، ينظر: الإيضاح في شواهد
الإيضاح: ٢/ ٨٦١، وشرح شواهد الإيضاح: ٥٤٧.

(٥٥) الحجة للقرء السبعة: ٢/ ٣٨٩ - ٣٩١.

(٥٦) الأمالي - شذور الأمالي - النوادر، أبو عليّ القالي: ٢/ ٥٢.

في أدنى العدد (أعنت)، ويجمع أيضًا على (عنت)^(٥٧).

وبهذه الرواية رواه الأصمعي، وعنه أخذ ابن السكيت في (القلب والإبدال)^(٥٨)، وعنه أيضًا أخذ الرواية أبو عبيد في (الغريب المصنف)^(٥٩)، وبها رواه ابن دريد في (الجمهرة)^(٦٠)، فلعله رواية للبيت.

وقد نَبّه البكري على أن البيت مركب من عجز بيتين مختلف في نسبتهم، فقليل: لجمال بن سلمة العبدى نقلًا عن أبي عبيدة معمر بن المثنى، في (كتاب المثالب)^(٦١)، ونسبه أبو عبيدة في (مجاز القرآن)، وأبو عبيد البكري، وابن الأنباري للمعلّى بن جمال العبدى^(٦٢).

ونسبه الخليل، والقاسم بن سلام، وابن سيده لأوس بن حجر^(٦٣).
وصواب إنشاده عند البكري^(٦٤):

وَجَاءَتْ خِلْعَةٌ دُھَسُ صَفَايَا يَصُورُ عُنُقَهَا أَحْوَى زَنِيمٍ
يُفَرِّقُ بَيْنَهَا صَدْعُ رَبَاعٍ لَهُ ظَأْبٌ كَمَا صَخَبَ الْغَرِيمِ

(٥٧) انظر التكملة: ٤٤٩، وإيضاح شواهد الإيضاح: ٨١٥/٢.

(٥٨) ينظر: القلب والإبدال لابن السكيت (ضمن الكنز اللغوي): ١٠.

(٥٩) ينظر: الغريب المصنف: ٣٤٤/١.

(٦٠) جمهرة اللغة: ٧٨٢، ١١٠١.

(٦١) العباب الزاخر (حرف السين): ١٧٢-١٧٣، وإيضاح شواهد الإيضاح: ٨١٤/٢.

(٦٢) ينظر: مجاز القرآن: ٨١/١، والأضداد، أبو بكر، محمد بن القاسم الأنباري: ٣٧،

وسمط اللآلي في شرح أمالي القالي، أبو عبيد البكري: ١/٦٨٥.

(٦٣) ينظر: كتاب العين، الخليل بن أحمد بن عمرو بن تميم الفراهيدي: ١٧٢/٨، والغريب

المصنف، أبو عبيد القاسم بن سلام بن عبد الله الهروي البغدادي: ٣٠٨، والمحكم

والمحيط الأعظم: ٣٠١/٢، ٣٦/١٠، ٤٣، وقال: «وَلَيْسَ أَوْسٌ بِنَ حَجَرٍ هَذَا هُوَ

التَّمِيمِي؛ لِأَنَّ هَذَا لَمْ يَجِئْ فِي شِعْرِهِ».

(٦٤) الأضداد: ٣٧، وسمط اللآلي: ١/٦٨٥، وإيضاح شواهد الإيضاح: ٨١٤، ٢/٨١٤، واللسان

(زن م): ٢٧٦/١٢.

ج - التلّيق من صدر وعجز:

وهذا النوع أكثر الأنواع وقوعاً في الأبيات الملفقة، وأمثله عديدة منها:
البيت الأول^(٦٥):

ذَاكَ خَلِيلِي وَذُو يُوَاصِلُنِي يَزْمِي وَرَائِي بِأَمْسَهُمْ وَأَمْسَلَمَهُ
الشاهد فيه قوله: (بأَمْسَهُمْ وَأَمْسَلَمَهُ) يريد: بالسَّهم والسَّلْمَة، جاء على
لغة قوم من أهل اليمن في إبدال (لام) التعريف (ميمًا). وعلى تلك اللغة
جاء الحديث في رواية النمر بن تولب و كعب بن عاصم الأشعري رضي الله
عنهما^(٦٦): «ليس من امبرٍ امصيامٍ في امسفر».

والبيت من شعر لبجير بن عنمة الطائي الجاهلي، ملفق من البيتين^(٦٧):
وإنَّ مَوْلَايَ ذُو يُعَيِّرُنِي لَا إِحْنَةَ بَيْنَنَا وَلَا حَرَمَهُ
يَنْصُرُنِي مِنْكَ غَيْرَ مُعْتَذِرٍ يَزْمِي وَرَائِي بِأَمْسَهُمْ وَأَمْسَلَمَهُ
وأكثر النحاة يروونه مركبًا مع تغيير في بعض كلمات صدره، وقلّ منهم
من نَبّه على تليفقه كما فعل العيني في (المقاصد النحويّة)^(٦٨)، واكتفى
البغداديّ في (شرح شواهد شرح الشافية)^(٦٩) بذكر الرواية كما ذكرها العيني.

(٦٥) شرح المفصل لابن يعيش: ١٣٣/٥، ١٣٩، وشرح الكافية الشافية: ١/١٦٥، ٢٧٣،
وشرح ابن النّاطم: ٥٩، والتّذييل والتّكميل: ٥٢/٣، والجنى الدّاني: ١٤٠ وحاشية
الصّبان: ١/٢٢٨، وتخليص الشواهد وتلخيص الفوائد: ١٤٣، ومغني اللبيب:
٣٠٨/١، والمقاصد الشافية: ١/١، وشرح الأشموني: ١/١٤١، ١٤٣...
(٦٦) مسند الشافعي: ١٥٧.

(٦٧) التكملة والذيل والصّلة (سلم): ٥٦/٦، (ذا): ٥٤٤/٦، واللسان (سلم): ١٢/٢٩٧،
(ذو وذوات): ١٥/٤٥٩، والمقاصد النّحويّة: ١/٤٢٩، وتاج العروس (سلم):
٣٢٣/٣٧٣، (ذو): ٤٠/٤٣٠، وشرح شواهد الكافية المطبوع مع شرح الكافية:
٤/٤٥٢، شرح شواهد المغني للسيوطي: ١/١٦٠.

(٦٨) المقاصد النّحويّة: ١/٤٢٩.

(٦٩) شرح شواهد شرح الشافية: ٤٥٢.

والبيت الأول منهما شاهد على (ذو) الموصولة الطائية بمعنى (الذي) في قوله: (ذو يعيرني).

البيت الثاني^(٧٠):

العَاطِفُونَ تَحِينَ مَا مِنْ عَاطِفٍ وَالْمُطْعَمُونَ زَمَانَ أَيْنَ الْمُطْعِمِ
الشاهد فيه قوله: (العاطفون تحين)، وفيه ثلاثة آراء:

الرأي الأول: أنّ (التاء) في (تحين) زائدة أول كلمة (حين). وأصل هذا الرأي لأبي زيد، زعم أنه سمع من بعض العرب زيادة (التاء) في أوائل بعض الظروف مثل (الحين والآن)، قال أبو زيد: «سمعت من يقول: حسبك تَلَان، يريد الآن، فزاد التاء»^(٧١).

والرأي الثاني: أنّ هذه التاء زائدة في قوله «العاطفون»، وأصلها هاء الوقف، ثم أجرى الكلمة في حال الوصل مجراها في حال الوقف، ثم قلب الهاء تاءً مبسوطة. وقد ذكر هذا الرأي ابن سيده بعد أن ذكر الرأي الأول عن أبي زيد. قال: «وقيل: أراد العاطفونه، فأجراه في الوصل على حد ما يكون عليه في الوقف، وذلك أنه يقال في الوقف: هؤلاء مسلمونه، وضاربونه، فتلحق الهاء لبيان حركة النون... ثم إنه شبه هاء الوقف بهاء التأنيث، فلمّا احتاج لإقامة الوزن إلى حركة الهاء قلبها تاء»^(٧٢).

والرأي الثالث: زعم بعض النحويين أنّ الأصل: (لات حين)، ثم

(٧٠) انظر: إعراب القرآن للنحاس: ٣/ ٣٠٤، والإنصاف في مسائل الخلاف: ١/ ٨٩، وشرح الكافية للرضي: ٢/ ١٩٨، ٤/ ٢٤١، والإبانة في اللغة العربية: ٢/ ٣١٠، وتعليق الفرائد في شرح تسهيل الفوائد، محمد بدر الدين بن أبي بكر بن عمر الدماميني: ٣/ ٢٦٠، والجنى الداني: ١/ ٤٨٧، وشرح الأشموني: ٤/ ١٤٦.

(٧١) سر صناعة الإعراب: ١/ ١٦٦، وتحقيق الإنصاف في مسائل الخلاف: ١/ ٨٩-٩٠ الهامش.

(٧٢) ينظر: تحقيق الإنصاف في مسائل الخلاف: ١/ ٩٠ الهامش.

حذفت (لا) وبقيت (التاء) (٧٣).

والبيت من شعر لأبي وجزة السعدي، وهو ملفق من بيتين، وهما (٧٤):

الْعَاطِفُونَ تَحِينَ مَا مِنْ عَاطِفٍ وَالْمُسْبِغُونَ يَدًا إِذَا مَا أَنْعَمُوا
وَاللَّاحِقُونَ جَفَانَهُمْ قَمَعَ الدُّرَى وَالْمُطْعِمُونَ زَمَانَ أَيْنَ الْمُطْعِمِ
فلما كان عجز البيت الأول، وصدر الثاني وعجزه معطوفة بعضها على بعض، اكتفي بذكر البيت مركبًا من صدر الأول وعجز الثاني، ويبقى محلّ الشاهد صحيحًا على الآراء الثلاثة.

البيت الثالث (٧٥):

فَيَاكَ وَالْمَيِّتَاتِ لَا تَقْرَبَنَّهَا وَلَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ وَاللَّهَ فَاعْبُدَا
الشاهد فيه: إدخال النون الخفيفة على (أَعْبُدْ) الذي هو فعل أمر، وإبدال النون الخفيفة ألفًا في الوقف، والسبب في ذلك قصد التفرقة بين النون التي هي من نفس الكلمة، والنون التي تلحق الكلمة بعد كمالها (٧٦).
والبيت من شعر الأعشى ميمون بن قيس، وهو ملفق من بيتين هما (٧٧):

(٧٣) انظر: الجني الداني: ٤٨٧.

(٧٤) انظر: ديوان أبي وجزة السعدي: ٦٦، والتكملة والذيل والصلة للصغاني (ليت): ٣٣٩/١، (عطف)، ٥٣٢/٤، (حين): ٢٢٠/٦، والمقاصد النحوية: ٢٧٢/١، واللسان (لات): ٨٧/٢، (عطف): ٢٥١/٩، (حين): ١٣٤/١٣، وخزانة الأدب: ١٧٩/٤.
(٧٥) انظر: الكتاب: ٥١٠/٣، والإنصاف: ٥٤١/٢، وشرح المفصل لابن يعيش: ١٦٧/٥، ٢٤١، والبدیع في علم العربية: ٦٦٢/١، وشرح الكافية الشافية: ١٤٠٠/٣، وتمهيد القواعد: ٣٩٢١/٨، والمقاصد الشافية: ٥٣٣/٥، وشرح التصريح: ٣١٣/٢، وشرح الأشموني: ١٣٠/٣.

(٧٦) ينظر: الممتع الكبير في التصريف لابن عصفور: ٢٧١.

(٧٧) انظر: ديوان الأعشى: ١٣٧، وشرح أبيات سيويه لابن السيرافي: ٢٢٢/٢، والمقاصد النحوية: ١٠٥٠/٣، ١٨١٦/٤.

فَيِّاكَ وَالْمَيَّاتِ لَا تَقْرَبَنَّهَا وَلَا تَأْخُذَنَّ سَهْمًا حَدِيدًا لِتَقْصِدَا
وَذَا النُّصْبِ الْمَنْصُوبِ لَا تَنْسُكَنَّهُ وَلَا تَعْبُدِ الْأَوْثَانَ وَاللَّهِ فَاعْبُدَا
وورد الشطر الشاهد مركبًا مع صدر بيت آخر وهو^(٧٨):
وَسَبَّحْ عَلَى حِينِ الْعَشِيَّاتِ وَالضُّحَى وَلَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ وَاللَّهِ فَاعْبُدَا
وهو أيضًا ملفق مع صدر بيت للشاعر نفسه، وقد مرَّ الحديث عنه.

رابعاً: بين تعدد الرواية والتلفيق:

كان الشعر ديوان العرب، وقد اعتمدوا في نقله على السماع والمشافهة، ولهذا تعدد في كثير من الأحيان رواية الأبيات والقصائد. وهذا التعدد له صور منها تغيير لفظ بلفظ، ومنها التقديم والتأخير في الأبيات، ومنها الزيادة والنقصان في عدد الأبيات، ومنها - وهو ما قد يؤدي إلى القول بالتلفيق - تغيير تركيب الأبيات، إما بالزيادة أو بالنقصان بين رواية ورواية. ولنضرب على ذلك أمثلة:

البيت الأول:

فِي فِتْيَةِ كَسُيُوفِ الْهِنْدِ قَدْ عَلِمُوا أَنْ هَالِكُ كُلِّ مَنْ يَحْفَى وَيَتَعَلُّ
من شعر الأعشى ميمون بن قيس، استشهد به بعض النحويين^(٧٩) على
أَنَّ (أَنْ) مُحَقَّقَةٌ مِنَ الثَّقِيلَةِ وَأَسْمَهَا ضَمِيرُ شَأْنٍ مَحْذُوفٍ، وهالكُ: خبر مقدم
وكلُّ: مُبْتَدَأٌ مُؤَخَّرٌ، وَالْجُمْلَةُ خَبَرُهَا. والتقدير: أَنَّهُ هَالِكُ كُلِّ.....

(٧٨) وهي رواية ابن هشام فيما ذكر من أبيات القصيدة في تخلص الشواهد: ٢٢٩.

(٧٩) انظر: الكتاب: ١٣٧/٢، ٧٤/٣، ١٦٤، والأصول في النحو: ٢٣٩/١، والمقتضب:

٨/٣، والمسائل البصريات: ٧٢٦/١، والإيضاح العضدي: ٢٨٥، والخصائص:

١/٣٥٠، والإنصاف: ١/١٦٢، والمفصل: ٣٩٦، واللمحة في شرح الملح: ٢/٥٥٨،

٢/٥٥٨، وشرح شواهد الكافية: ٣٢/٤، ٣٦٩، وشرح التسهيل لابن مالك: ٢/٤١،

٤/٨، وشرح المفصل لابن يعيش: ٤/٥٤٧، ٢/٤٦٨، ومغني اللبيب: ١/٤٠٨،

والمقاصد الشافية: ١٢٣/٥.

والذي ثبت في ديوانه^(٨٠):

فِي فِتْيَةِ كَسُيُوفِ الْهِنْدِ قَدْ عَلِمُوا أَنْ لَيْسَ يَدْفَعُ عَنْ ذِي الْحِيلَةِ الْحِيلُ
وفيه محلّ الشاهد أيضاً، وهو قوله: (أَنْ لَيْسَ...)، فـ(أَنْ) مخففة من
الثقيلة، واسمها ضمير شأن مَحْدُوف، و(ليس) وما في حيزها خبرها، لكن
يختلفان في ما بعد (أَنْ) المخففة، فعلى رواية النحاة ما بعدها جملة اسمية،
وعلى رواية الديوان قد وليها ناسخ، وكلاهما من مواضع تخفيف (أَنْ).
وأما العجز الذي أورده فليس فيه من كلام الأعشى إلا قوله: (يَحْفَى
وَيَنْتَعِلُ) فإنه عجز بيت آخر من القصيدة؛ وهو:

أَمَّا تَرَيْنَا حُفَاةً لَا نِعَالَ لَنَا إِنَّا كَذَلِكَ مَا نَحْفَى وَنَتَّعِلُ
ومن النحاة من عدّ البيت الشاهد مصنوعاً غير النحاة روايته قصداً، فقد قال
السّيرافي: «وفي كتاب أبي بكر مبرمان: هَذَا الْمَصْرَاعُ مَعْمُولٌ، أَي: مَصْنُوعٌ»^(٨١).
وقال ابن المستوفي: «والذي ذكره السّيرافي صحيح، وَلَا شَكَّ أَنَّ
النَّحْوِيِّينَ غَيَّرُوهُ لِيَقَعَ الْإِسْمُ بَعْدَ (أَنْ) الْمَخْفُفَةِ مَرْفُوعًا، وَحَكَمَهُ أَنْ يَقَعَ بَعْدَ
(أَنْ) الْمَثْقَلَةِ مَنْصُوبًا، فَلَمَّا تَغَيَّرَ اللَّفْظُ تَغَيَّرَ الْحُكْمُ»^(٨٢).

وقال العيني: «والبيت المستشهد به هكذا أورده النحاة: سيبويه وغيره من
المتقدمين والمتأخرين، والذي ثبت في ديوانه مثل ما ذكرناه من أَنَّ عَجَزَ الْبَيْتِ:
أَنْ لَيْسَ يَدْفَعُ عَنْ ذِي الْحِيلَةِ»

وهو شاهد على مسألة الفعل الجامد.

وأما العجز الذي أورده فليس هو من كلام الأعشى، وقد قيل: إنه من

(٨٠) ديوان الأعشى ميمون: ٥٩، وانظر: المقاصد النحوية: ٢ / ٧٦٠.

(٨١) شرح كتاب سيبويه: ٣ / ٢٧٣، وخزانة الأدب: ٨ / ٣٩١، ١١ / ٣٥٦.

(٨٢) خزانة الأدب: ٨ / ٣٩١.

بيت آخر لآخر، وهو:

أَمَّا تَرَيْنَا حُفَاةً لَا نِعَالَ لَنَا إِنَّا كَذَلِكَ مَا نَحْفَى وَنَتَّعِلُ
قلت: العجز الذي أورده يخالف عجز هذا البيت أيضاً، فالحق أن هذا العجز
إمّا من عجز بيت غير هذا البيت، أو هو رواية في بيت الأعشى. والله أعلم^(٨٣).

كثير من النّحاة المتقدّمين، ومن شراح المعلّقات رَوَوْا البيت الشّاهد
كما هو في أغلب كتب النّحو، وذكروا القصيدة كاملة، وهي معلّقة التي
تناقلتها الرّواة جيلاً عن جيل، وفيها البيت الشّاهد موافق لما رواه سيبويه
وغيره، وفيها أيضاً البيت الذي يتضمّن العجز الذي ادّعى القائلون بالتلفيق
أنّ البيت الشّاهد ملّفق منه ومن صدر بيت آخر. وهذا يدلّ على أنّ الأمر
ليس تلفيقاً بقدر ما هو اختلاف رواية. على أنّ اختلاف الروايات أحياناً له
دور في الحكم على الشّاهد من جهة كونه ملّفقاً أو لا، فهناك من الشّواهد ما
أوردها النّحويّون على رواية من الروايات، وفي روايات أخرى تقديم
وتأخير أو زيادة تجعل من هذه الشّواهد محلّ نظر.

البيت الثاني:

تَعْلَمُ رَسُولُ اللَّهِ أَنَّكَ مُدْرِكِي وَأَنْ وَعِيدًا مِنْكَ كَالْأَخْذِ بِالْيَدِ
البيت من شعر تعدّدت نسبته^(٨٤)، فنسب لأسيد بن أبي إياس الهذلي،

(٨٣) المقاصد النّحويّة: ٢/ ٧٦٠.

(٨٤) نسب لأنس بن زعيم في الاستيعاب: ٤/ ١٦٠٥، والحماسة المغربية: ١/ ٨٧، والوافي
بالوفيات: ٩/ ٢٣٣، ٢٣٨، ٢٤٠، والشعور بالخور: ٢٤٩، والبداية والنهاية: ٤/ ٣١١،
والإصابة في تمييز الصحابة: ١/ ٢٧٢، وشرح أبيات مغني اللبيب للبغدادي: ٧/ ٢٥٨-
٢٥٩، ولسارية بن زعيم في الإصابة: ٣/ ٤، ولكعب بن زهير في أمالي المرتضى:
١/ ٤١٨، والإبانة في اللغة العربية: ٢/ ٣٣٥، ولأسيد بن أبي إياس الهذلي في شرح
أشعار الهذليين ٢/ ٦٢٧.

رواه بهذه الصّورة الأشموني^(٨٥)، وموضع الشّاهد في البيت في قوله :
(تعلّم رسول الله أنّك مدرّكي)، على أنّ (تعلّم) بمعنى اعلم، وهي ممّا
ينصب مفعولين أصلهما مبتدأ وخبر.

وهو على هذه الرّواية مرّكب وملّفق من بيتين كما في رواية صاحب
(شرح أشعار الهذليين)^(٨٦)؛ والبيتان هما:

تَعَلَّمَ رَسُولَ اللَّهِ أَنَّكَ قَادِرٌ عَلَى كُلِّ حَيٍّ مِنْ تَهَامٍ وَمُنْجِدٍ
وَأَنَّكَ كَاللَّيْلِ الَّذِي هُوَ مُدْرِكِي وَأَنَّ وَعِيدًا مِنْكَ كَالْأَخْذِ بِالْيَدِ
وقد وردت الأبيات مع البيت الشّاهد كما ذكره الأشموني في كثير من
كتب السّيرة وغيرها^(٨٧)، وفيها البيتان هكذا:

تَعَلَّمَ رَسُولَ اللَّهِ أَنَّكَ مُدْرِكِي وَأَنَّ وَعِيدًا مِنْكَ كَالْأَخْذِ بِالْيَدِ
تَعَلَّمَ رَسُولَ اللَّهِ أَنَّكَ قَادِرٌ عَلَى كُلِّ حَيٍّ مِنْ تَهَامٍ وَمُنْجِدٍ
وورود البيت في أغلب الكتب على هذا الوجه يوحي بأنّه على هذا
الوجه ليس من التّلفيق، بل من باب تعدّد الرّواية، ويبقى محلّ الشّاهد
موجوداً مع اختلافها.

البيت الثالث:

فكَلَّا أَرَاهُمْ أَصْبَحُوا يَعْقِلُونَهُ صَحِيحَاتٍ مَالٍ طَالِعَاتٍ لِمَخْرَمٍ
والبيت لزهير بن أبي سلمى، كذا ورد عن أكثر من روى معلقة الشّاعر، وهو

(٨٥) شرح الأشموني ١/ ٣٦٠، وانظر: الحماسة المغربية: ١/ ٨٧، والوافي بالوفيات:

٩/ ٢٣٨، والإصابة في تمييز الصحابة: ١/ ٢٧٢، ٣/ ٤، والبداية والنهاية: ٤/ ٣١١.

(٨٦) شرح أشعار الهذليين: ٦/ ٦٢٧.

(٨٧) انظر: الحماسة المغربية: ١/ ٨٧، والوافي بالوفيات: ٩/ ٢٣٨، والإصابة في تمييز

الصحابة: ١/ ٢٧٢، ٣/ ٤، والبداية والنهاية: ٤/ ٣١١.

كذلك في ديوانه وشرح الكافية للرّضي^(٨٨). والشّاهد في البيت في الصّدر على أنّه ممّا اشتغل الفعل فيه بنفس الضّمير؛ إذ التّقدير: (يَعْقُلُونَ كلاً).

روى الأعلام الشنتمري^(٨٩) الصّدر مع عجز آخر، والعجز مع صدر آخر، وهذه روايته

فُكُلًا أَرَاهُمْ أَصْبَحُوا يَعْقِلُونَهُ عَلَالَةَ أَلْفٍ بَعْدَ أَلْفٍ مُصَتَّمٍ
تساق إلى قوم لقوم غرامة صحيحات مال طالعاتٍ لمخرمٍ
ووافقه في رواية البيت الأوّل التبريزي في شرح القصائد العشر^(٩٠)،
وورد في شرح القصائد السبع الطوال الجاهليات^(٩١) قريباً من رواية الأعلام:
فُكُلًا أَرَاهُمْ أَصْبَحُوا يَعْقِلُونَهُ صحيحات ألف بعد ألفٍ مُصَتَّمٍ
أما القرشي في جمهرة أشعار العرب فقد عكس رواية الأعلام^(٩٢).
وعلى كلّ الروايات يبقى محلّ الشّاهد صحيحاً.

في نهاية البحث نرى أنّ التّلفيق في الشواهد النّحويّة حقيقة موجودة، أحياناً تكون مقصودة من النّحوي؛ لأنّه يحرص على محلّ الشّاهد مع المحافظة على المعنى العام الذي أراده الشّاعر، وفي أخرى يكون غير مقصود، فيقع في التّلفيق لوقوع التّشابه بين أعجاز الأبيات المختلفة أو صدورها، وفي ثالثة يكون تقصيراً منه في الاعتماد على الحفظ وحده في إيراد الشّاهد. وقد تبين من البحث أنّ ذلك لا يؤثر في الغالب الأعمّ في موضع الشّاهد.

* * *

(٨٨) ديوان زهير بن أبي سلمى: ٦٩، وشرح الكافية للرّضي: ١/ ٤٤٠.

(٨٩) انظر خزانة الأدب: ٥/ ٣.

(٩٠) شرح القصائد العشر: ١٢٤.

(٩١) شرح القصائد السبع الطوال الجاهليات: ٢٨٠.

(٩٢) جمهرة أشعار العرب: ١٧٤.

المصادر والمراجع

- الإبانة في اللغة العربية، سلمة بن مُسلم العَوْتبي الصُّحاري، تح: عبد الكريم خليفة - نصرت عبد الرحمن - صلاح جرار - محمد حسن عواد - جاسر أبو صفية، وزارة التراث القومي والثقافة - مسقط - سلطنة عمان، الطبعة الأولى: (١٤٢٠هـ-١٩٩٩م).
- الإصابة في تمييز الصحابة، ابن حجر العسقلاني، تح: عادل أحمد عبد الموجود وعلي محمد معوض، دار الكتب العلمية - بيروت، الطبعة الأولى: (١٤١٥هـ).
- الأصول في النحو، أبو بكر بن السراج، تح: عبد الحسين الفتلي، مؤسسة الرسالة، لبنان - بيروت، طبعة (١٤٠٥هـ).
- الأضداد، أبو بكر محمد بن القاسم الأنباري، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، بيروت، طبعة (١٤٠٧هـ-١٩٨٧م).
- إعراب القرآن، أبو جعفر النحاس، تح: عبد المنعم خليل إبراهيم، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى: (١٤٢١هـ).
- الأغاني، أبو الفرج الأصبهاني، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى: (١٤١٥هـ).
- الأمالي - شذور الأمالي - النوادر، أبو علي القالي، ترتيب: محمد عبد الجواد الأصمعي، دار الكتب المصرية، القاهرة، الطبعة الثانية: (١٣٤٤هـ-١٩٢٦م).
- أمالي المرتضى، الشريف المرتضى علي بن الحسين الموسوي العلوي، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية، الطبعة الأولى: (١٣٧٣هـ-١٩٥٤م).

- الإنصاف في مسائل الخلاف بين النحويين البصريين والكوفيين، أبو البركات عبد الرحمن بن محمد بن أبي سعيد الأنباري، المكتبة العصرية، بيروت- لبنان، الطبعة الأولى (١٤٢٤هـ-٢٠٠٣م).
- أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك، جمال الدين بن هشام الأنصاري، تحقيق: يوسف الشيخ محمد البقاعي، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان. د.ط، د.ت.
- الإيضاح العضدي، أبو علي الفارسي، تح: حسن شاذلي فرهود، (كلية الآداب - جامعة الرياض)، الطبعة الأولى: (١٣٨٩هـ-١٩٦٩م).
- إيضاح شواهد الإيضاح، أبو علي الحسن بن عبد الله القيسي، تح: محمد بن حمود الدّعجاني، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى: (١٤٠٨هـ-١٩٨٧م).
- البداية والنهاية، أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير، دار الفكر، بيروت، لبنان، طبعة: (١٤٠٧هـ-١٩٨٦م).
- البديع في علم العربية، مجد الدين أبو السعادات ابن الأثير، تح: فتحي أحمد علي الدين، جامعة أم القرى، مكة المكرمة، المملكة العربية السعودية، الطبعة الأولى: (١٤٢٠هـ).
- تاج العروس من جواهر القاموس للزبيدي، المطبعة الخيرية المنشأة بجمالية مصر، الطبعة الثانية (١٣٩٣هـ/١٩٧٣م).
- تخلص الشواهد وتلخيص الفوائد، عبد الله بن يوسف بن هشام الأنصاري، تح: عباس الصالحي، بيروت، دار الكتاب العربي، الطبعة الأولى (١٩٨٦م).
- التذيل والتكميل في شرح التسهيل، أبو حيان الأندلسي، تح: حسن هنداي، دار القلم، دمشق - سورية، الطبعة الأولى: الجزء الثالث (١٤٢٠هـ-٢٠٠٠م)/ الجزء الرابع: (١٤٢١هـ-٢٠٠٠م)/ الجزء الخامس: (١٤٢٢هـ-٢٠٠٢م).

- التذييل والتكميل في شرح التسهيل، أبو حيان الأندلسي، تح: حسن هنداي، دار كنوز إشبيلية، الرياض - السعودية، الطبعة الأولى: الجزء الثامن: (١٤٣٠هـ-٢٠٠٩م) / الجزء التاسع: (١٤٣١هـ-٢٠١٠م) / الجزء العاشر: (١٤٣٢هـ-٢٠١١م).
- تعليق الفرائد في شرح تسهيل الفوائد، محمد بدر الدين بن أبي بكر بن عمر الدماميني، تح: محمد بن عبد الرحمن بن محمد المفدى، طبعة دون ناشر، الطبعة الأولى: (١٤٠٣هـ-١٩٨٣م).
- التكملة والذيل والصلة لكتاب تاج اللغة وصحاح العربية، الحسن بن محمد بن الحسن الصغاني، مطبعة دار الكتب، القاهرة، جمهورية مصر العربية: ج ١، تح: عبد العليم الطحاوي، (١٩٧٠م). ج ٤، تح: عبد العليم الطحاوي، (١٩٧٤م). ج ٦، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، (١٩٧٩م).
- التكملة، أبو علي الفارسي، تح: كاظم بحر المرجان، عالم الكتب، بيروت، لبنان، الطبعة الثانية: (١٤١٩هـ-١٩٩٩م).
- تمهيد القواعد بشرح تسهيل الفوائد، محمد بن يوسف بن أحمد، محب الدين الحلبي ثم المصري، المعروف بناظر الجيش، تح: علي محمد فاخر وآخرين، دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة، القاهرة - جمهورية مصر العربية، الطبعة الأولى (١٤٢٨هـ).
- توجيه اللمع، أحمد بن الحسين بن الخباز، تح: فايز زكي محمد دياب، دار السلام للطباعة والنشر، القاهرة، مصر، الطبعة الثانية: (١٤٢٨هـ-٢٠٠٧م).
- جمهرة أشعار العرب، أبو زيد محمد بن أبي الخطاب القرشي، تح: علي محمد البجاوي، طبعة لجنة البيان العربي، الطبعة الأولى (١٣٨٧هـ-١٩٦٧م).

- الجنى الداني في حروف المعاني، الحسين بن قاسم المرادي، تح: فخر الدين قباوة، محمد نديم فاضل، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، الطبعة الأولى (١٤١٣هـ-١٩٩٢م).
- حاشية الصبان على شرح الأشموني لألفية ابن مالك، أبو العرفان محمد بن علي الصبان الشافعي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى: (١٤١٧هـ-١٩٩٧م).
- الحجة للقراء السبعة، أبو علي الحسن بن عبد الغفار الفارسي، تح: بدر الدين قهوجي، بشير جويجاتي، دار المأمون للتراث، دمشق - سورية.
- الحلل في شرح أبيات الجمل، ابن السيد البطليوسي، تعليق يحيى مراد، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى: (١٤٢٤هـ-٢٠٠٤م).
- الحماسة المغربية، مختصر كتاب صفوة الأدب ونخبة ديوان العرب، المؤلف: أبو العباس أحمد بن عبد السلام الجرّاوي التادلي، تح: محمد رضوان الدايدة، دار الفكر المعاصر - بيروت، لبنان، الطبعة الأولى: (١٤١٢هـ=١٩٩١م).
- خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب، عبد القادر بن عمر البغدادي، تح: عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة - جمهورية مصر العربية، الطبعة الأولى (١٤١٨هـ-١٩٩٩م).
- الخصائص، أبو الفتح عثمان بن حني، تحقيق: محمد عليّ النّجار، عالم الكتب بيروت، ط (٣) ١٤٠٣هـ.
- الدرر اللوامع على همع الهوامع شرح جمع الجوامع، أحمد بن الأمين الشنقيطي، تح: محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى: (١٤١٩هـ-١٩٩٩م).

- ديوان أبي ذؤيب، تح: أحمد خليل الشال، مركز البحوث والدراسات الإسلامية، بور سعيد، مصر، الطبعة الأولى: (١٤٣٥هـ-٢٠١٤م).
- ديوان أبي وجزة السعدي، صنعة وليد السراقبي، مجلة معهد المخطوطات العربية، المجلد ٣٤، الجزء الأول والثاني، (جمادى الآخرة - ذو الحجة ١٤١٠هـ، يناير-يوليو ١٩٩٠).
- ديوان أحيحة بن الجلاح الأوسي، تح: حسن محمد باجودة، مطبوعات نادي الطائف الأدبي، الطائف، السعودية، د.ط-د.ت.
- ديوان الأعشى الكبير (ميمون بن قيس)، شرح وتعليق محمد محمد حسين، مكتبة الآداب بالجماميز، القاهرة، (د.ت).
- ديوان الإمام علي بن أبي طالب رضي الله عنه، عناية: عبد الرحمن المصطاوي، دار المعرفة، بيروت، لبنان، الطبعة الثالثة: (١٤٢٦هـ-٢٠٠٥م).
- ديوان الحطيئة، اعتناء: حمدو طماس، دار المعرفة، بيروت، لبنان، الطبعة الثانية: (١٤٢٦هـ-٢٠٠٥م).
- ديوان الفرزدق، شرح علي فاعور، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى: (١٤٠٧هـ-١٩٨٧م).
- ديوان القطامي، تح: إبراهيم السامرائي، وأحمد مطلوب، دار الثقافة، بيروت، الطبعة الأولى: (١٩٦٠م).
- ديوان عدي بن زيد، تح: محمد جبار المعيد، دار الجمهورية للنشر والطبع، بغداد، طبعة: (١٣٨٥هـ-١٩٦٥م).
- ديوان المُسيَّب بن عَلس، تح: عبد الرحمن محمد الوصيفي، مكتبة الآداب، القاهرة، الطبعة الأولى: (١٤٢٣هـ-٢٠٠٣م).
- شرح أبيات سيويه، يوسف بن أبي سعيد الحسن بن عبد الله بن

المرزبان أبو محمد السيرافي، تح: محمد علي الريح هاشم، مكتبة الكليات الأزهرية، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة - مصر، طبعة: (١٣٩٤هـ-١٩٧٤م).

- شرح أبيات مغني اللبيب، عبد القادر بن عمر البغدادي، تح: عبد العزيز رباح - أحمد يوسف دقاق، دار المأمون للتراث، بيروت، لبنان، الطبعة: (ج١-٤) الثانية، (ج٥-٨) الأولى، (١٣٩٣-١٤١٤هـ).

- شرح الأشموني على ألفية ابن مالك، علي بن محمد بن عيسى، أبو الحسن، نور الدين الأشموني الشافعي، دار الكتب العلمية بيروت- لبنان، الطبعة الأولى: (١٤١٩هـ-١٩٩٨م).

- شرح التصريح على التوضيح أو التصريح بمضمون التوضيح في النحو، خالد الأزهرى، دار الكتب العلمية - بيروت- لبنان، الطبعة الأولى: (١٤٢١هـ-٢٠٠٠م).

- شرح ديوان لبيد بن ربيعة، تح: إحسان عباس، وزارة الإرشاد والأنباء، الكويت، طبعة: (١٩٦٢م).

- شرح جمل الزجاجي، أبو الحسن علي بن محمد بن علي بن خروف الإشبيلي، تح: فواز الشعار - دار الكتب العلمية - بيروت - الطبعة الأولى (١٤١٩هـ).

- شرح الشواهد الشعرية في أمات الكتب النحوية، محمد بن محمد حسن شرّاب، مؤسسة الرسالة، بيروت - لبنان، الطبعة الأولى: (١٤٢٧هـ-٢٠٠٧م).

- شرح شذور الذهب في معرفة كلام العرب، جمال الدين ابن هشام الأنصاري، تح: عبد الغني الدقر، الشركة المتحدة للتوزيع - سورية، الطبعة الأولى: (١٩٨٤).

- شرح شذور الذهب، شمس الدين محمد بن عبد المنعم بن محمد الجَوَّجَرِي القاهري الشافعي، تح: نواف بن جزاء الحارثي، عمادة البحث العلمي بالجامعة الإسلامية، المدينة المنورة - المملكة العربية السعودية، الطبعة الأولى (١٤٢٣هـ / ٢٠٠٤م).
- شرح المقدمة المحسبة، ابن بابشاذ، طاهر بن محمد، تح: خالد عبد الكريم، المطبعة العصرية، الكويت، الطبعة الأولى: (١٩٧٦ - ١٩٧٧م).
- شرح المكودي على الألفية، أبو زيد عبد الرحمن بن علي بن صالح المكودي، تح: عبد الحميد هنداوي، المكتبة العصرية، بيروت - لبنان، طبعة: (١٤٢٥هـ - ٢٠٠٥م).
- شرح شواهد الإيضاح، لابن برِّي، تح: عيد مصطفى درويش، الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية، القاهرة: طبعة: (١٤٠٥هـ).
- شعر زياد الأعجم، تحقيق حسين يوسف بكار، دار المسيرة، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى: (١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م).
- شعر عمرو بن شأس، تح: يحيى الجبوري، دار القلم، الكويت، الطبعة الثانية: (١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م).
- الشعر والشعراء، أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري، دار الحديث، القاهرة، طبعة: (١٤٢٣هـ).
- العُباب الزاخر واللباب الفاخر - حَرْف السين -، رضي الدين الحسن بن مُحَمَّد بن الحسن بن حيدر العدوي العمري القرشي الصَّغَانِي الحنفي، تح: مُحَمَّد حسن آل ياسين، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد - العراق، الطبعة الأولى (١٩٨٧م).
- علل النحو، محمد بن عبد الله بن العباس، أبو الحسن، ابن الوراق، تح:

- محمود جاسم محمد الدرويش، مكتبة الرشد - الرياض، السعودية،
الطبعة الأولى: (١٤٢٠هـ-١٩٩٩م).
- غريب الحديث، أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري، تح:
عبد الله الجبوري، مطبعة العاني، بغداد، الطبعة الأولى: (١٣٩٧هـ).
- الغريب المصنف، أبو عبيد القاسم بن سلام بن عبد الله الهروي
البغدادي، تح: رمضان عبد التواب، مكتبة الثقافة الدينية، بور سعيد،
مصر، الطبعة الأولى: (١٩٨٩م).
- الفائق في غريب الحديث، أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد، جار
الله الزمخشري، تح: علي محمد البجاوي - محمد أبو الفضل إبراهيم،
دار المعرفة، لبنان، الطبعة الثانية، د.ت.
- القلب والإبدال، ابن السكيت = ضمن الكنز اللغوي عن اللسان العربي،
(احتوى كتاب القلب والإبدال لابن السكيت، كتاب الإبل للأصمعي،
كتاب خلق الإنسان للأصمعي)، نشر وتعليق: أوغست هفner، المطبعة
الكاثوليكية للآباء اليسوعيين في بيروت، (١٩٠٣م).
- الكتاب، عمرو بن عثمان بن قنبر سيبويه، تح: عبد السلام محمد
هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، الطبعة الثالثة: (١٤٠٨هـ-١٩٨٨م).
- كتاب العين، الخليل بن أحمد بن عمرو بن تميم الفراهيدي، تح: مهدي
المخزومي، إبراهيم السامرائي، دار ومكتبة الهلال، طبعة دون تاريخ.
- اللباب في علل البناء والإعراب، أبو البقاء عبد الله بن الحسين بن عبد
الله العكبري البغدادي محب الدين، تح: عبد الإله النبهان، دار الفكر -
دمشق، الطبعة الأولى: (١٤١٦هـ-١٩٩٥م).
- لسان العرب، محمد بن مكرم بن منظور الأفرقي المصري، دار صادر،
بيروت - لبنان، الطبعة الثالثة: (١٤١٤هـ).

- اللوحة في شرح الملحّة، محمد بن حسن بن سباع بن أبي بكر الجذامي، أبو عبد الله، شمس الدين، المعروف بابن الصائغ، تح: إبراهيم بن سالم الصاعدي، عمادة البحث العلمي بالجامعة الإسلامية، المدينة المنورة، المملكة العربية السعودية، الطبعة الأولى: (١٤٢٤هـ - ٢٠٠٤م).
- اللّمع في العربية، أبو الفتح عثمان بن جني الموصلي، تح: فائز فارس، دار الكتب الثقافية - الكويت، د.ط. د.ت.
- مجاز القرآن، أبو عبيدة معمر بن المثنى التيمي البصري، تح: مُحَمَّد فؤاد سزكين، مكتبة الخانجي - القاهرة، الطبعة: (١٣٨١هـ).
- المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، أبو محمد عبد الحق بن غالب بن عطية الأندلسي، تح: عبد السلام عبد الشافي محمد، دار الكتب العلمية، لبنان - بيروت، الطبعة الأولى: (١٤١٣هـ - ١٩٩٣م).
- المحكم والمحيط الأعظم، أبو الحسن علي بن إسماعيل بن سيده المرسي، تح: عبد الحميد هنداوي، دار الكتب العلمية - بيروت، الطبعة الأولى: (١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م).
- المسائل البصريّات، أبو علي الفارسي، تح: محمد الشاطر أحمد محمد أحمد، مطبعة المدني، القاهرة، مصر، الطبعة الأولى: (١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م).
- مسند الشافعي، محمد بن إدريس الشافعي، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، طبعة (١٤٠٠هـ).
- معاني القرآن، أبو زكريا يحيى الفراء، تح: أحمد يوسف النجاتي ومحمد علي النجار وعبد الفتاح إسماعيل الشلبي، دار المصرية للتأليف والترجمة - مصر، الطبعة الأولى، (د.ت).
- معاني القرآن، أبو الحسن الأخفش الأوسط، تحقيق: هدى محمود قراعة، مكتبة الخانجي، القاهرة، الطبعة الأولى: (١٤١١هـ - ١٩٩٠م).

- معاني القرآن وإعرابه، أبو إسحاق إبراهيم بن السري الزجاج، شرح وتعليق: عبد الجليل عبده شلبي، عالم الكتب، بيروت - لبنان، الطبعة الأولى: (١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م).
- مغني اللبيب عن كتب الأعراب، جمال الدين يوسف بن هشام الأنصاري، تحقيق وشرح: عبد اللطيف محمد الخطيب، المجلس الوطني للثقافة والفنون، الكويت، الطبعة الأولى: (١٤٢١ هـ).
- المفصل في صناعة الإعراب، أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد، الزمخشري جار الله، تح: علي بو ملحم، مكتبة الهلال - بيروت - لبنان، الطبعة الأولى (١٩٩٣ م).
- المفضلّات، المفضل الضبي. تح: أحمد محمد شاكر - عبد السلام هارون. دار المعارف، القاهرة، الطبعة الثالثة: (١٩٦٤ م).
- المقاصد الشافية في شرح الخلاصة الكافية، أبو إسحاق الشاطبي، تح: مجموعة من الباحثين، جامعة أم القرى، مكة - السعودية، الطبعة الأولى (١٤٢٨ هـ - ٢٠٠٧ م).
- المقاصد النحوية في شرح شواهد شروح الألفية المشهور بـ «شرح الشواهد الكبرى»، بدر الدين محمود بن أحمد بن موسى العيني، تح: علي محمد فاخر، أحمد محمد توفيق السوداني، عبد العزيز محمد فاخر، دار السلام للطباعة والنشر، القاهرة - جمهورية مصر العربية، الطبعة الأولى: (١٤٣١ هـ - ٢٠١٠ م).
- مقاييس اللغة، أحمد بن فارس بن زكرياء القزويني الرازي، تح: عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، طبعة: (١٣٩٩ هـ - ١٩٧٩ م).
- المقتضب، أبو العباس محمد بن يزيد المبرد - تح: محمد عبد الخالق

- عضيمة، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية (١٣٩٩هـ).
- المقصور والممدود، أبو علي القالي إسماعيل بن القاسم، تح: أحمد عبد المجيد هريدي، مكتبة الخانجي - القاهرة، الطبعة الأولى: (١٤١٩هـ-١٩٩٩م).
- الممتع الكبير في التصريف، ابن عصفور الإشيلي، تح: فخر الدين قباوة، مكتبة لبنان ناشرون، الطبعة الأولى (١٩٩٦م).
- الوافي بالوفيات، صلاح الدين بن أيك الصفدي، تح: أحمد الأرناؤوط، تركي مصطفى، دار إحياء التراث العربي، بيروت - لبنان، الطبعة الأولى (١٤٢٠هـ-٢٠٠٠).

* * *

نظرات لغوية تقابلية في التراث العربي الإسلامي بين العربية والهندية والفارسية عند البيروني

أ. د. عباس علي السوسوة(*)

مدخل:

في تراثنا العربي الإسلامي نظرات لغوية (تقابلية) متفرقة منذ القرن الثاني الهجري وما تلاه، نجدها عند فئات مختلفة من العلماء والكتاب اهتماماتهم متنوعة، ما بين النحو والمعجم والبلاغة والإناسة المقارنة والرحلات والفلسفة. بعض النظرات جاء عرضاً لمناسبة سبقت في الكلام، وبعضها جاء قصداً للمقابلة بين مستويين لغويين ينتميان إلى لغة واحدة أحدهما يعد فصيحاً والآخر يعد ملحوناً كما في مؤلفات لحن العامة؛ وبعضها ألف قصداً في الألفاظ التي اقترضتها العربية من السنة أخرى فأجرى عليها المعربون تغييرات في أصواتها وأبنيته لتتناسب مع أنظمة العربية كما في كتب المعرب والدخيل ومواضع متفرقة من معاجمنا القديمة.

قليل جداً من هذه النظرات كان متفرداً، سابقاً لمعطيات العصر الذي أنشئت فيه، فنظرت إليها بعين التعاطف نظراً إلى السياق الثقافي الزمني

(*) جامعة تعز، أستاذ اللسانيات.

الذي أنتجت فيه، وفي الوقت نفسه أحللها وأعللها وأنتقدها، راجياً أن أكون قد وفقت فيما رُمت.

من اللازم ضبط مكونات العنوان؛ قلت: (نظرات لغوية تقابلية)، ولم أقل: (علم اللغة التقابلي) أو (اللسانيات التقابلية)؛ فأغلب الأعمال من قبيل الأنظار - إن شئت النظرات والملاحظات - المتفاوتة في مدى اقترابها من أفكار زماننا. وليست هذه الدراسة المتواضعة مناقبية غايتها التسييح والتمجيد لأسلافنا وتراثنا، وفي الوقت نفسه ليست إسقاطية تروم حشرها قسراً في ثياب معاصرة. إنما هي محاولة للقراءة في سياقها الزمني الثقافي، منطلقة من عصرنا ومعطياته.

وقد اجتمع تمجيد تراثنا مع حشره في ثياب معاصرة في «نظرية علم اللغة التقابلي في التراث العربي»^(١)، وهدفها بيان أسبقية العرب القدامى قبل علماء الغرب (ص ٢٤٢)، ومن أسئلتها: هل وجدت دراسات تقابلية قديمة بين العربية وغيرها؟ وأجاب: إن تعلم اللغات ودراساتها كان معروفاً من العصر الجاهلي!! فنجد ألفاظاً رومية وفارسية في شعر الأعشى وامرئ القيس كالسجنجل والديابوذ! (ص ٢٤٤). وكل ما عُرِضَ لم يتعدَّ كتاب سيبويه باب اطراد في الفارسية (هكذا) (٢٤٥)، ونظرات للجاحظ في البيان والتبيين (٢٤٦-٢٤٨). وختم واثقاً (٢٥٠) أن علم اللغة التقابلي ليس جديداً إلا باسمه، فهو موجود منذ الخليل وسيبويه والجاحظ والسيوطي!

وفي العنوان (في التراث العربي الإسلامي) ليدخل فيه من كان مسلماً، عربياً كان أم غير عربي، شريطة أن يكون عمله مكتوباً بالعربية. وفي العنوان

(١) لجاسم علي جاسم وأخيه زيدان، مجلة التراث العربي - دمشق، العدد ٨٣-٨٤ سبتمبر

(نظرات) بالتنكير حتى لا نُطالَبَ بالشمول الذي ليس في إمكاننا. ووصفنا النظرات بالتقابلية باعتبار ما أصبح مستقراً منذ عقود في أدبياتنا من أن دراسة نظامين لغويين بغرض معرفة أوجه الخلاف بينهما تعد دراسة تقابلية contrastive، ولست في حاجة للتنبيه على أن هذين النظامين قد يكونان: لغتين منتميتين إلى أسرة لغوية واحدة كالعربية والسريانية، أو لغتين كل منهما تنتمي إلى أسرة مختلفة كالعربية إزاء التركية، أو مستويين منتميين إلى لغة واحدة^(٢) كالمستوى الفصح في العربية مقابل أي مستوى آخر فيها، وسواء كان الهدف منها تعليمياً أم لم يكن. ونبدأ باسم الله تعالى بنظرات سيبويه (ت ١٨٠هـ) في الكتاب، ثم أنتقل إلى البيروني موضوع البحث.

وأبدأ بأن بعض أعلامنا العظام كانوا سابقين لعصورهم، كالخليل وتلميذه وعبد القاهر والفارابي والجاحظ، وابن خلدون؛ وأزيد أن الثلاثة الأوّل وآخرهم حمالو أوجه يمكن قراءة أعمالهم من وجهات نظر متعددة تتجدد في كل زمان. فإذا اقتصرنا على كتاب سيبويه - موضع كلامنا - فهو قرآن النحو بحق، وهو البحر الذي ينبغي لمن أراد الغوص على درره أن يتأنى ويهابه، وهو لمن أَلَفَ كتب المتأخرين التعليمية مجرد كتاب في

(٢) راجع محمود فهمي حجازي: مدخل إلى علم اللغة، ط ٧ دار قباء، القاهرة، ١٩٩٨،

ص ٢٤-٢٦، ط ١ عام ١٩٧٦، ومحمود إسماعيل صيني وإسحاق محمد الأمين:

التقابل اللغوي وتحليل الأخطاء، جامعة الملك سعود، الرياض ١٩٨١، ص ٧٧-٩٥.

وانظر Fisiak, J: Contrastive Linguistics and the Language Teacher

.Oxford Univ Press 1981

أما أحمد سليمان ياقوت «في علم اللغة التقابلي»، ص ٧، والبدر اوي زهران «في علم اللغة التقابلي دراسات نظرية»، ص ١١، فيجعلانه خاصاً بين لغتين من أسرتين مختلفتين! وليس بصحيح.

النحو والصرف، عبارته ومصطلحاته غير سائغة. وهو عند منتقدي النحو العربي عامة كتاب غير منظم ولا مرتّب تطغى عليه المعيارية لا الوصفية ويسيطر عليه المنطق وأفكار غير علمية كالعامل والعمل. وهو عند آخرين نموذج للسانيات الوصفية. وعند آخرين هو في النحو التوليدي التحويلي في أغلب أطواره ابتداء من النظرية المعيارية فالمعيارية الموسعة. وهو عند قومٍ سابق إلى نظرية السياق بكل مكوناتها حتى إنه يراعي ذلك في وضع القواعد. وهو أيضاً رائد للتداولية.

ولا أزعّم هنا أن سيبويه رائد الدراسات التقابلية في ترثنا، بل أزعّم أن لديه ملاحظات/ نظرات، يقابل فيها بين العربية والألفاظ الأعجمية/ الفارسية عندما تعرب عند العرب بكثرة استعمالهم لها منذ دهر، وما يحدث لها من تغيير في أواخرها صوتياً، وهل تخضع للأبنية العربية؟، ومتى تنصرف؟، ومتى يمتنع صرفها؟، في أربعة أبواب، خلافاً لزعم فرستيخ أن سيبويه قدم في الكتاب وصفاً كاملاً للعربية ولم يشر إلى الفارسية قط^(٣)!

الأول: باب الأسماء الأعجمية «اعلم أن كل اسم أعجمي أعرب وتمكن في الكلام فدخلته الألف واللام، وصار نكرة، فإنك إذا سميت به رجلاً صرفته، إلا أن يمنعه من الصرف ما يمنع العربي. وذلك نحو اللجام والديباج واليرندج والنيروز والفرند والزنجيل والأرندج والياسمين في من قال: ياسمينٌ كما ترى والسهريز والأجر...»^(٤). واضح أنه يقصد بالأعجمية

(٣) ينظر: كيس فرستيخ: العربية، ترجمة محمد الشرقاوي ٩٧. ولم يذكر علاقته بلغة أخرى في الفصل المخصص لسيبويه في: أعلام الفكر اللغوي، ص ٦٥-٨٥، وينظر زعم جاسم علي وأخيه المشار إليه من قبل «باب اطراد الفارسية»!!.

(٤) كتاب سيبويه، تحقيق عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي بالقاهرة، ١٩٨٨م، ٣/ ٢٣٤-٢٣٥.

الفارسية. وهذه لكثرة تردها في لسان العرب صارت عربية، تكون منكراً تارة وتدخل عليها أداة التعريف، حتى ليفترض أن تسمى بواحد منها إنساناً فتصرفه أو تعامله معاملة الممنوع من الصرف إذا وجدت فيه علل المنع. ونلاحظ أن الأسماء التي مثل بها أبنيتها الصرفية متعددة.

الثاني: باب ما كان من الأعجمية على أربعة أحرف وقد أُعرب فكسرتة على مثال مفاعل. نقل عن الخليل أنهم يلحقون جمعه الهاء كثيراً مثل «مَوْزَج ومَوَازِجَة، وَصَوَلَج وصَوَالِجَة، وَكُرْبُج وكِرَابِجَة، وَطِيلَسَان وطِيلَاسَة، وَجَوْرَب وجَوَارِبَة. وقد قالوا: جَوَارِبُ وكِيَالَج جعلوهما كالصوامع والكواكب. وقد أدخلوا الهاء أيضاً فقالوا: كِيَالِجَة، ونظيره في العربية صِقل وصِياقِلَة، وصِيرِف وصِيارِفَة، وَقَشَعَم وقِشَاعِمَة، فقد جاء إذا أُعرب كَمَلَك ومَلَائِكَة (...) وكذلك إذا كسرت الاسم وأنت تريد: آل فلان أو جماعة الحي أو بني فلان (...) الْمَسَامِعة والمِنَادِرَة والمِهَالِبَة والأَحَامِرَة والأَزَارِقَة (...)» يريد أن الألفاظ الأعجمية إذا تعربت وُجِعت جمع تكسير يكون على مثال مفاعلَة، فمثلها مثل العربية تلحقها الهاء أو لا تلحق، ويكون مفاعلَة لجموع البشر الممتنين لحي أو قبيلة ونحوهما^(٥).

الثالث: باب ما أُعرب من الأعجمية. يرى أن العرب كثيراً ما يغيرون الحروف الأعجمية التي ليست من حروفهم، وأنهم أخضعوا الألفاظ لأبنية العربية مثل درهم وبهرج ودينار وإسحاق ويعقوب وجورب، وربما تركوا الاسم على حاله إذا كانت حروفه من حروفهم بغض النظر عن البناء، بتفصيل كاف^(٦).

(٥) كتاب سيبويه ٣/ ٦٢٠-٦٢١.

(٦) ينظر كتاب سيبويه ٤/ ٣٠٣-٣٠٤.

الرابع: باب اطراد الإبدال في الفارسية. في ثلاث صفحات يذكر الإبدال المطرد لحروف الفارسية إذا دخلت العربية بتفصيل شديد، للأصوات التي لا توجد في العربية، وللأصوات التي لا تثبت في الفارسية وصلاً أو وقفاً، ويعلل لكل؛ ولتغييرهم بعض الحركات؛ ويذكر الإبدال غير المطرد في الحروف المشتركة بين اللغتين^(٧).

وهذا سبق زمني واضح منه لكل من تحدث بعده عن المعرب.

والآن نأتي إلى موضوع بحثنا البيروني (٣٦٢-٤٤٠) في «تحقيق ما للهند من مقولة، مقبولة في العقل أو مردولة»^(٨).

هو أبو الريحان، محمد بن أحمد البيروني^(٩) الخوارزمي، رياضي متفلسف مؤرخ مهندس فلكي، اطلع على فلسفة اليونان والهند، وارتفعت منزلته عند ملوك عصره من الغزنويين وغيرهم. أقام في الهند بضع سنين، ومات في بلده. صنف كتباً كثيرة منها: الآثار الباقية عن القرون الخالية طُبِعَ وتُرجم إلى الإنجليزية، الاستيعاب في صناعة الأسطرلاب، الجماهر في معرفة الجواهر، تاريخ الأمم الشرقية، القانون المسعودي في الهيئة والنجوم والجغرافية، تاريخ

(٧) كتاب سيبويه ٣٠٥/٤-٣٠٧.

(٨) أبو الريحان محمد بن أحمد البيروني: تحقيق ما للهند من مقولة، مقبولة في العلم أو مردولة، بعناية إدوارد سخاو، جمعية دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد الدكن ١٩٥٨، صورته الهيئة العامة لقصور الثقافة في مصر ١٩٩٩. وقد ورد سخو، وسخاو معاً.

(٩) في ضبط بائه: جاء في: كتاب الأنساب للسمعاني ٣٩٢/٢ بكسر الباء الموحدة، وتابعه ابن الأثير في اللباب ١/١٩٧، وليس في معجم البلدان لياقوت ج ١/٥٢٤-٥٢٦ موضع باسم بيرون أصلاً، ولكن في معجم الأدباء، ج ٥، ص ٢٣٣٠-٢٣٣١، تحقيق إحسان عباس أن بيروني - دون ضبط - معناها البراني لمن هو خارج البلد، وأنه رأى فهرست كتبه في ستين ورقة. وفي الصفدي ١٣٨/٨ بفتح الباء الموحدة وكسر الياء آخر الحروف... ونقل المعنى (البراني) عن ياقوت.

الهند طُبِعَ وتُرْجِمَ إلى الإنجليزية، الإرشاد في أحكام النجوم^(١٠). وفي الوافي بالوفيات أنه «عاصر ابن سينا وبينهما أسئلة وجوابات... دخل صحبة السلطان الغزنوي بلاد الهند وأقام بينهم وتعلم لغتهم، وأقام بغزنة حتى مات عن سن عالية... له الجواهر في معرفة الجواهر والصيدلة ومقالات الهيئة... والقانون المسعودي وتحقيق ما للهند من مقولة»^(١١). كان كتابه «الآثار الباقية عن القرون الخالية» قد طبع أول مرة في لندن بعناية إدوارد سخو مع ترجمته إلى الإنجليزية ١٨٧٩، وطبع ثانية في ١٩٢٣. أما «تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مردولة» فطبع بعناية سخو نفسه ١٨٨٧ في ٣٦٥ ص للمتن العربي ومقدمة بالإنجليزية في ٤١ ص. وترجمه إلى الإنجليزية ١٨٨٨^(١٢).

ليس الكتاب خالصاً للغة، بل هو دراسة إناسية للهند في القرن الهجري الخامس دراسة موازنة / تقابلية contrastive في الأديان والمعتقدات والعادات والتقاليد الاجتماعية، من تعدد أنواع الزواج^(١٣)، وكثرة أنواع الجهنمات - نار الآخرة مستقر العصاة - واختصاصاتها بأنواع المذنبين^(١٤)، وظواهر لغوية، باعتبار اللغة الحامل الرئيسي لكل ما سبق. يتضح من

(١٠) خير الدين الزركلي: الأعلام، ط دار العلم للملايين بيروت ١٩٨٥، ٦/ ٢٠٥-٢٠٦، وأحال على عدة مصادر.

(١١) الصفدي: الوافي بالوفيات ٨/ ١٣٨-١٤٢ تح س. ديدرينغ، وقد سها فجعله أحمد بن محمد.

(١٢) انظر: يوسف إليان سرقيس: معجم المطبوعات العربية والمعرية، مطبعة سرقيس بمصر ١٩٢٨، ج ١/ ٦١٥-٦١٦. المحقق عنده سخو وسخاو معاً.

(١٣) البيروني: تحقيق ما للهند ٨٢-٨٤.

(١٤) تحقيق ما للهند ٤٥-٤٩. وأخبرني الزميل أ.د. اشوك كومار سنهها، في منزلي بتعز في ١٠ مايو ٢٠١٠ أن بعض أسمائها الواردة عند البيروني ما زال في اعتقاد الناس في الهند، حتى الآن في حين أن بعضها منقرض.

الكتاب أن زاد المؤلف من العلوم العقلية وفير، فهو ينتقد أرسطو وفيثاغورس وغيرهما كثيرين. وهمنا في الكتاب نظراته اللغوية للهندية مقابل العربية ولغات أخرى.

ونحن لا نحب استباق النتائج غير أن بعض ما عرضه يفيد في تعرّف التطور / التغير في اللغات الهندية لا نجده في مصدر آخر^(١٥)، كما يزيل بعض الأوهام والأفكار النمطية الشائعة بين الدارسين عن بعض اللغات وخصائصها سواء أكانت الهندية أم غيرها.

من حديثه عن اللغة الهندية - التي لم يذكر لها اسماً غير هذا - نستنتج من خلال أوصافها المتناثرة في كتابه أنها اللغة السنسكريتية؛ فالعلوم والآداب والأشعار مدونة بها، وهو يصفها بأنها:

١ - «طويلة عريضة تشابه العربية، يتسمى فيها الشيء الواحد بعدة أسامٍ مقتضبة (...) فإنهم يسمون الشيء الواحد بأسماء كثيرة جداً. والمثال بالشمس فإنهم سمّوها بألف اسمٍ على ما ذكروا، كتسمية العرب الأسد بقريب من ذلك، بعضها مقتضبة اقتضاباً، وبعضها مشتقة من الأحوال المتغيرة أو الأفعال الصادرة. وهم يتبجحون بذلك، وهو من أعظم معائب اللغة، فموضوعها إيقاع اسم على كل واحد من الموجودات وآثارها بمواطأة بين نفر يعرف بها بعضُهم عن بعضٍ غرضه عند إظهار ذلك الاسم بالنطق»^(١٦).

ولعل ما ذكره البيروني يخفف من غُلواء بعض العرب قدماء ومحدثين، الذين يؤمنون بأن من ميزات العربية - دون سائر اللغات - كثرة المترادفات على معنى واحد. ولأن للشمس عند الهنود أهمية أعظم من الجمل والفرس

(١٥) تيواري: فصيلة اللغات الهندية الإيرانية، باتنا: أمربوركر للنشر ص ٩.

(١٦) تحقيق ما للهند ١٣ و ١٨٥-١٨٦.

والأسد والداهية وغيرها من الأشياء والمعاني عند العرب فقد كثرت أسماؤها حتى وصلت إلى ألف. وقد لمس المؤلف بعض أسباب حدوث الترادف، من اختصار للفظ، ووضع للصفة محل الاسم اكتفاء بها، أو الاقتصار على بعض أحواله.

ونحن وإن كنا لا نعد كثرة المترادفات ميزة لأي لغة فإننا لا نوافق المؤلف ولا غيره على عدّها عيباً يهولون من عواقبه، فمستعمل اللغة - أي لغة - لا يتاح له في الموقف اللغوي الاجتماعي المعين هذا المخزون - مهما تكن سعته - ليتتقي منه بين بدائل، بل الذي يحضر لديه ما اعتاده أبناء مجتمعه ما بين لفظ إلى ثلاثة، وقد لا يحضره إلا واحد. وليس عند مستعمل اللغة الترف، ولا الحيرة التي أصابت (خراش) حين تكاثرت الظباء عليه، فلم يدر ما يدع وما يصيد.

وكنا في بحث سابق عن الترادف في اللغة الهندوستانية^(١٧) - وهي لغة غير معربة - استخرجنا مترادفات الشمس - وغيرها - وهي: سورج، سوري، بهاسكر، دينكر، ديواقر/g^(١٨).

وإذا قابلناها بما ذكره البيروني^(١٩) - لأنه لم يذكر الألف كلها - وجدنا: سورج، بهان، ارك، دياكر، رب، بيتا، هيل. ولعل ديواكر هي التي كانت دياكر، تحولت الباء واواً بجامع الشفوية بينهما في المخرج.

(١٧) «الترادف في اللغة الهندية من خلال السينما» مقبول للنشر في مجلة علامات ١٤٣٩ هـ ولما ينشر حتى الآن.

(١٨) الترادف في اللغة الهندية ١٤. وفي البيروني ١٧٤-١٧٥ توكيد أن ألفاظ الشمس ألف، وشرح لبعض اشتقاقاتها. وقد أيد زملاؤنا الهنود في كليتي الآداب والتربية بجامعة تعز ما توصلت إليه وصححو لي بعض ما سمعته خطأ.

(١٩) تحقيق ما للهند ١٣٧.

والقمر يصاحب الشمس في الذكر عادة، أورد البيروني من أسمائه: سوم، جندر (جيم منقوطة بثلاث) إند، همك (على طرف الكاف نقطتان)، شيترشم، همرشم، شيتانس، شيتديت، هممرك (ز منقوطة بثلاث تنطق /J/) (٢٠). وهي الآن: تشاند، كانت، تشاندرما (٢١).

ولم يذكر البيروني مترادفات على الضوء/النور، وهي في الهندوستانية المعاصرة مستعملة أحياناً مرادفة للقمر، ودخل فيها لفظ عربي كما لا يخفى. وهي: روشني، بركاش، أوجالا، نور، سندرتا، سندر (٢٢).

٢- والمشارك اللفظي أيضاً كثير في الهندية مثل كثرته في العربية، فالهندية تتميز «بوقوع الاسم الواحد على عدة مسميات مُحوجة في المقاصد إلى زيادة صفات، إذ لا يفرق بينها إلا ذو فطنة لموضع الكلام وقياس المعنى إلى الورا والأمام، ويفتخرون بذلك افتخار غيرهم به، من حيث هو بالحقيقة عيب في اللغة! (...)» (٢٣).

ويوسع رأيه في أن المشارك عيب في الهندية وفي غيرها قائلاً: «فإذا كان الاسم الواحد بعينه واقعاً على عدة مسميات دل على ضيق اللغة وأحوج السامع إلى سؤال القائل عما يعنيه بلفظه، فسقط ذلك الاسم إما بآخر مثله يغني وإما بتفسير معرّف للمعنى. وإذا كان للشيء الواحد أسماء كثيرة ولم يكن سبب ذلك استبداد كل قبيلة أو طبقة بواحد منها وكان في الواحد منها كفاية، اتصفت الباقية بالهمر (هكذا) والهذيان والهذر، وصارت سبب التعمية والإخفاء أو تحمل

(٢٠) نفسه.

(٢١) الترادف في اللغة الهندية من خلال السينما ١٧.

(٢٢) الترادف في اللغة الهندية ١٨.

(٢٣) تحقيق ما للهند ١٣.

المشاق لحفظ الجملة (!) بلا فائدة غير ضياع العمر»^(٢٤).

قلت: لمس المؤلف بعض أسباب نشوء المشترك اللفظي، ومنها تعدد الوضع، وتنوع الاستعمال، حتى يصل الأمر إلى التعمية. وما قلناه عن الترادف نقوله عن الاشتراك، من أنهما إمكانيتان طَبَعَ الله - سبحانه وتعالى - جميع خلقه عليهما وعلى غيرهما من إمكانيات اللغة. فليست عيباً يُستحيا منه ولا ميزة يُفتخر بها. أما التعمية بالمشترك فلا تحدث إلا إذا قصد المتكلم إلى ذلك قصداً بالأحاجي والألغاز. وأما ما عدا ذلك فابن اللغة لا يبرز لديه إلا معنى واحد للفظ في الموقف المعين، ولا يقف موقف المتحير أمام كثرة المعاني، إذ لا وجود لها حينئذ. ويبدو أن منكري الترادف والاشتراك أرادوا - تحكماً منهم - أن تكون العربية منطقية أكثر مما أراد لها المناطقة كما قال محسب^(٢٥). بل إن بعضهم لا يرعوي عن القول بأنه تكثير للغة بما لا فائدة فيه^(٢٦)؛ ويزيد أنه فضلة لا يُحتاج إليها^(٢٧). وفي هذا اجترأ على مقام الخالق جل وعلا، ينبغي أن يتورع عنه الحصيف.

وكثرة المشترك في السنسكريتية لاحظها باحثون غربيون وهنود محدثون، ونُقِلَ «أن الكلمة الواحدة قد تفيد أكثر من اثني عشر معنى، ثم عقب على ذلك بقوله: إذا اعتبر تعدد المعنى علامة الحضارة فإن السنسكريتية ربما تزعم لنفسها أنها لغة قوم ذوي حضارة عالية»^(٢٨). ولا تعليق!

(٢٤) تحقيق ما للهند من مقولة ١٨٦.

(٢٥) ينظر: محيي الدين محسب: الثقافة المنطقية في الفكر النحوي - نحاة القرن الرابع الهجري نموذجاً ١١٧.

(٢٦) أبو هلال العسكري: الفروق في اللغة ١٣.

(٢٧) ينظر الفروق في اللغة ١٦ و ١٧.

(٢٨) أحمد مختار عمر: البحث اللغوي عند الهنود، دار الثقافة، بيروت ١٩٧٢م، ص ٢٠-٢١.

٣- ولا يقف اهتمام البيروني بالمشترك عند المقابلة بين الهندية والعربية بل يتعداهما إلى اليونانية، فهو يقول: إن «الإله والآلهة عند يونان من المشترك اللفظي، فتارات كثيرة يريدون بها الملائكة المختصة بعمل ما، كأن يقولوا: إله الريح، إله البحر (...) وتارة يريدون به خالق الكون مثلاً»^(٢٩). وبمثله قال سليمان البستاني في ترجمته «إلياذة هوميروس»^(٣٠).

٤- وفي مواطن يتحدث عن بناء الكلمة في أسماء أيام الأسبوع فيقول: «عندهم هي أسماء الكواكب السبعة بأشهر أسمائها، ويسمون الموقع من الأسبوع (بار) فيتبع اسم الكوكب على هيئة إتباع (شبه) في الفارسية عدة اليوم من الأسبوع»^(٣١).

فيوم الأحد: أدت بار، أي: للشمس^(٣٢)، ويوم الاثنين: سوم بار، أي: للقمر؛ ويوم الثلاثاء: منكل بار (بكاف فارسية)، أي: للمريخ. ويوم الأربعاء: بدبار، أي: لعطارد؛ ويوم الخميس: برهسبت بار (الباء الثانية مهموسة)، أي: للمشتري؛ ويوم الجمعة: شكر بار، أي: للزهرة؛ ويوم السبت: شنشجر (بجيم مثثة)، أي: لزلحل»^(٣٣).

(٢٩) تحقيق ما للهند من مقولة ٢٦-٢٧.

(٣٠) ينظر: إلياذة هوميروس معربة نظماً وعليها شرح تاريخي، بقلم سليمان البستاني، ط ١ بمصر ١٩٠٣م، ١/ ٧٨ و ٨٢ و ٨٣.

(٣١) أيام الأسبوع في الفارسية، روز هاي هفته، من السبت إلى الجمعة: شنبه، يك شنبه، دوشنبه، سه شنبه، چهار شنبه (جيم بثلاث نقط)، پنج شنبه (جيم بثلاث نقط)، جمعه. ينظر أحمد كمال الدين حلمي: المرجع في قواعد الفارسية ص ١٣. والملاحظ أن العربية وأخواتها أخذت الأيام من الأحد إلى الخميس من الأعداد الأساسية.

(٣٢) في أيامنا: أدت وار، فلعلها كانت /v/. والإبدال بين الواو والفاء المجهورة كثير في لغات الفصيحة الهندية.

(٣٣) تحقيق ما للهند من مقولة، ١٧١.

ويرى العالم الهندي تيواري (توفي ٢٣ مارس ٢٠٢١م) أن البيروني كان يصف حال اللغة الهندية الأدبية أيامه في القرن الحادي عشر الميلادي/ الخامس الهجري، وقد اختزل القسم الأخير من الكلمة السنسكريتية vaasara، فأصبح في اللسان الهندوستاني vaar أو وار، وفي البنجابي: vaar، وفي البنغالي بار^(٣٤).

٥- ولما كانت أي مقابلة بين لغتين تستلزم الحديث عن وحداتها الصوتية، وحروفها في الكتابة - وهما أمر واحد عند أكثر القدماء - فإن صاحبنا لم ينس ذلك، لكنه اكتفى باختلافها عن العربية والفارسية معاً وصعوبة نطقها وعدم التمييز بينها. وكان للإلف أثر في ذلك. قال: «هي مركبة من حروف لا يطابق بعضها حروف العربية والفارسية ولا تشابهها!، بل لا تكاد ألسنتنا ولهواتنا تنقاد لإخراجها على حقيقة مخارجها ولا آذاننا تسمع (هكذا ولعلها تسمح) بتمييزها من نظائرها وأشباهها»^(٣٥).

ويدخل في الاختلافات الصوتية أنه «يجتمع في لغتهم - كما يجتمع في سائر لغات العجم - حرفان ساكنان وثلاثة، وهي التي يسميها أصحابنا متحركات بحركة خفيفة، ويصعب علينا التفوه بأكثر كلماتها وأسمائها لافتتاحها بالسواكن»^(٣٦). وقد أحسن بقوله: (يصعب علينا) لأن للتعود في نطق اللغة منذ الصغر أثراً في السهولة، وأحسن في قوله: (أكثر كلماتها)، فالتركيب المقطعي في الهندية يسمح ببدء المقطع بصامتتين.

٦- وللمقاطع أثر في عروض الشعر في اللغات، ذكر بهذه التسمية أو

(٣٤) ينظر تيواري مرجع سبق: فصيلة اللغات الهندية ١٠-١٣.

(٣٥) تحقيق ما للهند ١٣.

(٣٦) نفسه ١٤.

بغيرها. والبيروني يذكر أهمية العروض عندهم الذي «لا يستغنون عنه، فإن كتبهم منظومة، وقصدهم أن يسهل استظهارها»^(٣٧). وقد اعترف أنه لم يطلع على شيء من كتبهم في أوزان الشعر^(٣٨). وقرر أن «كتبهم في العلوم مع ذلك منظومة بأنواع من الوزن في ذوقهم»^(٣٩). وهنا ينبغي أن نقر للهند بالسبق في المنظومات التعليمية.

وفي موضع يرى أن المتحرك مع ساكن وأكثر يسميه اليونان (سلابي)، ويسمون التفاعيل بالأرجل^(٤٠). وفعلاً فقد نقل السلابي syllabe فلاسفة المسلمين مثل الفارابي (ت ٣٣٩هـ) وشرحوه وابتكروا له اسماً عربياً: كل حرف غير مصوت أتبع بمصوت قصير قرن به فإنه يسمى المقطع القصير، والعرب يسمونه الحرف المتحرك، من قبل أنهم يسمون المصوتات حركات وكل حرف لم يتبع بمصوت أصلاً، وهو يمكن أن يقرن به، فإنهم يسمونه الحرف الساكن. وكل حرف غير مصوت قرن بمصوت طويل نسميه المقطع الطويل»^(٤١).

٨- استعمل البيروني الحروف العربية مع تعديلات عليها ليدل على أصوات غير عربية، لكنه للأسف لم يذكر كيف تنطق ولا قارب ولا شبه كما فعل علماء العربية مع الحروف الفروع مستحسنة وغير مستحسنة. وجدنا للكاف ثلاث صور: إحداها كاف بزيادة خط أفقي على ذراعها، فخمنا أنها

(٣٧) تحقيق ١٠٥، وأشار إليه أحمد مختار عمر: البحث اللغوي عند الهنود ١٢٢. والشعر الهندي كمي، ويسمح بالنبر والإطالة، كما قال الزميل تيوري.

(٣٨) تحقيق ١٠٦.

(٣٩) تحقيق ١٤.

(٤٠) تحقيق ١١٠.

(٤١) الفارابي: كتاب الموسيقى الكبير، تح غطاس عبد الملك خشبة، وزارة الثقافة بمصر ١٩٦٣، ص ١١٥٧. وعند ابن سينا شرح أوسع، انظره مع تعليق عبد الرحمن الحاج صالح: «بحوث ودراسات في اللسانيات العربية» موفم للنشر، الجزائر ٢٠١٢م، ج ٢، ص ١٧٥-١٧٧.

الكاف الفارسية، وإحداها بنقطتين أفقيتين على ذراعها. وللجيم صورتان: إحداها بثلاث نقط خمّناها الجيم الفارسية، وزاي عليها ثلاث نقط خمّناها الجيم الشامية، وباء بثلاث نقط خمّناها الباء المهموسة. ذكرنا ذلك في مواضعه. وننتهي من الكتاب دون أن نعلم منه عدد حروف هذه اللغة الطويلة العريضة - حسب وصفه -، وقد نقل أحمد مختار عمر عن بولر أن أقدم أبجدية هندية من ٥١ رمزاً^(٤٢). ويقول منير وليامز في مقدمة المعجم السنسكريتي: إن حروفها ٥٢^(٤٣).

ومن الطريف أن يذكر أن العلماء الهنود يعزون سبب نشأة علم النحو عندهم إلى سبب ديني متعلق بنطق خاطئ للجملة حرّف دلالتها، مثلها مثل حكاية بنت أبي الأسود الدؤلي مع أبيها «... وكان قوانين يسيرة كما وضعها في العربية أبو الأسود الدؤلي»^(٤٤).

وخلاصة القول أن للبيروني نظرات تقابلية ناضجة سابقة زمنها - فيها عيوب - بين العربية ولغة الهند في القرن الخامس، وليس عنده علم اللغة التقابلي، وينبغي أن توضع نظراته في سياقها الزماني والمكاني. أسأل الله تعالى أن أكون قد وفقت بعض التوفيق. والحمد لله أولاً وآخراً^(٤٥).



(٤٢) أحمد مختار عمر: البحث اللغوي عند الهنود. ص ٢٥ وفي ٢٧ عن آخرين أن عددها ٦٥.

(٤٣) ينظر مقدمة معجمه Williams; M.M: "A Sanskrit English Dictionary; Etymologically and Philologically Arranged.(Motial Banarsidass Publishers; Delhi; 1977, p7.

(٤٤) تحقيق ما للهند من مقولة ١٠٥. وانظر تعليق أحمد مختار عمر في البحث اللغوي عند الهنود ١٤١.

(٤٥) الشكر الجزيل للأستاذ حسين منصور الشيخ الذي نسق البحث.

المصادر والمراجع

- ابن الأثير الجزري (عز الدين علي بن محمد الشيباني): اللباب في تهذيب الأنساب، مكتبة المثنى، بغداد ١٩٨٠ م.
- أحمد سليمان ياقوت: في علم اللغة التقابلي، ط ١، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ١٩٨٤ م.
- أحمد كمال الدين حلمي: الجامع في قواعد اللغة الفارسية، منشورات ذات السلاسل بالكويت، ١٩٨٦ م.
- أحمد مختار عمر: البحث اللغوي عند الهنود، دار الثقافة بيروت، ١٩٧٢ م.
- البدراوي زهران: في علم اللغة التقابلي، دراسات نظرية، دار الآفاق العربية، القاهرة، ٢٠٠٨ م.
- البيروني (أبو الريحان محمد بن أحمد): تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مردولة، تحقيق إدوارد سخاو، الهيئة العامة لقصور الثقافة في مصر، ١٩٩٩ م.
- جاسم علي جاسم وزيدان علي جاسم: «نظرية علم اللغة التقابلي عند العرب»، مجلة التراث العربي، دمشق، العدد ٨٣-٨٤، سبتمبر ٢٠٠١ م.
- خير الدين الزركلي: الأعلام، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٨٥ م.
- سليمان البستاني: إلياذة هوميروس معربة نظماً وعليها شرح تاريخي، مط البستاني بمصر، ١٩٠٣ م.

- السمعاني (أبو سعد عبد الكريم بن محمد): كتاب الأنساب، صححه عبد الرحمن بن يحيى المعلمي، جمعية دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد الدكن ١٩٦٣ م.
 - سيويه (أبو بشر عمرو بن عثمان بن قنبر): كتاب سيويه، تحقيق عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي بالقاهرة، ١٩٨٣ م.
 - الصفدي (صلاح الدين خليل بن أيبك): الوافي بالوفيات، تحقيق س. ديدرينغ، فرانز شتاينر، فيسبادن ١٩٧١ م.
 - عباس علي السوسوة: «الترادف في اللغة الهندية من خلال السينما»، مقبول في علامات في النقد ولم ينشر.
 - عبد الرحمن الحاج صالح: بحوث ودراسات في اللسانيات العربية، ج ٢، موفم للنشر، الجزائر ٢٠١٢ م.
 - العسكري (أبو هلال الحسن بن سهل): الفروق في اللغة، مكتبة القدسي بالقاهرة ١٣٥٣ هـ.
 - الفارابي (أبو نصر محمد بن محمد بن طرخان بن أوزلغ): كتاب الموسيقى الكبير، تحقيق غطاس عبد الملك خشبة، وزارة الثقافة مصر ١٩٦٣ م.
- كيس فرستيخ:
- أعلام الفكر اللغوي - التقليد اللغوي العربي، ترجمة أحمد شاكر الكلابي، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت ٢٠٠٧ م.
 - العربية - تاريخها ومستوياتها وتأثيرها، ترجمة محمد الشرقاوي، المجلس الأعلى للثقافة بمصر، ٢٠٠٣ م.
 - محمود إسماعيل صيني وإسحاق الأمين: التقابل اللغوي وتحليل الأخطاء، جامعة الملك سعود ١٩٨١ م.

- محمود فهمي حجازي: مدخل إلى علم اللغة، ط٨، دار قباء بالقاهرة ١٩٩٧م.
- محيي الدين محسب: الثقافة المنطقية في الفكر النحوي - نحاة القرن الرابع نموذجاً، مركز الملك فيصل بالرياض ١٤٢٨هـ.
- ياقوت بن عبد الله الحموي: معجم الأدباء = إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب) تحقيق إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي، بيروت ١٩٩٣م.
- معجم البلدان، دار صادر، بيروت د.ت.
- يوسف إيلان سركيس: معجم المطبوعات العربية والمعربة، مط سركيس بمصر ١٩٢٨م.

الأجنبية

- Fisiak;j: Contrastive Linguistics and The Language Teacher.(Oxford Univ Press;1981).
- Tiwari; k.m: Indo-Iranian Languages Family (Patna; Amarpurker Publishers.2000).
- Williams;m.m: A Sanskrit English Dictionary ;Etymologically Philologically Arranged (Motial Banarasdass; Delhi>1977).



المقالات والآراء

مدرسة (دار الحديث الأشرفية) إعدادية دار الحديث النبوي الشرعية للبنين

أ. د. مازن المبارك^(*)

هي بناء لصارم الدين قايماز بن عبد الله النجمي في العسرونية، اشتراه الملك الأشرف سنة ٦٢٨هـ، وكان بجانبه حمام لقايماز، اشتراه الملك الأشرف، وضمه إلى البناء الذي أقامه مدرسة أو داراً للحديث، وجعل الحمام داراً لسكن المدرّس.

وافتح دار الحديث في النصف من شعبان سنة ٦٣٠هـ، وجعل أمرها والتدريس فيها إلى شيخ الإسلام المعروف بأبي عمرو بن الصلاح. والملك الأشرف الذي نُسِبَتْ إليه دار الحديث الأشرفية، هو موسى بن الملك العادل محمد بن أيوب، توفي سنة ٦٣٥هـ، وكان عادلاً محبوباً محبباً للخير، أكثر من بناء دور العلم والمساجد، وبنى في دمشق مسجد أبي الدرداء، ومسجد التوبة، وجامع الجراح، ودارين للحديث النبوي، إحداهما في العسرونية، وهي المعروفة اليوم بدار الحديث الأشرفية، والثانية في سفح قاسيون، وأوقف الأولى على الشافعية، وخص الثانية بالحنابلة.

وحصل الأشرف على نعل النبي ﷺ من ابن أبي الحديد الذي أوصى به إليه، فوضعه في دار الحديث، وقصة حصوله عليه وصورته وموضعه

(*) عضو مجمع اللغة العربية بدمشق.

مفصلة في الكتب التي تحدثت عن دار الحديث الأشرفية.

ومن الجدير التنويه بهذه الكتب التي تناولت تاريخ الدار، وبناءها، وذكر أوقافها، وأسماء شيوخها، وما طرأ عليها من حرائق وأحداث، وتخلف وازدهار، ومن أشهرها: البداية والنهاية لابن كثير، والدارس في تاريخ المدارس للنعمي، ومنادمة الأطلال لعبد القادر بدران، ودار الحديث الأشرفية للدكتور محمد مطيع الحافظ.

ويرى من يعود إلى هذه الكتب وغيرها أن البناء مدرسة فيها مسجد أو قاعة لصلاة العاملين فيها والدارسين، وليست جامعاً أقيم للصلاة للعامة، ويقرأ في تلك الكتب كثيراً من أخبار الدار، ووثائق أوقافها وأحوال بنائها ونفقات العاملين والدارسين فيها، وما يوزع عليهم من أقلام وأوراق، ومن طعام وشراب، ومن ملح وثلج، ويعرف مقدار ما يأتيها من أوقاف، منها ثلث قرية حزرما، ومنها عدد من الحوانيت في باب البريد وغيرها!

ولو أن القارئ مرّ على أسماء الشيوخ الذين سكنوا في دارها، أو تولّوا التدريس فيها لعرف مقدار ما خرّجت من طلاب وعلماء، وما قرئ فيها من كتب! بل ما ألّف فيه أيضاً من كتب.

فلقد كان أول من درّس فيها ابن الصّلاح، ثم تلاه كبار علماء الحديث، فكان منهم أبو شامة، والإمام النووي، والمزّي، والسبكي، وابن كثير، وغيرهم. وكانت دروسهم مشهورة، ومجالسهم غاصة يحضرها كثير من العلماء والأعيان، وكان ممن يحضر الدروس في دار الحديث وغيرها أيضاً رجال كابن خلّكان وكصلاح الدين الأيوبي.

وكان ممن درّس فيها الشيخ يوسف والد الشيخ بدر الدين الحسني، وقال عنها: «دار الحديث الأشرفية أنست على التقوى» وذلك في رسالته التي بعث

بها إلى الأمير عبد القادر الجزائري يطلب فيها مساعدته على انتزاع الدار ممن اشتراها، وإعادتها إلى ما أنشئت من أجله، فلقد مرت الدار في تاريخها بأحداث مؤسفة: منها ما ذكره ابن شامة من خراب أصابها سنة ٦٣٧ هـ وسنة ٦٥٨ هـ^(١)، منها حريق أصابها سنة ٧٠٢ هـ، وقد تأخرت حالها بعد الحريق الذي أصابها حتى آل أمرها إلى رجل غير مسلم اتخذ إحدى قاعاتها مستودعاً للخمور التي يبيعها، فقيض الله لها بعد حين الشيخ يوسف والد الشيخ بدر الدين الحسني الذي استطاع عن طريق عارف حكمت في الأستانة وبمساعدة الأمير عبد القادر الجزائري الذي دفع ما استعاد به الدار ورّممها ووقفها على الشيخ يوسف وذريته، وقد أُرّخت هذه الحجة الوقفية بتاريخ ٢ جمادى الأولى سنة ١٢٧٢ هـ، وقام فيها بعد ذلك الشيخ بدر الدين بن يوسف، فأحيّاها وأعاد إليها نشاطها وجعلها مركز إشعاع علمي وروحي.

ومن الجدير بالذكر أن الأمير عبد القادر الجزائري حين تمّ استلام المدرسة وبدئ بترميمها قام في رجب ١٢٧٣ هـ في المدرسة النورية بقراءة لصحيح البخاري حضره الشيخ يوسف، وكان موعد الدرس بعد صلاة الظهر إلى صلاة العصر، وكان درس الختام لكتاب صحيح البخاري في آخر أيام رمضان، وانتهت الجلسة بقصيدة ألقاها ناظمها الشيخ يوسف بحضور الطلبة والأعيان، قال فيها:

باب القبول لهذا الختم قد فتحا	فلاح من يمنه بدر السعود ضحى
أما ترى السعد قد لاحت بشائره	وطائر اليمن في أدواحه صدحا
اسأل إلهك ما ترجوه من أمل	واضرع إليه فوجه القرب قد وضحا
وابسط يديك إلى مولاك مبتهلاً	فإن من أمّ باب الله قد نجحنا

(١) ذيل الروضتين ١٦٩ و ٢١٠.

وانتقل الأمير بعد ذلك فقرأ (الإتقان) في الجقمقية، ثم قرأ (الشفاء) والصحيحين في مشهد الحسين بالجامع الأموي^(٢).

ومنها ما ذكره بدران بعد سنة ١٢٠٠ هـ^(٣)، ومنها حريق سنة ١٩١٢ أصابها وذهب بمكتبة الشيخ بدر الدين الحسني.

ثم أعيد بناؤها وتجدد نشاطها أيام الشيخ بدر الدين الحسني الذي درس عليه كبار العلماء كالقدر والخطيب والبيطار وفرفور والرفاعي والرنكوسي والأتاسي والعطار والحلبي والرنكوسي ودبس وزيت (الحافظ) والمبارك والقوتلي والدوجي وكثيرون غيرهم.

وكانت للشيخ البدر بدار الحديث عناية خاصة، فقد كانت فيها غرفة أبيه، وكانت له من بعد أبيه مكتبة ومعتكفاً، وكانت المدرسة التي خرج فيها عدداً من كبار العلماء. وأذكر حادثة وقعت أيام الشيخ عليه رحمة الله ورضوانه، وذلك حين طرق بابها عدد من تجار العصرية يريدون صلاة العصر في مسجدّها، فخرج إليهم الشيخ وصدّهم قائلاً: إن فيها مسجداً لطلابها وللعاملين فيها، وليس فيها (جامع) لعامة الناس، والجامع الأموي قريب وعليهم أن يصلّوا فيه مع الجماعة، وأغلق الباب دونهم.

وأوصى الشيخ بدر الدين ألا تُترك الدار، وأن تبقى قائمة بخدمة الحديث النبوي، فقام طلابه من بعده ولا سيما الشيخان المكتبي والرنكوسي، واستعانوا بالتجار، وتألّفت لجنة الإشراف على الدار، وبذلت جهود خيرة حتى صدر مرسوم جمهوري سنة ١٩٥٤م بجعلها مدرسة شرعية باسم (إعدادية دار الحديث النبوي الشرعية للبنين)، ووُضعت لها

(٢) أعيان دمشق في القرن الثالث عشر: ٧٩٥.

(٣) منادمة الأطلال ٢٠ ومابعدّها.

الأنظمة والمناهج التدريسية، وتُشرف وزارة التربية على امتحاناتها، ويُمنح فيها الطلاب الشهادة الإعدادية الشرعية المعادلة للإعدادية العامة. وتولى إدارتها عدد من الشيوخ الأفاضل. وهي اليوم بإدارة الشيخ حسين صعبية، الذي رأيت اهتمامه وحسن رعايته للمدرسة، مما جعلها قبلة للراغبين من الطلاب والدارسين. ويجري العمل فيها وفق نظام تشرف عليه جمعية دار الحديث. وأسأل الله أن تبقى الأشرفية مدرسة للإشعاع النبوي تتابع رسالة واقفها، وأن يوفق القائمين عليها بمساعدة وزارة الأوقاف إلى إحياء أوقافها والنهوض بما أُوقفت له.

* * *

تذكرة بقاعدة كتابة ألف التفريق

وبضرورة نصب الواو والياء بعد الناصب في آخر الكلمة

أ. د. مكي الحسني^(*)

ليس من النادر أن ألاحظ خطأً في زيادة (ألف) في غير الموضع الذي قررته القاعدة، فرأيت من المفيد التذكير بها في هذه الصفحة.

الضمير	الماضي	المضارع	المجزوم	المنصوب	الأمر
هو	كتب	يكتبُ	لم يكتبْ	لن يكتبَ	فليكتبْ
هي	كتبت	تكتب	لم تكتبْ	لن تكتبَ	فلتكتبْ
هم	كتبوا ^(١)	يكتبون	لم يكتبوا	لن يكتبوا	فليكتبوا
هُنَّ	كتبن	يكتبنَ	لم يكتبنَ	لن يكتبنَ	فليكتبنَ
هو	دعا	يدعو	لم يدعْ	لن يدعو ^(*)	فليدعْ
هي	دَعَتْ	تدعو	لم تدعْ	لن تدعو	فلتدعي
هم	دَعَوْا	يدعونَ	لم يدعوا	لن يدعوا	فليدعوا
		(يَفْعُلُونَ) ^(٢)			
هُنَّ	دَعَوْنَ	يدعونَ ^(٣)	لم يدعُونْ	لن يدعُونْ	فليدعُونْ
		(يَفْعُلْنَ)			

(*) عضو مجمع اللغة العربية بدمشق.

الضمير	الماضي	المضارع	المجزوم	المنصوب	الأمر
هو	سَعَى	يسعى	لم يَسْعَ	لن يَسْعَى	فَلْيَسْعَ
هي	سَعَتْ	تسعى	لم تَسْعَ	لن تسعى	فَلْتَسْعَ
هم	سَعَوْا	يسعون ^(٢)	لم يَسْعَوْا	لن يَسْعَوْا	فَلْيَسْعَوْا
هَنَّ	سَعَيْنَ	يسعين ^(٣)	لم يَسْعَيْنَ	لن يَسْعَيْنَ	فَلْيَسْعَيْنَ
هو	مَشَى	يمشي	لم يَمْشِ	لن يَمْشِيَ	فَلْيَمْشِ
هي	مَشَتْ	تمشي	لم تَمْشِ	لن تَمْشِيَ	فَلْتَمْشِ
هم	مَشَوْا	يمشون ^(٢)	لم يَمْشَوْا	لن يَمْشَوْا	فَلْيَمْشَوْا
(ولكن أنتم امشوا)					
هَنَّ	مَشَيْنَ	يمشين ^(٣)	لم يَمْشَيْنَ	لن يَمْشَيْنَ	فَلْيَمْشَيْنَ
(أنتم امشين)					
أنتِ	مَشَيْتِ	تَمْشِينَ	لم تَمْشِي	لن تَمْشِيَ	فَلْتَمْشِي
(تفعين: الياء هنا ياء المخاطبة!)					
أنتن	مَشَيْتُنَّ	تَمْشِينَ	لم تَمْشَيْنَ	لن تَمْشَيْنَ	فَلْتَمْشَيْنَ
(تفعِلن): (الياء هنا هي لام الفعل [لام أصلية]: مشى يمشي)					

(١) - هذه «ألفُ التفريق»:

- بين واو الجماعة (كتبوا) وواو صيغتين للمضارع المجزوم أو المنصوب من صيغ الأفعال الخمسة (لم يكتبوا، لن تكتبوا، لم ينجؤا، لم يَزُمُوا).
- وبين واو جمع المذكر السالم المرفوع والمضاف (جاء لاعبو كرة القدم)، وواو الفعل الثلاثي المعتل الآخر بالواو في صيغة المضارع المفرد (دعا يدعو، نجا ينجو...).

(٢) بحذف لام الفعل.

(٣) بإبقاء لام الفعل.

(*) لجأ غير قليل من الشعراء (وبينهم فحولُ كالمتنبي والمعرّي) إلى تسكين الواو والياء

بعد الناصب، كقول المعرّي:

فكيف تُخَطُّ في القِرطاس رسماً وشأنُ الشُّحْبِ أن تمحو الرسوما

وقول المتنبي:

إذا ما شئت أن تسَلُو حبيبا فأكثرُ دونه عددَ الليالي

وهذا ما سُمِّي «ضروراتٍ شعرية».

أما القرآن الكريم فقد وردت في آياته الواو والياء مفتوحتين بعد الناصب، نحو

قوله تعالى: ﴿لَنْ نَدْعُو﴾ [الكهف: ١٤] - ﴿عَسَى اللَّهُ أَنْ يَمْعُو﴾ [النساء: ٩٩] - ﴿حَقَّ

يَأْتِينَا بِقُرْبَانٍ﴾ [آل عمران: ١٨٣] - ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفَلَكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ﴾

[إبراهيم: ٣٢] - ﴿سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لِتَجْرِيَ الْفَلَكَ فِيهِ بِأَمْرِهِ﴾ [الجاثية: ١٢] - ﴿لِيَجْزِيَكَ

أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا﴾ [القصص: ٢٥] - ﴿عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى﴾ [الأحقاف: ٣٣] - ﴿كَلَّا إِذَا

بَلَغَتِ التَّرَافِيَ﴾ [القيامة: ٢٦]...

• قال صاحب «جامع الدروس العربية» ١٣٨/٢، الشيخ الأزهري مصطفى الغلاييني:

«ورسّم المصحف لا يقاس عليه». لذا نجد في آخر سورة الكهف: ١١٠ قوله تعالى:

﴿فَن كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا﴾ بزيادة ألفٍ بعد واو (يرجو)، وكذلك (ندعو) في

الكهف: ١٤: ﴿لَنْ نَدْعُو﴾.

ونجد في سورة الفرقان: ٤: ﴿...فَقَدْ جَاءَ وظُلُمًا وُزُورًا﴾ بلا ألفٍ بعد واو الجماعة.

وكذلك في الآية: ﴿...وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيرًا﴾ [الفرقان: ٢١].

* * *

الكشكول اللغوي (١)

الكشكول - المِخلَة - الكُنَّاش

الكنيس - الكنيسة - الكنيسة

أ. د. رفعت هزيم^(*)

لم يرد لفظ «الكشكول» في «الصحاح» أو «لسان العرب» أو «القاموس المحيط» أو سواها من المعاجم، ولم يرد - فيما أعلم - في تصانيف المتقدمين وأشعارهم، وربما كان أول الأمر في لغة العامة؛ ولذا تجنّب اللغويون والأدباء حتى القرن العاشر الهجري الذي عاش فيه بهاء الدين محمد بن الحسن العاملي الحارثي (٩٥٣-١٠٣١هـ/١٥٤٧-١٦٢٢م)، وهو عالم وأديب من الشيعة الإمامية، وُلد في بعلبك، ورحل - وهو فتى - مع أبيه إلى قزوين، وأجاد الفارسية، وزار مصر والشام، وأدى فريضة الحج في مكة المكرمة، ثم استقرّ في أصفهان، وتوفي ودُفن هناك. ويظهر أنّ العاملي كان أول من استعمل هذا اللفظ في لغة العلم والأدب، إذ جعل «الكشكول» عنواناً لواحدٍ من أشهر مؤلفاته، وهو كتابٌ موسوعيٌّ في خمسة مجلّدات، حكى في مقدمته سبب تأليفه والداعي إلى اختيار عنوانه، ويبيّن منهجه وأجمل مضمونه، فقال: إنه ألّف قبله كتاباً سمّاه «المِخلَة» حوى «من كل شيء أحسنه وأحلاه»، وذكر أنه ضمّنه «ما تشتهي الأنفس وتلذّ الأعين من جواهر التفسير وزواهر

(*) عضو مجمع اللغة العربية بدمشق.

التأويل، وعيون الأخبار ومحاسن الآثار، وبدائع حكم يُستضاء بنورها، وجوامع كَلِمٍ يُهتدى ببدورها، ونفحات قدسيّة... وأبيات رائعة...، وحكايات شائقة»، ثم عثر بعد انتهائه من تأليفه «على نواذر تتحرك لها الطباع، وتهشّ لها الأسماع، وطرائف تسرّ المحزون، وتُزري بالذّرّ المخزون، ولطائف أصفى من رائق الشراب وأبهى من أيام الشباب، وأشعار أعذب من الماء الزلال والطف من السّحر الحلال، ومواعظ لو قرئت على الحجارة لانفجرت أو الكواكب لانتثرت، فاستخرتُ الله تعالى ولقّفتُ كتاباً ثانياً جعلته كسفيّ مختلط رخيصه بغاليه، أو عقدٍ انفصم سلكه فتناثرت لآليه، وسمّيته بالكشكول ليُطابق اسمه اسم أخيه، ولم أذكر شيئاً مما ذكرته فيه، وتركتُ بعض صفحاته على بياضها لأُقيد ما يسنح من الشوارد في رياضها، كيلا يكون به عن سعة ذلك نكول، فإن السائل في معرض الحرمان إذا امتلأ الكشكول»^(١).

ولتفحصْ عنواني الكتابين كي نفهم سبب اختيار العاملي لهما، فأما الأول فقد بين اللغويون اشتقاقه ومعناه، فقال الليث: «الْخَلَى: هو الحشيش الذي يُحتشُّ من بقول الربيع، وبه سُميت المِخلَة، وقال اللحياني: خَلَى في المِخلَة: جمع»^(٢). وأما «الكشكول» فلعل «محيط المحيط» أول من أورده، فذكر أنه لفظٌ فارسيّ لـ «قدح المُكدي يجمع فيه رزقه»، ثم بين أدي شير أصله الفارسيّ، فهو «مرْكَب من: كَشْ؛ أي: جَرٍّ، ومن: كُول، أي: كتف»^(٣)، ويُطلق على «وعاء يدوّرهُ الشحاذون بأيديهم، وكيس الفقراء يضعون فيه حاجياتهم»^(٤). وهذا يعني أن العاملي أهمل الدالّتين المعروفتين للفظين العربي والفارسي،

(١) العاملي ٤.

(٢) اللسان (خلّى).

(٣) أدي شير ٦.

(٤) المعجم الذهبي: ٤٦٩.

واستعملهما مجازاً بمعنى «المختارات» اليوم؛ ليجعلهما عنوانين لكتابه؛ لأنهما يتضمنان موضوعات شتى، فيناظران بذلك «المخللة» و«الكشكول»؛ لأنهما يحويان كل ما جُمع، وقد صرّح بنفسه بأنهما - عنده - مترادفان. وبالرغم من أن العلماء والباحثين أثّنوا على كشكول العاملي فإنّ هذا اللفظ ما يزال إلى اليوم مهجوراً، غير أن لفظاً آخر يشبهه في الدلالة ويشاركه في العُجمة، ويُستخدم عنواناً للتأليف هو «الكُنّاش» الذي أهمله «الصحاح» و«لسان العرب» و«القاموس المحيط» أيضاً، غير أن صاحب «التاج» ذكر أن الكُنّاشة «أوراق تُجعل كالدفتريّ في الفوائد والشوارد للضبط، هكذا يستعمله المغاربة، واستعمله شيخنا في حاشيته على هذا الكتاب كثيراً»^(٥). ولكن الشهاب الخفاجي الذي سبقه بقرن ونصف (ت ١٠٦٩هـ / ١٦٥٩م) ذكر أصل اللفظ وأوضح دلالاته، فقال: «كُنّاش بتخفيف النون بزنة غُراب: لفظٌ سريانيّ معناه المجموعة والتذكرة، والكُنّش: الجماعة كما أخبرني به بعض الثقات من الأجناد»^(٦). ويُثبت ذلك أنه في السريانية kônâšâ - بالتخفيف أيضاً - «مجموعة، جَمْع» وهو من الفعل الثلاثي knaš «جمع، ضمّ»^(٧). ثم بيّن الخفاجي موضع استعماله، فقال: «وقد وقع هذا اللفظ كثيراً في كلام الحكماء وسمّوا به بعض كتبهم، كما يعرفه من طالع كتب الحكمة»^(٦). ويؤكد الطبيب المعروف ابن أبي أُصيبة (ت ٦٦٨هـ / ١٢٧٠م) ذلك؛ لأنه يورد في كتابه «عيون الأنباء في

(٥) التاج (كنش)، ولم يذكر الكُنّاش، وهو مصدر ما ورد في «محيط المحيط» و«المعجم الوسيط» اللذين حذوا حذوه.

(٦) شفاء الغليل: ٢٦٣.

(٧) برصوم ١٥٥، وفي السريانية أيضاً الفعل المضعف kanneš بالدلالة نفسها، وفي نخلة ٢٠٤: كُنّاشة knîšôta: مجموعة كالدفتريّ فيها فوائد وشوارد.

طبقات الأطباء» هذا اللفظ مراراً عنواناً لمؤلفات كثيرة يجمع بينها أنها كلها في الطب، وأن معظم مؤلفيها الذين يقولون: «إنهم من الأطباء المشهورين بعد وفاة جالينوس» مسيحيون وبعضهم من السريان^(٨)، ومنهم آهرون المعروف بالقسّ الذي عاش قبل الإسلام، وألف كنّاشاً بالسريانية في ثلاثين مقالة ثم ترجمه إلى العربية طبيب البصرة ماسرجويه اليهودي المعاصر لأبي نواس، وجورجيس بن جبريل بن بختيشوع الذي كان عند الخليفة المنصور في بغداد، وله: «الكنّاش» بالسريانية، وحنين بن إسحق (ت ٢٩٨هـ / ٩١١م) صاحب «كناش الخفّ»، وعلي بن العباس المجوسي الذي كان طبيباً لعضد الدولة البويهية (٣٣٨-٣٧٢هـ / ٩٤٩-٩٨٢م)، وله: «القانون العضدي في الطب» أو «الكنّاش الملكي». ويظهر أن شيوع استخدام هذا اللفظ في الطب جعل المؤرّخين وأصحاب الموسوعات يُقبلون على استعماله في هذا المجال، وإن لم يفعل المؤلّفون، فقد سمّى أبو بكر الرازي (ت ٣١١هـ / ٩٢٣م) أحد كتبه «كتاب الطب المنصوري»، ولكن البيروني (ت ٤٤٠هـ) هو الذي سمّاه «الكنّاش المنصوري»! ومع أن الهيمنة كانت للطبّ استعمل اللفظ عنواناً لكتبٍ في موضوعات أخرى، ومنها «كنّاش الجدل بين المخالف والنصراني» لسعيد ابن البطريق الذي كان بطريق الإسكندرية عام ٣٢١هـ، ومؤلف وضعه الأديب الأندلسي لسان الدين ابن الخطيب (ت ٧١٣هـ / ١٣٧٤م)، وقال فيه: إنه «كنّاش منظوم في عروض الرجز محذوف الفضول، لا غاية فوقه في الأراجز»، ومجموعة منتخبات في علم النحو لحاجي خليفة (ت ١٠٦٧هـ / ١٦٥٧م) سمّاها صاحبها - كما يقول دوزي^(٩) - كنّاشاً.

(٨) تاريخ الأدب العربي كارل بروكلمان ج ٤ ص ٢٥٧-٣٠٥.

(٩) دوزي ١٥٢/٩.

وليس الاسم «الكُنَّاش» المصوغ من الفعل الثلاثي knaš - بالشين المعجمة - في السريانية هو اللفظ الدخيل الوحيد من هذا الفعل في العربية، فالألفاظ الدخيلة الثلاثة: «الكنيس» و«الكنيسة» و«الكنيست» مشتقة منه أو من نظيره kanas «اجتمع، تجمّع» - بالشين المهملة - في العبرية ليدلّ أولها (في العبرية: kneset bet «بيت الاجتماع») على «مُتَعَبِّد اليهود»، وثانيها (knesâ) على «مُتَعَبِّد المسيحيين»، وثالثها (kneset) - وهو حديث - على «البرلمان الإسرائيلي» الذي أقامه الصهاينة بعد الاحتلال عام ١٩٤٨.

وربما ظن المرء أن الفعل «كَنَّسَ» في العربية لا يقابل الفعل kanas في العبرية أو knaš - بالشين المعجمة في السريانية -، فلو نظر في «اللسان» لوجد أن معنى «كنسَ الموضع: كسح القمامة عنه» وهو المعنى الذي تعرفه العامة، فكيف يجوز أن نقرن التعبير عن جمع القمامة بالدلالة على بيوت الله؟ والجواب أن الدلالة الأصلية للفعل في العبرية والسريانية هي «الاجتماع» و«التجمّع»، ولننظر تتمة ما يقوله ابن منظور في الدلالة الأصلية للفعل العربي: «قال اللحياني: كُنَّاسَةُ البيت: ما كُسِحَ منه من التراب فأُلقي بعضُه على بعض» أي: أنها تُسمَّى كذلك لأنها مجموعة، ثم يبيّن سبب تسمية كناس الظبي فيقول: «لأنها تَكُنُّسُ الرَّمْلَ حتى تصل إلى الثرى»؛ أي: لأنها تجمع الرمل في الموضع فيكشف لها ما كان تحته من الثرى. ويقول في موضع آخر: «الكُسَاحَةُ: الكُنَّاسَةُ، قال اللحياني: كُسَاحَةُ البيت: ما كُسِحَ من التراب فأُلقي بعضُه على بعض، والكُسَاحَةُ: تراب مجموع»^(١٠). فيكون اللفظان مترادفين، ويكون المعنى في كليهما هو «الجمْع» و«التجمّع» أيضاً، ولا يُستتج من ذلك أن الكنيس والكنيسة والكنيست عربية؛ لأن العربية أخذتها من اللغتين اللتين

(١٠) اللسان (كسح).

استعملهما واضعو هذه الألفاظ، وهما العبرية والسريانية. وإذا كانت «الكنيسة» سُميت كذلك بالعبرية والسريانية؛ لأنها مكان الاجتماع والتجمع، فهي كذلك في اسمها باللاتينية Ecclesia المنقول عن Ekklesia باليونانية، ومعناه «المجمع، الاجتماع»، وهي التي ذكرها المتقدمون بصيغة «القَّليس» اسماً للكنيسة التي بناها أبرهة الأشرم في صنعاء^(١١). وبَيَّن نولدكه - كما ينقل عنه فرنكل - أن «القَّليس» ليست سوى تعريب للفظ اليوناني المذكور^(١٢). ولا يخرج مُتَعَبَّد اليهودية (bet kneset) المُسمَّى Synagogue بالإنكليزية والفرنسية عن هذه الدلالة، فهو من Synagoga باللاتينية المنقول عن Synagôgê باليونانية والمعنى نفسه. والطريف أن ذلك ينطبق على تسمية «المسجد الجامع» في العربية؛ لأنه «الذي يجمع أهله، وهو نعت له لأنه علامة للاجتماع»^(١٣). وهذا يعني أن بيت العبادة سُمي عند المسلمين والمسيحيين واليهود تسميات شتى - بلغات مختلفة - تتفق كلها في الدلالة، وقد فطن بطرس البستاني إلى ذلك فقال بعد إيراد تلك التسميات في معجمه: «والكل مأخوذ من معنى الاجتماع»^(١٤).

وذكر ابن منظور أن «الكنيسة لليهود، وجمعها كنائس»، ونقل عن الجوهري أنها للنصارى كذلك. والظاهر أنها كانت عند المتقدمين لكلتا الديانتين، إذ ذكر المقدسي (ت ٩٩٠م) «كنائس اليهود والنصارى» في بيت المقدس، وذكر ابن عساكر (ت ١١٧٦م) كنيسة اليهود في دمشق، وتحدث ابن كثير (ت ١٣٧٢م) عن كنيسة اليهود في بغداد. وقد ورد لفظ «الكنيسة» للمسيحيين في قول الشاعر الجاهلي المسيحي عدي بن زيد:

(١١) ابن هشام ٢٦.

(١٢) Fraenkel 275.

(١٣) اللسان (جمع).

(١٤) محيط المحيط ٧٩٤.

بزجاجة ملء اليدين كأنها قنديلٌ صبح في كنيسة راهبٍ
أما لفظ «الكنيس» الشائع اليوم لبيت العبادة عند اليهود فقد أهمله
دوزي، ولعل بطرس البستاني أول من ذكره، قال: «وأما المولدون فيُسَمَّون
مُتَعَبِّد اليهود بالكنيس»^(١٥)، وهذا يعني أنه حديث العهد.

فما أصل لفظ «الكنيسة»؟ لقد ذكر ابن منظور أنها «معربة أصلها
كُنِشْتُ»، والمذهب السائد هو أن العربية أخذته من knwšt في الآرامية
اليهودية^(١٦)، والظاهر أن «كُنِشْتُ» هذه هي kenôštâ السريانية؛ أي: كنيسة
المسيحيين، وهي ترجمة لـ Ekklesia اليونانية^(١٧). أما knesâ في الجعزية -
أقدم لغات الحبشة - فيرى نولدكه أنها من «كنيسة» في العربية^(١٨)، في حين
يرى آخرون ومنهم لسلاو أن أصل العربية والجعزية واحد، وهو الآرامية
والسريانية أو العبرية^(١٩) Leslau 288.

وسيكون في هذه المجلة باب ثابت تُبحث فيه ألفاظُ في العربية تحتاج إلى
بيان أصولها أو اشتقاقها أو دلالاتها وفق هذا المنهج، وقد جرت المفاضلة
لتسميته بين العناوين الثلاثة «الكشكول» و«المخلاة» و«الكنّاش»، فانتَهت إلى
استبعاد «المخلاة»؛ لأنه يرتبط في الأذهان بالعلف والحيوان، و«الكنّاش»؛ لأنه
غلب على ما يُكتب في الطب، ولذا كان اسمه «الكشكول اللغوي».

* * *

(١٥) محيط المحيط ٧٩٤.

(١٦) WKAS, I.385 + Fraenkel 275، و قارن ب KBL 461.

(١٧) برصوم ١٥٦.

(١٨) Nöldeke 37.

(١٩) Leslau 288.

المصادر والمراجع

بالعربية:

- الألفاظ السريانية في المعاجم العربية: مار أغناطيوس أفرام الأول برصوم، دمشق ١٩٥١.
- تاريخ الأدب العربي: كارل بروكلمان ج ٤ ترجمة السيد يعقوب بكر ورمضان عبد التواب ط ٢، القاهرة ١٩٧٧.
- تكملة المعاجم العربية: رينهارت دوزي، ج ٩ ترجمة جمال الخياط، بغداد ١٩٩٩.
- تهذيب سيرة ابن هشام: عبد السلام هارون ط ٦، القاهرة ١٩٨٩.
- شفاء الغليل فيما في كلام العرب من الدّخيل: شهاب الدين الخفاجي، تحقيق محمد كشاش، بيروت ١٩٩٨.
- غرائب اللغة العربية: رفائيل نخلة، ط ٣، بيروت ١٩٨٤.
- الكشكول: بهاء الدين العاملي، القاهرة ١٢٨٨هـ.
- لسان العرب: ابن منظور، بيروت د.ت.
- محيط المحيط: بطرس البستاني، بيروت ١٨٧٠.
- معجم الألفاظ الفارسيّة المُعرّبة: السيّد أدّي شير، بيروت ١٩٨٠.
- المعجم الذهبي: محمد التونجي، ط ٢، بيروت، ١٩٨٠.

باللغات الأجنبية:

- Fraenkel, S.: Die aramäischen Fremdwörter im Arabischen. Leiden 1886, Neud. 1982.
- Jeffery, A.: The foreign vocabulary of the Qur'an. Baroda 1938.
- KBL = L. Koehler & W. Baumgartner: Hebräisches und Aramäisches Lexikon zum Alten Testament. 3 Auflage. Leiden 1967- 1995.
- Leslau, W.: Comarative Dictionary of Gecez. Wiesbaden 1987.
- Littmann, E.: Morgenländische Wörter im Deutschen. Tübingen 1924.
- Nöldeke, Th.: Neue Beiträge zur semitischen Sprachwissenschaft. 1910 Neud. Amsterdam 1982.
- WKAS: Wörterbuch der klassischen arabischen Sprache, Bd. I. hrsg. von M. Ullmann. Wiesbaden 1970.

* * *

التعريف والنقد

المعرب شرح كتاب القوافي لـ (الأخفش) (ت ٢١٥هـ)
لـ (أبي الفتح عثمان بن جني الموصلي) (ت ٣٩٢هـ)
قرأه وحققه وعلق عليه واستدرك نقصه:
د. محمد وليد السراقي و د. وليد محمد السراقي^(١)

عرضه

أ. د. عبد الإله نبهان^(*)

الشاعر الجاهلي (النابعة الذبياني) ورد في شعره اختلاف حركة الروي
في قصيدته الدالية:

أَمْنُ آلِ مَيْةٍ رَائِحٍ أَوْ مَغْتَدِي عَجَلَانَ ذَا زَادٍ وَغَيْرَ مَزُودٍ
ثم قال:

زَعَمَ الْبَوَارِحُ أَنَّ رَحَلْتَنَا غَدًا وَبِذَاكَ خَبَرْنَا الْغَرَابُ الْأَسْوَدُ
وَقَدْ نُبِّهَ (النابعة) إِلَى هَذَا الْخَلَلِ بِلَطَافَةٍ وَأَقَامَ مَنَادَهُ، سَمِّيَ هَذَا الْخَلَلُ
بـ(الإقواء)، فيما بعد، وَعُدَّ مِنْ عَيُوبِ الْقَافِيَةِ.

هذا الخبر وما مثله كان الاعتماد فيه على الحس الموسيقي، ولم يكن

(١) أ. د. وليد محمد السراقي: ولد سنة ١٩٥٦ / وهو أستاذ النحو والصرف بجامعة حماة.

(*) عضو مجمع اللغة العربية بدمشق.

ورد إلى مجلة المجمع بتاريخ ٤ / ١٢ / ٢٠١٩ م.

وهو آخر ما زُود به الراحل - رحمه الله - المجلة.

هناك ما سُمِّي فيما بعد بـ(علم القافية) الذي ألقى أصوله على تلامذه عبقرئ العربية (الخليل بن أحمد الفراهيدي) (ت ١٧٥هـ)، ثم أتى بعده من فصل ما أوجزه وفرَّع ما أصَّله، ونشأ ما سُمِّي بـ(علم القوافي). وكان (الأخفش الأوسط سعيد بن مسعدة أبو الحسن) من أوائل من ألفوا في هذا الفن، فكان لنا منه (كتاب القوافي) الذي ذهب جور الزمان بنسخه ولم تبق منه إلا نسخة وحيدة في مدينة (بروسة) بـ(تركيا)، وعلى مصورة هذه النسخة كان اعتماد أستاذنا العلامة (أحمد راتب النفاخ)^(٢) في تحقيقها، وكان حريصاً أشد الحرص أن يكون بين يديه كتاب (ابن جني) (المعرب بشرح كتاب القوافي للأخفش)، ولم تكن النسخة الألمانية التي ظنَّ أنها كتاب (المعرب) غير كتاب (مختصر العروض) لـ(ابن جني). ولما كان كتاب (المُعرب) من المصادر الأساسية في علم القوافي كثر الاقتباس منه، وإيراد نصوص منه في معجم (المحكم) لـ(ابن سيده) (ت ٤٥٨هـ)، وعنه أخذ (ابن منظور) (٧١١هـ) في (لسان العرب). وقد استعان المرحوم (النفاخ) بهذه النصوص الموزعة في المُعجمين في تحقيق كتاب (القوافي)، وكانت خير دليل على صحة نسبة الكتاب إلى (ابن جني) فيما بعد.

لما وصل إليَّ كتاب (المُعرب) لـ(ابن جني) بتحقيق الأخ (الدكتور وليد محمد السراقبي) بمشاركة ابنه (الدكتور محمد وليد السراقبي)، سررت أيما سرور؛ لأن هذا الأصل الذي احتُسب مفقوداً قد وُجد وصدر محققاً في طبعة أنيقة، ولكن أين وُجد؟ ومن أين حصل عليه المحقق؟

قال المحقق: «ولكنها الأقدار ساقته إلينا يوم وجدناه منشوراً تتعاوره الأيدي على الشابكة، فوقع في نفسنا موقع الأمنيات في أن يكون لنا جهدٌ

(٢) أحمد راتب النفاخ (١٩٢٦-١٩٩٢) عضو مجمع اللغة العربية بدمشق.

في إخراجهم محققاً، ولكنَّ حال النسخة من النقص والاضطراب في أوراقها جعلنا نُحجم غير مرة، ونحجم لا عن فترة، ونروز عواقب الإقدام على العمل فيها وهي على هذه الحال».

فإذا كانت هذه هي النسخة الوحيدة للكتاب فهي نفسها إذن النسخة المحفوظة في مكتبة الملك (عبد العزيز) العامة بالرياض تحت رقم / ٤٤٧٤ / كما ذكر ذلك المحققان، ووصفاها بقولهما: «وهي نسخة غير كاملة، وفيها بعض الخروم، واضطراب في ترتيب أوراقها، وصعوبة قراءة بعضها بفعل القدم، وقد كُتب بعضها بخط مغاير للأصل، ولحق أولها وأثناءها نقصٌ كبيرٌ يُقدَّر بنصف الكتاب».

وقد وُفقَ المحققان بما بذلاه من جهد في المراجعة والتدقيق، أقول: وُفِّقا إلى استدراك كثير من النقص، وذلك من الكتب التي أكثرت من النقل عن كتاب (ابن جني)، وهي كتب كثيرة، أبرزها:

- الكافي في العروض والقوافي: للخطيب التبريزي يحيى بن علي (ت ٥٠٢هـ).

- الفصول في القوافي: لابن الدهان سعيد بن المبارك (ت ٥٦٩هـ).

- الوافي في علمي العروض والقوافي: للعبدي عبد الله بن عبد الكافي (ت ٧٤٩هـ).

- الوافي في معرفة القوافي: للعنَّابي شهاب الدين (ت ٧٧٦هـ).

- العيون الغامزة على خبايا الرامزة: للدمايني محمد بن أبي بكر (ت ٨٢٧هـ).

وأقدم المحققان على العمل، فبدءاً بإعادة ترتيب أوراق المخطوط المضطربة، واستدركا بعض النقص نقلاً عن الأوراق المحفوظة في مركز

(جمعة الماجد) بـ(دبي)، وقابلاً نصوص (الأخفش) التي في كتاب (المعرب) على نصّه في كتاب (القوافي) المحقق، وقابلاً نصوص (ابن جني) بما نقله منها (ابن سيده) في كتابه (المحكم والمحيط الأعظم)، وهو معجم كبير مضبوط ومحقق، كما قابلاً هذه النصوص بما نقله منها صاحب اللسان. هذا، وكانت كتب (ابن جني) الأخرى بين يدي المحققين فاستعانوا بما جاء فيها، بما كان له ارتباط ما بكتاب (المعرب)، ثم قاما بما يقوم به المحققون عادةً من ضبط الآيات وتخريج الأحاديث والشواهد الشعرية، ونسبة الشعر إن لم يكن منسوباً والنص على موضع الشاهد فيه، مع الإشارة إلى اختلاف الرواية، مع الترجمة للأعلام ووضع العناوين المناسبة في القسم المستدرک على الكتاب.

اتبع المحققان في الكتاب طريقة واضحة في الطباعة، فكان كلام (الأخفش) يُقدّم بخط أسود حالک مضبوط، وقد وضع بين معقوفتين، يليه تفسير (ابن جني) مصدراً بـ(قال ابن جني) بخط أسود حالک أيضاً، ويرد التفسير بعد ذلك.

هذا.. وقد اشتمل كتاب (ابن جني) على الموضوعات التالية:

باب الروي وما يلزم قبله وبعده من الحروف، باب ما يلزم القوافي من الحركات، عيوب القوافي، خاتمة في الإنشاد، فصل الاشتقاق، ألقاب القافية، القول على الحروف، القول على الحركات، القول على المعاني، هذه هي الموضوعات الكبرى للكتاب.

فَصَّل (ابن جني) القول في كلٍّ من المباحث المذكورة، واستطرد في كلٍّ منها، وأكثر من شواهد الشعر والرجز، وقد ضبطها المحققان ضبطاً تاماً مع التخريج المستفيض وشرح المفردات التي تحتاج لذلك، إضافةً إلى ذكر آراء لـ(ابن جني) متممة لما ورد في هذا الكتاب.

وإذا كان كتاب القوافي بلغ في طبعة أستاذنا المرحوم (النفاه) / ١٣٢ /

صفحة ما عدا الفهارس، فإن شرحه مع المتن قد بلغ / ٦٣٨ / صفحة ما عدا الفهارس، وسبب ذلك هو غزارة التعليقات والإحالات التي زوّد بها المحققان الفاضلان نص (ابن جني)، فقد نقلنا في حواشيهما نصوص (المُعرب) الواردة في (المحكم) و(اللسان) وفي كتب القوافي، ومعظمها نُقل من (المُعرب)، فمثلاً قال ابن جني: «فأما إذا كانت قطعة، نحو العشرة أو الخمس عشرة فلا، ولا يسوغ ذلك في البيتين والثلاثة؛ لأن العيب لا يكون أكثر من الأصل نحو قول ابن مقبل:

أو كاهتزاز ردينيّ تعاوَرُهُ أيدي التّجار فزادوا متنه لينا
نازعت ألباهل لبّي بمقتَصِرٍ من الأحاديث حتى ازدددن لي لينا
فجاء بـ(لينا) و(لينا) قافيتين وليس بينهما حاجز وهذا لا يقاس عليه».

ننظر الآن في التعليقات على كلام ابن جني:

أحال المحققان في توثيق كلام (ابن جني) على كتاب (القوافي) لـ(الإربلي): / ١٨٥ / بتصرف وبغير عزو في (الوافي) لـ(العبيدي) / ٦٦٢ / و(الوافي) لـ(العنّابي) / ١٧١-١٧٢ /.

ثم قال (ابن جني): «نحو قول (ابن مقبل)». قال المحققان: أصل العبارة في القوافي للإربلي: «فقد روى (ابن جني) عن (ابن مقبل)»، وفي (الوافي) لـ(العبيدي)، «فإن لم يكن بين البيتين فصلٌ فأقبحُ، كقول (ابن مقبل)»، وهو فيه بغير عزوٍ إلى (ابن جني)، أما البيتان فقد خرّجا من اثني عشر مرجعاً منها ديوان الشاعر مع ذكر اختلاف رواياته.

وعلق المحققان على قول (ابن جني) الأخير بقولهما: «في (الوافي) لـ(العنّابي): فمثل هذا مستقبح؛ لأن البيتين متلاصقان ليس بينهما حاجز»، وهو بغير عزوٍ إلى (ابن جني).

بمثل هذه التعليقات الوسيعة زوّد المحققان تحقيقهما لنص كتاب (المغرب)، واستكملا ما نقصه باستدراكتهما، فكان عملهما إحياء حقيقياً لكتاب كان يُعتبر بحكم المفقود. وبذلك أسهما إسهاماً رائعاً في إحياء هذا الأثر الرائع لـ (أبي الفتح) الذي نرجو اكتشاف كتبه التي ما زال بعضها مفقوداً حتى يومنا هذا.

* * *

مراجعة نقدية لمعجم محمود محمد شاكر

د. محمد جمعة الدّربي (*)

توطئة:

للمراجعات العلميّة والقراءات النقديّة مكانة علميّة عند الباحثين؛ ومنهم من يعدّها بما تحتوي عليه من جهد تحليليّ تركيبيّ أعمالاً علميّة في حدّ ذاتها؛ فضلاً عما تقدّمه إلى مجالها المعرفيّ من تعميق لبحوثه وقضاياها ومسائله وتطوير لها^(١). ولا شكّ أن المراجعات المعجميّة تُعدّ - بصورة أو بأخرى - مورداً من موارد المعجم التاريخيّ العربيّ.

وفي عام ٢٠٠٧م أصدر المكتب الإسلاميّ بيروت الطبعة الثانية من كتاب (معجم محمود محمد شاكر) الذي أعدّه الأستاذ منذر محمد سعيد أبو شعر؛ وليس غريباً أن تلقى طبعنا المعجم شهرة عريضة بين القراء؛ فقد تلقّفه محبّو الأستاذ شاكر وتلاميذه وأصدقاؤه. ولم لا؟ أفليس هو المثير للجدل الثائر على شيخه عميد الأدب العربيّ الدكتور طه حسين؟ ليس هذا فحسب،

(*) باحث معجميّ ومحقّق لغويّ وعضو اتحاد كتاب مصر والاتحاد الدّوليّ للغة العربيّة.

ورد إلى مجلة المجمع بتاريخ ١٢/٨/٢٠٢٠م.

(١) راجع مجلة معهد المخطوطات العربيّة بالقاهرة - مجلد ٦٠ - ج٢/ ١٨٥.

بل كان شاكر شاعرًا وعضوًا بمجمع اللغة العربية بالقاهرة؛ فكان رصيده اللغوي جديرًا بالجمع والدراسة.

ولكن هل التزم صانع المعجم بإجراءات الصناعة المعجمية في جمع المواد والمداخل المعجمية وترتيبها؟ وهل يمثل هذا المعجم لغة الأستاذ شاكر ومفرداته اللغوية؟ هذا ما نحاول الإجابة عنه من خلال مسألتين: الأولى: نقد عام للمعجم. والثانية: فوائت المعجم. وفي كلتا المسألتين نماذج تفي بالغرض وتغني عن التطويل؛ إذ يكفي من القلادة ما أحاط بالجيد.

أولاً: نقد عام للمعجم:

كان المتوقع من هذا المعجم جمع المفردات التي تعطي صورة عن ثقافة شاكر المعجمية وفقهه اللغوي، ولكن هذا لم يتحقق؛ لأن صانع المعجم لم يجمع مادته من كتب شاكر أو مقالاته التي جمعها أو جمع جُلّها أحد تلاميذه ومحبيه الأستاذ عادل سليمان جمال!

لقد جمع الأستاذ منذر معجم محمود شاكر من هوامش تحقيقاته التي لا تمثل من معجمه معشار ما تمثله مقالاته وكتبه وكذلك تصديراته لكتب تلاميذه ومحبيه؛ فابتعد المعجم عن الشمول مع القدرة عليه. ولو رجع صانع المعجم إلى موارد المواد اللغوية ووسّع النظر في كتب شاكر ومقالاته وتصديراته لخرج معجمه في أضعاف مضاعفة! وكان في إمكان صانع المعجم ربط هذه المواد - أو هوامش التحقيق - بمصادرها؛ لأن عدم العزو إلى كتب الأستاذ شاكر ضيّع على القارئ فرصة الرجوع إلى المصدر إذا أراد التحقق من سياق الكلام!

وبجانب القصور في جمع المادة المعجمية حدث اضطراب في معالجة بعض المداخل المعجمية، ويمكن التمثيل - وما استقصى كريم قط - بما

جاء في الجذر (خ ط و) ص ١٠٠ بلفظ: «خطا يخطو واختطى واختاط: مشى!» وضوابط الصناعة المعجمية تقتضي الربط بالإحالة بين (اختاط) و(اختطى)، والإشارة إلى القلب المكاني^(٢)، ولكن كيف أُلوم الأستاذ أبا شعر على ترك الإحالة، وقد غفلت عنها معاجم مجمع اللغة المصري^(٣)؟! ولا يخلو معجم شاكر من خلل الترتيب الذي هو شرط رئيس في أي معجم، ويمكن التمثيل بالجذر (ع ز ز) الذي وقع ص ٢٢٢، وفيه «العزیز: الملك» قبل (ع ر س) ص ٢٣٢، وفيه «عرّس المسافرون»! والترتيب الصحيح يقتضي وضع (ع ز ز) ص ٢٢٧ بعد (ع ز ب). ويمكن التمثيل كذلك بكلمة الوسوسة التي جاءت ص ٣٥٣ تحت الجذر (و س س)؛ فكانت قبل الجذر (و س ط)! والأصوب فصل مضَعَّف الرباعي عن مضَعَّف الثلاثي؛ فيجب أن توضع الوسوسة في الجذر (و س و س) بعد الجذر (و س ن). ومن العجيب وقوع بعض الأخطاء في ترتيب الجذور المتتالية؛ فكيف نفّسر مجيء (ك ح ل) ص ٢٨٢ قبل (ك ث ر)؟! ويؤخذ على المعجم أيضًا القصور في الضبط؛ ويمكن التمثيل بالفعل (نغر) ص ٣٢٧ في عبارة «نغر الجرح»؛ إذ ضبطه الأستاذ منذر بفتح الغين فقط، مع أن الأشهر ضبطه بكسر الغين؛ وقد صرّح الزبيدي بذلك فقال: «نغر عليه، كفرح وضرب ومنع، والأولى أكثر... مأخوذ من: نَغَرَت القِدْرُ... ومن المجاز: جَرَحَ نَغَار»^(٤).

(٢) المحكم لابن سيده (خ ي ط) ج ٥/ ٢٥٠، (خ ط و) ج ٥/ ٢٨٥.

(٣) المعجم الوسيط (خ ط و) ج ١/ ٢٥٤، (خ ي ط) ج ١/ ٢٧٤، والمعجم الكبير (خ ط و) ج ٦/ ٥٦١، (خ ي ط) ج ٦/ ٩٧٠، وأما المعجم الوجيز فلم يذكر اختاط ولا اختطى! وراجع المزيد عن أخطاء معاجم المجمع في بحثي: ملاحظات نقدية حول مادة المعجم الوجيز ومنهجه.

(٤) تاج العروس للزبيدي (ن غ ر) ج ١٤/ ٢٦٢: ٢٦٤.

ويلفت النظر كذلك إغفال المفردات أو الأساليب العامية؛ فقد توسّع شاكر في استعمال بعض تعبيرات العامية المصرية - على الرغم من محاربته للعامية -، وربما أراد إثبات صحة بعض هذه التعبيرات. ويمكن التمثيل على العامية الفصيحة بقول شاكر: «ولا أتوسّع ولا يحزنون، كما يقولون... ما علينا! سأعود الآن إلى تفسير ما قلته آنفاً... وكان الله يحب المحسنين، وأستعفيك من الركافة... عظيم والله!... أضعاف أضعاف ما ذكر... دخل مدخلاً آخر في التدليل على... على ماذا؟ على كذبي، إن شاء الله... ولكن ما حيلتي؟ آه: نسيْتُ... ونقلتُ ما نقلتُ. وأنا كنتُ يومئذ في السابعة عشرة من عمري... فليخطف رجله الكريمة إلى مكتبة جاستررتي.....»^(٥). ويمكن التمثيل أيضاً بقول شاكر: «ما أسخّم من ستي إلا سيدي»^(٦)! ومن يتابع اللهجة المصرية يعرف أن تعبير (وكان الله يحب المحسنين) يُستعمل في سياق الاختصار والإنجاز السريع، ولا يخفى أن التعبير مأخوذ - بتصرّف في اللفظ والمعنى - من القرآن الكريم^(٧). ويُستعمل تعبير «إن شاء الله» في العامية المصرية - بجانب استعماله القرآني - في سياق السخرية والتهكُّم. وتُستعمل اللهجة المصرية أيضاً تعبير (خطفَ رجله) للدلالة على السرعة. وقد كان في إمكان

(٥) برنامج طبقات فحول الشعراء ص ١١٥، ١١٨، ١٢٠، ١٢٢، ١٣٧، ١٤٣-١٤٤، ١٤٩، ١٥٣، ١٦٤.

(٦) رسالة في الطريق إلى ثقافتنا ص ١٦٦، وقد كتب تلميذه الطناحي بعض الجمل بالعامية مثل: «إحنا ما صدّقنا»، «وكنا خُلصنا»! راجع: مقالات العلامة الدكتور محمود محمد الطناحي ص ٦٠٩-٦١٠.

(٧) في القرآن الكريم: ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾، [آل عمران: ١٣٤، ١٤٨]، [المائدة: ٩٣]، وفيه أيضاً: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [البقرة: ١٩٥]، [المائدة: ١٣].

الأستاذ منذر تغذية المعجم بهذه التعبيرات التي تمثل معجم شاكر من ناحية، وتمثل موردًا لمعاجم العاميَّات والمعاجم التاريخية من ناحية أخرى. ويؤخذ على صانع المعجم الاجترار دون تصفية أو تعليق؛ فقد تابع شاكرًا في ادّعائه أن «الآية بمعنى الرسالة لم تذكره كتب اللغة، ولكن شواهد لا تُعدّ كثرة؛ من ذلك...»^(٨)! وأقول: إن كتب اللغة والمعاجم لم تهمل استعمال (آية) بمعنى رسالة؛ فقد ذكر الزبيدي (ت ١٢٠٥ هـ) أن «الآية الرسالة»^(٩)، ولكن كيف ألوم الأستاذ منذر أبا شعر وقد انخدع قبله الدكتور محمود الطناحي بكلام شاكر، ورأى أنه «إضافة على مواد المعجم العربي»^(١٠)؟!

ولم تخل مقدمة المعجم من الأخطاء؛ ففي ص ٦ ذكر الأستاذ منذر أن معجم شاكر: «لحمته قراءة الأستاذ لكتب العربية ونصوصها، وسُدها مجموع مقالاته المختلفة!» ويعرف الشدة والمبتدئون في العربية أن السدى - وهو ما مُدّ من الثوب طولًا في النَّسج - بفتح السين^(١١). وفي المقدمة أيضًا ما يُلقى عليها ظلالًا من التوهين؛ فقد نقل الأستاذ منذر في مقدمة معجمه عن الدكتور أيمن فؤاد سيد بلا إحالة إليه^(١٢)!

ثانيًا: فوائد المعجم:

من النقد العام للمعجم الذي صنعه الأستاذ منذر يتضح أن المواد التي

(٨) طبقات فحول الشعراء ج ١/ ١٠٦، وراجع حاشية تحقيقه تفسير الطبري ج ١/ ١٠٦

بلفظ: «وأهملت كتب اللغة تفسير هذا الحرف على وجهه»!

(٩) تاج العروس (أ ي ي) ج ٣٧/ ١٢٧ ولم يذكر الزبيدي شاهدًا، ولم يعلّق المحقق الأستاذ مصطفى حجازي!

(١٠) مقالات العلامة الدكتور محمود محمد الطناحي ص ٤٨٥، ومعجم محمود محمد شاكر ص ٢٧.

(١١) تاج العروس للزبيدي (س د ي) ج ٣٨/ ٢٥٥.

(١٢) راجع تعليقنا على تعبير (طائرة نقّاة) الذي سيأتي في ترتيبه من فوائد المعجم.

فاتته كثيرة؛ وهذه نماذج - مجرد نماذج - حسب الترتيب الهجائي المشرقي مما أخلَّ به المعجم، وأكتفي بما يدلُّ على تنوع معجم شاكر بين الفصيح المهجور والمحدث الشائع:

١ - ثنايا: قال شاكر في تحقيقه لطبقات فحول الشعراء: «الفقرات التي أخلَّت بها نسخة المدينة (المخطوطة)، وما أخلَّت به في ثنايا الفقرات... ... ثم أثبتُّ أيضًا أرقام ما أخلَّت به (م) في ثنايا الأخبار»^(١٣)، وقال في كتابه (نمط صعب ونمط مخيف): «إذا تمَّ ذلك أصبحت هذه الآثار القديمة متأهبة لالتحام بالحدث الجديد المثير متطلعة للتدخل في ثناياه»^(١٤).

وهذا الاستعمال يعترض عليه بعضُ المعاصرين؛ لأنَّ الثَّيَّة - وجمعها الثنايا - هي السِّنُّ في مقدَّم الفم والعقبة ومنقطع الوادي أو الجبل ومكان انعطافهما، ولأنَّ الصواب استعمال أثناء جمع ثني؛ يقال: أثناء الشيء؛ أي: تضاعفه^(١٥)!

والحق أن الاستعمال شائع في لغة المعاصرين، وربما كان لشاكر أسوة فيمن سبقه من بعض أكابر القدماء والمحدثين^(١٦). ومن العجيب حقًا غفلة مجمع اللغة المصري عن إثبات هذا الاستعمال في مادة (ث ن ي) من معاجمه اللغوية العامة الثلاثة، على الرَّغم من وقوع هذه المعاجم في الاستعمال؛ ففي (المعجم الوسيط) أشهر معاجم المجمع: «درج الشيء في

(١٣) برنامج طبقات فحول الشعراء ص ٣٩، ٤١، وفي نهاية تحقيق الطبقات ص ٩٨٥ عنوان: «أرقام ما أخلَّت به (م) في ثنايا الفقرات».

(١٤) راجع الكتاب ضمن مجلة فصول ص ٣٥٧.

(١٥) أزهير الفصحى لعباس أبو السعود ص ٧٨، ٨١، ٩١، والعربية الصحيحة للدكتور أحمد مختار عمر ص ٢٢٤.

(١٦) راجع مثلاً استعمال الدكتور إبراهيم أنيس في كتابه: في اللهجات العربية ص ٤٧ بلفظ: «القليل في ثنايا كتب اللغة».

الشيء: أدخله في ثنياه... الدُّرَج: شبه صندوق يدخل في ثنياه المكتب أو الصُّوان ونحوه... واستنبط الجواب: تلمَّسه من ثنياه السؤال»^(١٧)، والأعجب ما جاء في (الوسيط) بلفظ: «كشكش الثوب: جعل فيه ثنيات»^(١٨)! وكان المتوقَّع من (المعجم الكبير) أكبر معاجم المجمع أن يخطو خطوة إلى الأمام حتى يكون اسمًا على مسمًى، ولكنه رجع إلى الوراء؛ فحذف عبارة (الوسيط): «أدخله في ثنياه»، ووضع مكانها «طواه وأدخله فيه»^(١٩)، مع أنه نقل تعريف (الوسيط) للدُّرَج بنصّه!!

٢- تجلجلج: قال شاكر في تقديمه للظاهرة القرآنية: «وكسجية النطق في البضعة المتجلجلة المسمَّاة باللسان»^(٢٠). وتجلجلج بمعنى تحرَّك.

٣- الجيل: في مجلة الرسالة ذكر شاكر أن الآثار العظيمة الخالدة التي نشأت وربت وترعرعت وامتدَّت تحت ظلال الكنيسة والعقائد المسيحية من أعظم الآثار الفنية التي يعدُّها الجيل الأوربي في طليعة العبقرية الفنية^(٢١). وقد انتقده الأستاذ سمير غريب فقال: «وتعبير الجيل الأوربي هذا غامض؛ ففي كل مكان وكل زمان أجيال وليس جيل واحد»^(٢٢)! وتعبير شاكر لا غموض فيه؛ فالجيل في كلام العرب: الصَّنْف من الناس؛ فالترك جيل، والروم جيل، والصين جيل، وكل جيل: شعب، والجمع أجيال

(١٧) المعجم الوسيط (درج) جـ ١/ ٢٨٧، (ن ب ط) جـ ٢/ ٩٣٤ ولا تخفى الرُّكاكة في تعريف الدُّرَج، وقد نقله المعجم الكبير بنصّه!

(١٨) ولم يرد هذا الجمع ولا معناه في الجذر (ث ن ي) جـ ١/ ١٠٦؛ وهذا من القصور!

(١٩) المعجم الكبير (درج) جـ ٧/ ٢٠١، راجع تعريفه للدُّرَج ص ٢٠٧.

(٢٠) الظاهرة القرآنية بتقديم شاكر ص ٤٧.

(٢١) مجلة الرسالة- عدد ٣٤٥ بتاريخ ١٢ فبراير ١٩٤٠ م.

(٢٢) في تاريخ الفنون الجميلة- سمير غريب ص ٨٠.

وجيلان^(٢٣). وقد استعمل شاكر اللفظ بالمعنى المعاصر في مقاله بمجلة الرسالة عام ١٩٤٦م «بين جيلين»، وجاء في جمهرة مقالاته: «وهذا عمل يهود في كل جيل، وفي كل أمة، وفي كل زمان»^(٢٤)، وجاء في تقديمه للظاهرة القرآنية: «أما ميدان الثقافة فقد بقيت المعارك فيه متتابعة جيلاً بعد جيل... وتتابع هزائم العالم الإسلامي في ميدان الثقافة جيلاً بعد جيل... ويتغير ويتبدل جيلاً بعد جيل»^(٢٥).

٤- تحدّر: في (رسالة في الطريق إلى ثقافتنا) قال شاكر: «يتناول ثقافته المتكاملة المتحدّرة إليه في تيار القرون المتطوّلة والأجيال المتعاقبة»^(٢٦). وتحدر بمعنى أقبل.

٥- مرامة: قال شاكر في تقديمه للظاهرة القرآنية: «وما نهضت إلا للمرامة دون إعجاز القرآن»^(٢٧). والمرامة مصدر الفعل رامى بمعنى قاتل وناضل.

٦- زَمَّ: قال شاكر بتحقيقه لطبقات فحول الشعراء: «زامًا بشفتيه وأنفه كهيئة المتقرّز المتقدّر»^(٢٨). والمشهور في المعاجم: زَمَّ بأنفه؛ أي: شمع وتكبّر، واستعمله شاكر مع الشفتين توظيفاً للعُرف الاجتماعي المعاصر.

٧- شال: قال شاكر في (رسالة في الطريق إلى ثقافتنا): «وبلغ السيل الزُبي؛ فكانت يقظة محسوسة في جانب، وغفوة لا تحس في جانب، وشال

(٢٣) المحكم لابن سيده (ش ع ب) ج ١/ ٣٨٢، وتاج العروس (ج ي ل) ج ٢٨/ ٢٥٩.

(٢٤) جمهرة مقالات الأستاذ محمود محمد شاكر ص ٥٢٦.

(٢٥) الظاهرة القرآنية بتقديم شاكر ص ٢٣-٢٤، ٥٤.

(٢٦) رسالة في الطريق إلى ثقافتنا ص ٣٥.

(٢٧) الظاهرة القرآنية بتقديم شاكر ص ٤٩.

(٢٨) برنامج طبقات فحول الشعراء ص ١٢.

الميزان»^(٢٩). وشال الميزان: ارتفعت إحدى كفتيه، وكان في إمكان شاكر أن يقول: اختلَّ الميزان، ولكنه استعمل الفصح المهجور!

٨- غامس: قال شاكر في (برنامج طبقات فحول الشعراء): «قد غامسته نفسه في باب من أبواب هجاء»^(٣٠). ويقال: غامس فلاناً: أدخله في الماء.

٩- استفاد: في مقدمة تحقيق (الوحشيات) قال شاكر عن اليميني: «ففعلتُ معترفاً بفضل عليّ وعلى سائر من استفاد من علمه، ولا سيما كتابه الذي لا يدانيه كتابٌ في التحقيق، وهو سمط اللآلي»^(٣١). وقال شاكر في (برنامج طبقات فحول الشعراء): «الذي نبّه الدكتور علي جواد إلى التماس مثل هذا الطريق في الانتفاع والاستفادة بما ذكر - هو تعليقي على أبيات مروان... وهي من ذخائر الكتب العربية استفاد منها كلُّ طالب علم... ذكر لفظ فحول في الموضوعين معنى استفاد... يوهم في مواضع متفرقة من مقالته أنني استفدتُ منه»^(٣٢). وفي (رسالة في الطريق إلى ثقافتنا) قال شاكر عن الجبرتي الكبير: «ولجأ إليه مهرة الصنّاع في كل صناعة يستفيدون من علمه، ومارس كلُّ ذلك بنفسه، وعلم وأفاد حتى علم خدّمه في بيته»^(٣٣).

وصيغة (استفاد) في نص الرسالة تحتمل معنى الطلب، ولكنها في نص (الوحشيات) و(الطبقات) بمعنى الإفادة^(٣٤)، وصيغة (استفعل) تأتي بمعانٍ

(٢٩) رسالة في الطريق إلى ثقافتنا ص ١٢١.

(٣٠) برنامج طبقات فحول الشعراء ص ١٧٣.

(٣١) كذا في مقدمة تحقيق الوحشيات ص ٩: ١٠، والصواب (سمط اللآلي)؛ وبعض المحققين ينسبونه إلى البكري؛ وهذا خطأ!

(٣٢) برنامج طبقات فحول الشعراء ص ٢٩، ١١٨، ١٣٩، ١٦٨.

(٣٣) رسالة في الطريق إلى ثقافتنا ص ١٢٥.

(٣٤) وراجع: دراسات عربية وإسلامية مهداة إلى أديب العربية الكبير أبي فهر محمود محمد =

أخرى غير الطلب مثل: استبضع الشيء: جعله بضاعة، واستجد الشيء: صار جديداً، واستحزَّ القتل: اشتدَّ، واستخال السحاب، واستذمَّ واستلام: أتى بما يُذمُّ ويلام عليه، واستشفَّ الشيء، واستصعب الأمر، واستضعف فلاناً، واستطار، واستظهر، واستعلن: تعرَّض لأن يعلن به، واستغرَّ عدوّه واستغرَّ به، واستنشى: انتشى، واستنفق ماله: أنفقه، واستوجب الأمر، واستوعب الأمر، واستيقن، وقد استعمل شاعر بعض هذه الأفعال^(٣٥). وقد جاء الفعل (استفاد) بمعنى الإفادة في كتابات القدماء^(٣٦)؛ فلا يعوّل على إنكار بعض المعاصرين، واقتصارهم على معنى الطلب!

١٠ - قُرن: قال شاعر في (رسالة في الطريق إلى ثقافتنا) ص ١٠٥: «أقصى ما يبلغه هذا المستشرق بعد عشرات السنين من الدأب والجهد، وبعد أن تشيب قرونيه (والقرون صفائر شعر الرأس) أن يكون شادياً لا أكثر»^(٣٧). وشاعر يستعمل القرن هنا مع الذكر، وإن كان الشائع استعماله مع الأنثى؛ واقتصرت عليه بعض المعاجم الحديثة^(٣٨)!

١١ - قصّد: قال شاعر في تقديمه للظاهرة القرآنية ص ٥٣: «فكان نصيبه من إنشادهم وتقصيدهم القصائد أقل مما كان في جاهليتهم»^(٣٩)، والتقصيد هنا معناه التهذيب والتنقيح والتجويد.

= شاعر بمناسبة بلوغه السبعين ص ٤٠٥: «على هدى ما استفدته من قراءة تراجم أبي الطيب».

(٣٥) راجع مثلاً برنامج طبقات فحول الشعراء ص ٦٢، وتقديم الظاهرة القرآنية ص ٢١.

(٣٦) طبقات فحول الشعراء ص ٤، وحسن المحاضرة للسيوطي ج ١ ص ٢٩١، وخلاصة الأثر للمحيي ج ٢/ ٤٥٢، بل ورد المعنى في عناوين بعض المؤلفات القديمة مثل: المستفاد من ذيل تاريخ بغداد لابن النجار، والمستفاد من مبهمات المتن والإسناد لأبي زرعة.

(٣٧) رسالة في الطريق إلى ثقافتنا ص ١٠٥.

(٣٨) معجم اللغة العربية المعاصرة (ق ر ن) ج ٣/ ١٨٠٥.

(٣٩) الظاهرة القرآنية بتقديم شاعر ص ٥٣.

١٢ - قاصر على: قال شاكر في تحقيقه لطبقات فحول الشعراء: «فالعننة إذن ليست قاصرة على بني تميم وبني أسد»^(٤٠). ولا يخفى هنا وعي شاكر بالظواهر اللغوية، ولكن يلفت النظر استعمال (قاصر على)؛ وهو استعمال شائع في اللغة العربية المعاصرة باعتبار دلالة صيغة (فاعل) على معنى (مفعول) كقول الشاعر^(٤١):

* واقعد فإنك أنت الطاعم الكاسي *

أي: المطعوم المكسوّ. ولكنّ الأفصح استعمال اسم المفعول (مقصور)؛ لأنه يدل على الحصر والتخصيص، وهو أدلّ على المعنى الذي أراده شاكر.

١٣ - استقلّ: قال شاكر في تقديمه للظاهرة القرآنية: «مدارسة الشعر الجاهليّ؛ لأنه لا يستقلّ أحد بفهم القرآن حتى يستقلّ بفهمه»^(٤٢). والاستقلال هنا بمعنى الارتفاع؛ يقال: استقلّ الطائر في طيرانه، واستقلّ النبات^(٤٣).

١٤ - مقادة: قال شاكر في تقديمه للظاهرة القرآنية: «وألقوا إليه المقادة»^(٤٤). والمقادة - بفتح الميم - بمعنى القيادة؛ ومراد شاكر: انقادوا له. واقتصر المعجم الوسيط على تعبير «أعطاه مقادته»^(٤٥)!

١٥ - مमाذقة: قال شاكر في (رسالة في الطريق إلى ثقافتنا): «وفى الألسنة الحلوة والخلاصة والمماذقة»^(٤٦). والمماذقة مصدر، يقال: ماذق

(٤٠) طبقات فحول الشعراء ص ٥٦٣.

(٤١) تاج العروس للزبيدي (ط ع م) ج ٣٣ / ١٤، (ك س و) ج ٣٩ / ٤٠١.

(٤٢) الظاهرة القرآنية بتقديم شاكر ص ٥٣.

(٤٣) تاج العروس للزبيدي (ق ل ل) ج ٣٠ / ٢٧٦.

(٤٤) الظاهرة القرآنية بتقديم شاكر ص ٥١.

(٤٥) المعجم الوسيط (ق و د) ج ٢ / ٧٩٥.

(٤٦) رسالة في الطريق إلى ثقافتنا ص ٨٠.

الود: لم يُخلص^(٤٧).

١٦ - طائرة نفّاثة: قال الدكتور أيمن فؤاد سيد في تعريفه بشاكر: «وفي الفترة القليلة التي شارك فيها في إخراج (المختار) استطاع أن يقدم مستوى للترجمة الصحفية لم يُعرف من قبل، وأدخل عددًا من المصطلحات الجديدة في اللغة للتعبير عن وسائل واختراعات حديثة من نوع الطائرة النفّاثة»^(٤٨). ونقل الأستاذ منذر أبو شعر في مقدمة (معجم محمود محمد شاكر) ص ٩ كلامَ الدكتور أيمن بلا إحالة إليه! وعلى الرغم من ذلك لم يذكر (نفّاثة) في موضعها من مداخل المعجم؛ فكيف يصلح المعجم دليلاً على لغة شاكر؟!

١٧ - وجدان: قال شاكر في تقديمه للظاهرة القرآنية: «ولكنهم وجدوا في أنفسهم مفارقتة لبيان البشر وجداناً ألجأهم إلى ترك المعارضة... يجد في نفسه وجداناً واضحاً أن خصائص بيان القرآن مفارقة لخصائص بيان البشر»^(٤٩). والوجدان هنا بمعنى الإدراك، وأما وجد وجدًا فمعناه أحبّ أو حزن، ووجد وجدًا وجدّة: صار ذا مال، ووجد موجدّة: غضب.

الخاتمة:

لا شك أن للشعر الجاهليّ تأثيراً على معجم الأستاذ محمود شاكر المفعّم بالغريب، ولم يقتصر الغريب عنده على الألفاظ؛ ففي تحقيقه لطبقات فحول الشعراء قال: «بله أستاذ يقول عن نفسه»^(٥٠)؛ فقد جرّ ما بعد

(٤٧) تاج العروس (م ذق) ج ٢٦ / ٣٨١.

(٤٨) دراسات عربية وإسلامية مهداة إلى أديب العربية الكبير أبي فهر محمود محمد شاكر بمناسبة بلوغه السبعين ص ١٥، والنص بتصوّف يسير من غير إحالة في مقال للطناحي منشور بالهلال عام ١٩٩٧م؛ أي: بعد خمسة عشر عامًا من كلام أيمن فؤاد! راجع مقالات العلامة الدكتور محمود محمد الطناحي ص ٤٨٣.

(٤٩) الظاهرة القرآنية بتقديم شاكر ص ٥٠، ٥٨.

(٥٠) برنامج طبقات فحول الشعراء ص ١٦٨.

«بله» على أنها مصدر، على الرغم من شهرة النصب بعدها على أنها اسم فعل أمر^(٥١)! وقال في التحقيق نفسه: «فهذا أنا» بدلاً من «فهاًذا»^(٥٢)!

وقد أشرتُ في الصفحات السابقة إلى نماذج توضّح استعماله للشائع المحدث بجانب الفصح المهجور إيماناً منه بأن اللغة بنت الاستعمال. ولعلّ التعمّق في معجم شاكر يكشف الكثير عن فكره اللغوي.

وكشفت الصفحات السابقة عن بعض ما أخلّ به الأستاذ منذر محمد سعيد أبو شعر في عمله؛ فقد فاته الكثير من المواد اللغوية التي تمثّل معجم الأستاذ شاكر، وأخطأ أيضاً في بعض إجراءات الصناعة المعجمية مثل الترتيب، والضبط الأشهر، وتابع الأستاذ شاكرًا في بعض أخطائه بلا نقد أو تعليق!

ولعلّ تواضع صانع المعجم وحبّه للشيخ محمود شاكر يُغريانه بقراءة هذه المراجعة النقدية قراءة متأنية مُنصفة تُعينه على إخراج طبعة ثالثة مزيّدة منقّحة من عمله المشكور (معجم محمود محمد شاكر).

* * *

المصادر والمراجع

- أباطيل وأسمار- محمود محمد شاكر- مطبعة المدني- القاهرة- مصر
ط ٢/ ١٩٧٢ م.

(٥١) راجع تاج العروس للزبيدي (ب ل ه) ج ٣٦ / ٣٤٥، والمعجم الوسيط (ب ل ه) ج ١ / ٧٣.

(٥٢) برنامج طبقات فحول الشعراء ص ١٧٢.

- أزاهير الفصحى في دقائق اللغة - عباس أبو السعود - دار المعارف - القاهرة - مصر ط ١ / ١٩٧٠ م.
- تاج العروس للزبيدي (ت ١٢٠٥ هـ) - تحقيق مجموعة من الأساتذة - مطبعة حكومة الكويت - الكويت ط / ١٩٦٥ - ٢٠٠١ م.
- تفسير الطبري (ت ٣١٠ هـ) - حَقَّقَه وعلَّقَ حواشيه محمود محمد شاكر، وراجعته وخرَّجَ أحاديثه أحمد محمد شاكر - دار المعارف - القاهرة - مصر ط / ١٩٥٤ - ١٩٦٩ م.
- حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة للسيوطي (ت ٩١١ هـ) - وضع حواشيه خليل المنصور - دار الكتب العلمية - بيروت - لبنان ط ١ / ١٩٩٧ م.
- خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر للمحبي (ت ١١١١ هـ) - دار صادر - بيروت - لبنان (د.ت) - مصورة عن طبعة المطبعة الوهبية - القاهرة - مصر ط / ١٢٨٤ هـ.
- دراسات عربية وإسلامية مهداة إلى أديب العربية الكبير أبي فهر محمود محمد شاكر بمناسبة بلوغه السبعين - مكتبة الخانجي ومطبعة المدني - القاهرة - مصر ط / ١٩٨٢ م.
- رسالة في الطريق إلى ثقافتنا - محمود محمد شاكر - مكتبة الأسرة - الهيئة المصرية العامة للكتاب - القاهرة - مصر ط / ٢٠٠٩ م.
- طبقات فحول الشعراء لابن سلام الجمحي (ت ٢٣١ هـ) - قرأه وشرحه محمود محمد شاكر - دار المدني - جدة - السعودية ط / ١٩٨٠ م.
- الظاهرة القرآنية - مالك بن نبي - ترجمة د. عبد الصبور شاهين - الهيئة العامة لقصور الثقافة - القاهرة ط / ٢٠٠١ م، وطبعة بإشراف ندوة

- مالك بن نبي - دار الفكر - دمشق - سورية ط / ١٩٨٥ م.
- العربية الصحيحة - د. أحمد مختار عمر - عالم الكتب - القاهرة - مصر ط ٢ / ١٩٩٨ م.
- في اللهجات العربية - د. إبراهيم أنيس - مكتبة الأنجلو المصرية - القاهرة - مصر ط ٨ / ١٩٩٢ م.
- في تاريخ الفنون الجميلة - سمير غريب - دار الشروق - القاهرة - مصر ط ١ / ١٩٩٨ م.
- المتنبي، رسالة في الطريق إلى ثقافتنا - محمود محمد شاكر - مطبعة المدني ومكتبة الخانجي - القاهرة - مصر ط / ١٩٨٧ م.
- المحكم لابن سيده (ت ٤٥٨ هـ) - تحقيق د. عبد الحميد هندراوي - دار الكتب العلمية - بيروت - لبنان ط ١ / ٢٠٠٠ م.
- المستفاد من ذيل تاريخ بغداد لابن النجار البغدادي - انتقاه شهاب الدين الدمياطي (ت ٧٤٩ هـ) - حققه وعلّق عليه محمد مولود خلف - مؤسسة الرسالة - بيروت - لبنان ط ١ / ١٩٨٦ م.
- المستفاد من مبهمات المتن والإسناد لأبي زرعة العراقي (ت ٨٢٦ هـ) - تحقيق د. عبد الرحمن عبد الحميد البر - دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع - المنصورة - مصر، ودار الأندلس - جدة - السعودية ط ١ / ١٩٩٤ م.
- المعجم الكبير - مطبوعات مجمع اللغة العربية - القاهرة - مصر (حرف الخاء) ط ١ / ٢٠٠٤ م، (حرف الدال) ط ١ / ٢٠٠٦ م.
- معجم اللغة العربية المعاصرة - د. أحمد مختار عمر بمساعدة فريق عمل - عالم الكتب - القاهرة - مصر ط ١ / ٢٠٠٨ م.
- المعجم الوجيز - مطبوعات مجمع اللغة العربية - القاهرة - مصر

- ط / ١٩٨٠ م.
- المعجم الوسيط - مطبوعات مجمع اللغة العربية - القاهرة - مصر
ط ٣ / ١٩٨٥ م.
- معجم محمود محمد شاكر - إعداد منذر محمد سعيد أبو شعر -
المكتب الإسلامي - بيروت - لبنان ط ٢ / ٢٠٠٧ م.
- مقالات العلامة الدكتور محمود محمد الطناحي - دار البشائر
الإسلامية - بيروت - لبنان ط / ٢٠٠٢ م.
- ملاحظات نقدية حول مادة المعجم الوجيز ومنهجه - د. محمد جمعة
الدّربي - العدد ٨ - مجلة اللغة - مركز البحوث العربية والإفريقية -
القاهرة - مصر ط / ٢٠١٠ م.
- الوحشيات (الحماسة الصغرى) لأبي تمام (ت ٢٣١هـ) - علّق عليه
وحققه عبد العزيز الميمني، وزاد في حواشيه محمود محمد شاكر - دار
المعارف - القاهرة - مصر ط ٣ / ١٩٨٧ م.

* * *

ديوان نجم الدين بن سوار الدمشقي

(ت ٦٧٧هـ)

نظرات نقدية... ومستدرك

د. عباس هاني الجراح^(*)

نجم الدين أبو المعالي محمد بن سوار بن إسرائيل بن الخضر بن إسرائيل ابن الحسن بن علي بن الحسين الشيباني، شاعر دمشقي، غزير الشعر؛ تأثر بآراء محيي الدين ابن عربي (ت ٦٣٨هـ) وأبي الحسن الحريري البصري (ت ٦٤٥هـ) في وحدة الوجود ووحدة الشهود. تُوفي سنة ٦٧٧هـ^(١).

وقد عرفه القدماء بـ «ابن سوار»، أو «ابن إسرائيل»، اختصاراً. أما ديوانه الذي صنعه وقام بنسخه بيده، فقد رجع إليه مترجموه، ونقلوا منه عدداً من القصائد الطوال وبعض القطع والتتف، كما فعل اليوناني

(*) باحث من العراق.

ورد إلى مجلة المجمع بتاريخ ١٢/٢/٢٠٢٠م.

(١) ترجمته في: ذيل مرآة الزمان ٢٥/٤-٥١، تالي كتاب وفيات الأعيان ١٤٢، تاريخ الإسلام ٣٤٧/١٥-٣٥٢، الوافي بالوفيات ١٤٣/٣-١٤٥، فوات الوفيات ٣/٣٨٣-٣٨٩، عيون التواريخ ٢١/٢٠٥-٢١٥، تاريخ ابن الفرات ٧/١٣١، النجوم الزاهرة ٧/٢٨٢، نزهة الأنام في تاريخ الإسلام ١٢٦-١٢٨، عقد الجمان ٢/٢٠٩-٢١٠، المنهل الصافي ١٠/٧٨-٨٠، الدليل الشافي ٢/٦٢٦.

(ت ٧٢٦هـ)^(٢)، والصقاعي (ت ٧٢٦هـ)^(٣)، والذهبي (ت ٧٤٨هـ)^(٤)، وابن الفرات (ت ٨٠٧هـ)^(٥)، ولكن هذا الديوان الذي بخطه لم يصل إلينا، بل وصلت مخطوطات منه بخط غيره.

وصدر عن مجمع اللغة العربية بدمشق سنة ١٤٣١هـ / ٢٠١٠م (ديوان نجم الدين بن سوار الدمشقي) بتحقيق الأستاذ محمد أديب الجادر، ووقع - مع فهرسه - في ٨٠٧ صفحات.

لقد بذل المحقق جهداً كبيراً في تحقيقه وإخراجه وخدمته، وقدّم بذلك إضافةً جليّةً للمكتبة العربية عامة وللشعرية خاصة، وذكر في مقدّمته أنّه لم يعثر على مخطوطة الديوان التي نسخها الشاعر بيده، ولكنه وقف على أربع نسخ؛ الأولى نسخة الإسكوريال بالرقم (٤٣٧)، وهي نسخة قديمة ربّما الناسخ على وفق الموضوعات، وختمها بالدويّات، وقد اتخذها المحقق الفاضل أصلاً، ورمز لها بـ(أ)، أمّا النسخ الثلاث الباقيات فهي في مكتبة الظاهرية بدمشق، بالأرقام (٧٠٠) و(٦٥٧٣) و(٤٩)، ورمز لها بـ(ب) و(ج) و(د)، وكانت ناقصةً ومدشوشة* مدشوشة، وقد أتت الرطوبة على جانب منها.

وقد جعل نسخة الإسكوريال أمّا في تحقيق الديوان، وعمّاده في الترتيب، وبها تنتهي نصوصها في الصحيفة ٦٦٥ من الديوان المطبوع، وختم

(٢) ينظر: ذيل مرآة الزمان ٢٧/٤ - ٣٠.

(٣) ينظر: تالي كتاب وفيات الأعيان ١٤٢.

(٤) ينظر: تاريخ الإسلام ٣٤٧/١٥.

(٥) ينظر: تاريخ ابن الفرات ١٣١/٧، وذكر أنّه في مجلدين.

(*) مدشوشة: أي: مخرومة، أو مشتتة غير مرتبة. وهي مبنية من «الدشت»: الورق المبعر، غير المجموع في كتاب،... والأوراق المشتتة؛ كما في (تقاليد المخطوط العربي - معجم المصطلحات)، آدم جاسك، ترجمة مراد تدغوت، معهد المخطوطات العربية - القاهرة، ٢٠١٠، ص ١٠٨. والكلمة من أصل فارسي. = [المجلة].

تحقيقه بـ (تكملة الديوان)، ص ٦٦٧-٧٠١، وضمت مستدركين رتبهما المحقق بتسلسل قوافيهما على حروف المعجم؛ الأول: ما لم يرد في نسخة (أ) وورد في النسخ الثلاث الباقية، والثاني: ما ورد في المصادر المطبوعة ولم يرد في مخطوطات الديوان، وهي (تاريخ ابن الفرات) و(ذيل مرآة الزمان) و(مسالك الأبصار) و(سرور النفس) و(المقفى الكبير) و(عيون التواريخ) و(عقد الجمان) و(حسن المحاضرة) و(الغيث المسجم).

وختم عمله بالفهارس الفنية المفيدة، فقائمة المصادر والمراجع. وقام بترقيم نصوص الديوان، فكانت ٧٧٧ نصاً، ما بين قصيدة ومقطعة وتنفية ودوبيت ومواليا.

وقد رأينا أن نورد هنا بعض النظرات النقدية التي تشمل الدراسة والنص المحقق، ثم مستدركا لما أحل به الديوان.

نظرات نقدية:

وتضم ما ورد في المقدمة ونص الديوان.
من ذلك:

١ - ضبط كلمة «سوار»: ضبط المحقق الكريم والد الشاعر - في ص ٥، وعلى غلاف الديوان - بكسر السين وفتح الواو: «سِوَار»، والصواب بفتح السين وتشديد الواو وفتحها: «سَوَار»، والسَّوَار، ككتان: الأسد، لوثوبه، كالمساور^(٦)، وهي مضبوطة بهذا الشكل عند الذهبي (ت ٧٤٨هـ)^(٧)، فضلاً عن وجود جماعة من الأعلام بهذا الضبط للاسم، حتى قال ابن حجر العسقلاني (ت ٨٥٢هـ): «وسَوَارٌ، بالتشديد وفتح أوله: كثير»^(٨)، ومنهم:

(٦) تاج العروس (سور) ١٠٧/١٢.

(٧) تاريخ الإسلام ٣٤٧/١٥.

(٨) تبصير المنتبه ٦٩٩/٢-٧٠٠، وينظر: الأعلام ١٤٥/٣، ١٤٤/٨، ومصادره ثمة.

سَوَّارُ بْنُ الْحُسَيْنِ الْكَاتِبِ الْمِصْرِيِّ، وَسَوَّارُ بْنُ حَمْدُونَ بْنِ يَحْيَى الْأَلْبِيرِيِّ،
وسَوَّارُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ الْقَاضِي، وَسَوَّارُ بْنُ يُوسُفَ بْنِ سَوَّارِ الْمَرَادِيِّ، وغيرهم.

٢- وفاته: أجمعت المصايدُ على أنَّ سنة وفاة الشاعر هي ٦٧٧هـ/ ١٢٧٨م،
وهو ما قال به مُحَقِّقُهُ الْفَاضِلُ فِي الصَّحِيفَتَيْنِ ٣٥-٣٦ مِنَ الدَّرَاسَةِ.

ولكنَّ صَارِمَ الدِّينِ بْنِ دِقْمَاقٍ (ت ٨٠٩هـ) فِي كِتَابِ (نَزْهَةِ الْأَنَامِ فِي
تَارِيخِ الْإِسْلَامِ) تَرَجَّمَ لَهُ فِي وَفَيَاتِ سَنَةِ ٦٣٧هـ، وَهُوَ خَطَأٌ مِنْهُ، وَهَذَا
الْكِتَابُ لَمْ يَرْجِعْ إِلَيْهِ مُحَقِّقُ الدِّيَوَانِ لِمُنَاقَشَتِهِ، أَوْ لِلإِفَادَةِ مِنَ النُّصُوصِ
الشَّعْرِيَةِ الَّتِي وَرَدَتْ فِيهِ لِلشَّاعِرِ، فَهَذِهِ النُّصُوصُ تُعَزِّزُ مَا نَقَلَهُ الْمُحَقِّقُ مِنْ
(تَارِيخِ ابْنِ الْفَرَاتِ) فَقَطْ.

٣- مخطوطات الديوان: ذَكَرْتُ أَنَّ الْمُحَقِّقَ قَدْ رَجَعَ إِلَى أَرْبَعِ نَسَخٍ مِنْ
دِيَوَانِهِ، فَصَّلَ الْحَدِيثَ فِيهَا، لَكِنْ فَاتَهُ أَنَّ الْأَدِيبَ وَالْمُؤَرِّخَ مُحَمَّدَ خَلِيلَ الْمُرَادِيِّ
(ت ١٢٠٦هـ) أَشَارَ إِلَى أَنَّهُ نَسَخَ دِيوَانَ ابْنِ إِسْرَائِيلَ عَنْ نُسخَةٍ عَتِيقَةٍ، إِذْ قَالَ:
«وَاشْتَهَرَ دِيوَانُهُ، وَقَدْ وَجَدْتُهُ عِنْدَ بَعْضِ أَصْحَابِنَا مِنَ الْعُلَمَاءِ بِخَطِّ عَتِيقٍ، وَأُظِّنُهُ^(٩)
كُتِبَ أَيَّامَ النَّازِمِ، غَيْرَ أَنَّ أَكْثَرَهُ مَنْخَرَمٌ، وَكُتِبَتْ عَنْهُ نُسخَةٌ مَوْجُودَةٌ عِنْدِي غَيْرَ
تَامَّةٍ؛ لِنُقْصَانِ غَالِبِ الْقَصَائِدِ وَالْأَبْيَاتِ فِي الْأَصْلِ الْمَنْقُولِ عَنْهُ»^(١٠).

وَهَذَا أَمْرٌ مُهِمٌّ يُضَافُ إِلَى مَنْ نَسَخَ الدِّيَوَانَ أَوْ أَشَارَ إِلَيْهِ؛ لِمَعْرِفَةِ
سَيْرُورَةِ شِعْرِهِ، وَاهْتِمَامِ الْمُؤَرِّخِينَ وَالْأَدَبَاءِ بِهِ.

٤- ص ٦٨٩-٦٩٠ (القطعة ٧٥٣) وَرَدَتْ هَكَذَا:

..... أَنَّهُ لِي مُبْغُضٌ

لَكِنْ دَرَى أَنَّ الْبِعَادَ يَزِيدُنِي عَزًّا [فَعَزَّزَ] مُهْجَتِي بِيَعَادِهِ

(٩) فِي الْأَصْلِ: «اللَّهُمَّ»، وَلَعَلَّ الصَّوَابَ مَا أَثْبَتَاهُ.

(١٠) الْبَلْبُلُ الْبَلِيلُ فِيمَا يَتَعَلَّقُ بِقَصِيدَةِ ابْنِ إِسْرَائِيلَ ٨٤ أ، وَقَدْ انْتَهَيْنَا مِنْ تَحْقِيقِهِ، وَدَفَعْنَا بِهِ إِلَى النَّشْرِ.

وقد رَجَعَ الْمُحَقِّقُ فِي إثباتها هكذا إلى: تاريخ ابن الفرات ١٣٤/٧، وذكر أنَّ الكلمة التي زادها بين عضادتين في عجز الثاني «لإتمام المعنى والوزن».

قُلْتُ: البيتان في: نزهة الأنام في تاريخ الإسلام ١٢٧، ومن غير عَزْوٍ في: العقد الثمين ٢٧٧، وهما مصدران لم يرجع إليهما المُحَقِّقُ، وقد وردَ البيتان فيهما كاملين بهذه الصُّورَة:

وَمَا صَدَّ عَنِّي أَنَّهُ لِي مُبْغَضٌ وَلَا أَنَّ قَتْلِي فِي الْهَوَى مِنْ مُرَادِهِ
وَلَكِنْ دَرَى أَنَّ الْبِعَادَ يَزِيدُنِي غَرَامًا، فَأَحْيَا مُهْجَتِي بِبِعَادِهِ
٥- ص ٦١٥ (القطعة ٥٧٢)، ورد دوبيت، جاء في أوله:

مِنْ أَعْجَبَ مَا يُرَى وَمِنْ أَغْرَبِهِ وَسَنَانٌ مُسَلَّطٌ عَلَى مُتَبِّهِ
قلت: «وسنان» بتنوين النون يَنكسرُ به وَزْنُ الدوبيت، والصوابُ
«وَسَنَانٌ» بِالضَّمِّ فَقَطْ.

وأُضِيفَ إِلَى تخريج الدُّوبيت أَنَّهُ وَارِدٌ فِي: الدرّ المصون ٩٥./٢
٦- ص ٦٩٤ (القطعة ٧٦٣)، ورد بيتان من الطويل، أوردهما مُحَقِّقُ
الدِّيَّانِ أَيْضًا مِنْ: تاريخ ابن الفرات ١٣٢/٧، وجاء الأول هكذا:

ونشوان يجلو البدرَ مِنْ حُسْنِ وَجْهِهِ عَلَيْنَا قَضِيبٌ
وذكر في الهامش أَنَّ العجز في المصدر بياض، واقترح أَنْ يَكُونَ:
«علينا قَضِيبٌ فِي المودَّةِ مَائِسٌ».

قلت: البيتان في: كشف الحال في وصف الخال ٢٢٤، وصحائف
الحسنات ٧١، وهما مصدران لم يرجع إليهما المُحَقِّقُ أَيْضًا، وقد جَاءَ فِيهِمَا
الْبَيْتُ كَامِلًا هَكَذَا:

ونشوان يَجْلُو الْبَدْرَ مِنْ حُسْنِ وَجْهِهِ عَلَيْنَا قَضِيبٌ لِيْنُ الْعِطْفِ مَائِسٌ
٧- في المستدرِك الأول (ص ٦٦٩)، عن المخطوطتين (ج) و(د) وردَ
هذان البيتان:

أَوَّلُ عَشْقِي فُتُورَ عَيْنِي ليس له في الغرامِ آخِرُ
وعاشقُ المُقلتينِ يَفْنَى وليس يسلو إلى المقابرِ
قلتُ:

أ: البيتان له في: الدر المصون المسمّى بسحر العيون ٦٣-٦٤.
ب: هُما لِمُعَاصِرِهِ سيف الدين المُشَدِّ (ت ٦٥٦هـ) في ديوانه ٤٠٢،
ورواية الأَوَّل:

أَوَّلُ عَشْقِي فُتُورُ عَيْنِي لِكِ مَا لَهُ فِي الْغَرَامِ آخِرُ
٨- ص ٦٨٦ (القطعة ٧٤٤) ورد هذان البيتان:

وقلتُ: شهودي في هواك كثيرةٌ وأصدقها قلبي ودَمْعِي مسفوحُ
فقال: شهودٌ ليس يُقْبَلُ قولُها فدمعُكَ مقذوفٌ وقلْبُكَ مجروحُ
وعَلَّقَ في الهامش أنَّهما يُنسبانِ في الوافي بالوفيات ٣/٢٠٠، وفوات
الوفيات ٣/٣٩٣ إلى محمد بن عباس عماد الدين الديسري.
قلتُ: هُما لابن سوار في: مستوفي الدواوين ١/١٣٣.
وهما أيضًا لابن الظهير الإربلي في: ديوانه (المنسوب) ٢٥٥.
٩- ص ١٥١:

سقى أبرقَ الجَنَّاتِ حيثُ مَصِيفُكُمْ من المُرْنِ داني الهَيْدَبَيْنِ مَطِيرُ
قلتُ: «أبرقَ الجَنَّاتِ» تصحيفٌ، والصَّوابُ: «أبرقَ الحَنَّانِ»، وهو موضعٌ^(١١).
١٠- ص ٣٥٨، أوردَ المحقق ثلاثة أبيات في الهامش؛ لكونها «كُتِبَتْ
بخطٍ مغايرٍ»، أوَّلُها:

وليس أخِي مَنْ ودَّني بلسانه ولكنْ أخِي مَنْ ودَّني في النَّوائبِ
قلتُ: هي للعتَّابِي في: بهجة المجالس ١/٦٨٧.

(١١) ينظر: معجم البلدان ١/٦٧.

ولعبد الله بن المخارق (نابغة بني شيبان) في: الحماسة البصرية ٨٧٩،
وليست في ديوانه.

١١ - ص ٦١٥، ورد الدوييت (٥٧٢)، وجاء المصراع الأخير منه:

وَالسَّهْمُ مُحَجَّبٌ فَيُصْمِيهِ بِهِ

وهو في: الدر المصون ٩٥/٢ برواية:

وَالسَّهْمُ مُحَجَّبٌ فَيُصْمِيكَ بِهِ

١٢ - ص ١٧٣، وَرَدَتْ عبارة «يصف شعرية»، فَأُورِدَ الْمُحَقِّقُ فِي
هَامِشِهِ قَوْلَ د. شفيق البيطار: وقد بحثت عنها فلم أجد لها ذكراً سوى قول
ابن دانيال:

وَكَأَنَّ نَسَجَ الْعَنْكَبُوتِ وَبَيْتَهُ شَعْرِيَّةً مِنْ فَوْقِ مُقْلَةٍ أَرْمَدَ

وَرَجَعَ إِلَى (النجوم الزاهرة) و(نهاية الأرب) في إيراد إشارتين لها، ثمَّ
ورد: «وهذا يدلُّ على أنها شيء يُصنع من الشعر يوضع فوق عيني الأرمد».
قُلْتُ:

أ: لَمْ يَذْكُرِ الْجَزَاءَ وَلَا الصَّفْحَةَ لِكُلَا الْكِتَابَيْنِ السَّابِقَيْنِ، وَأَمْرٌ إِثْبَاتُهُمَا
ضَرُورِيٌّ هُنَا؛ لِلدَّقَّةِ وَالتَّوْثِيقِ، وَهُمَا فِي أَجْزَاءٍ مُتَعَدِّدَةٍ، فَالْكِتَابُ الْأَوَّلُ فِي:
٤/١١، وَالْكِتَابُ الثَّانِي فِي: ٥٥/٢.

ب: لَمْ يُورَدْ مَصْدَرُ بَيْتِ ابْنِ دَانِيَالِ الْمُتَوَفَّى سَنَةَ ٧١٠ هـ، وَهُوَ فِي:
مَخْتَارِ دِيوَانِهِ ١٥٥.

وَأَمَّا قَوْلُ د. البيطار: «وقد بحثت عنها فلم أجد لها ذكراً سوى قول ابن
دانيال» فغير دقيق؛ لوجود شاعرٍ أَسْبَقَ مِنْهُ ذَكَرَ كَلِمَةَ «الشَّعْرِيَّة» صَرَاخَةً
بِالْمَعْنَى نَفْسِهِ، وَهُوَ يُوسُفُ بْنُ لُؤْلُؤِ الذَّهَبِيِّ (ت ٦٨٠ هـ) فِي قَوْلِهِ فِي

أرمد^(١٢):

[البسيط]

لَمَّا بَدَا وَعَلَى عَيْنَيْهِ مِنْ رَمَدٍ شَعْرِيَّةٌ، مَا لَهَا شَبَهٌ سِوَى الْغَسَقِ
كَأَنَّهُ الْبَدْرُ فَوْقَ النَّصْلِ، يَسْتَرُهُ غَيْمٌ، وَقَدْ كَحَلَّتُهُ الشَّمْسُ بِالشَّفَقِ
ج: استنتاجُ أنَّها «شيء يوضع...» لا داعي له، بل لا ضرورة للإطالة
وذكرِ الشواهد وإثقال الهامش، وكان الأولى الرجوع إلى مُعْجَمٍ يُقَيِّدُ هذه
المادة، وقد رجعتُ إلى: تكملة المعاجم العربية ٣١٧/٦، وفيه: «الشعرية:
غطاء صغير من شعر الحصان الأسود يغطي العينين فقط».

١٣ - ص ٦٧٨-٦٧٩ وردت ثلاثُ نُتْفٍ للشاعرِ في (حرف الألف)،
أوردها المحقق تحت رقم واحد هو [٧٣٧]، ضمن نصَّ نقله من كتاب
(عقد الجمان) للعينِي (ت ٨٥٥هـ).

وما فعله المحقق غير دقيق؛ لأنَّ التنتفة الثالثة من قافية الدال!، فضلاً
عن أنَّه أهملَ حساب التفتين الآخرين؛ لِمَا قُلْنَا مِنْ أَنَّهُ أوردَ التنتف مجتمعةً
برقم واحد! ومن ثمَّ إنَّ التفتين الأخيرتين لم تَرِدَا في فهرس القوافي!

١٣ - ص ٨٠٣، فهرس المصادر: «تأريخ الإسلام ووفيات مشاهير الأعلام».

والصواب: تأريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام.

وجاء أنَّ مُحَقِّقَ «كتاب البرزالي»: د. عمر عبد السلام التدمري.

الصواب: تدمري.

وجاء أن مؤلف كتاب (روضة الأدب في طبقات شعراء العرب):

شهاب الدين المخزومي الحجاري.

والصواب أنَّ لقبه: الحجازي، وهو أحمد بن محمد بن علي بن حسن بن

إبراهيم، ووفاته (٨٧٥هـ).

ويُصحح الخطأ الطباعي في المصدر [٢٥]: للدارسات، والصواب:
للدراسات.

ولا داعي لترقيم الكتاب المرقم بـ [٣٦]؛ لأنه إحالة على الكتاب الأصل.

المُسْتَدْرَكُ

نُثِبْتُ هُنَا مُسْتَدْرَكًا لِمَا لَمْ يَرِدْ فِي دِيوَانِ ابْنِ سَوَّارِ الدَّمَشْقِيِّ، عَثَرْنَا عَلَى
نُصُوصِهِ بَعْدَ تَقْصِينَا وَتَبَيُّعِنَا لِمَصَادِرِ التَّرَاثِ، وَقَدْ رَتَّبْنَاهُ عَلَى حُرُوفِ الْمُعْجَمِ،
وَضَبَطْنَاهُ كَلِمَاتِهِ، وَوَضَعْنَاهُ أَسْمَاءَ بُحُورِهِ، وَنَوْرُدُهُ لِيَكُونَ صِلَةً وَتِمَّةً لِلدِّيَوَانِ:

[١]

قَالَ ابْنُ إِسْرَائِيلَ: [السريع]
بَكَيْتُ مِنْ وَجْدِي عَلَيْهِ دَمًّا وَنَاطِرِي بِالْذَّمْعِ مَقْرُوعٌ
وَقُلْتُ: طَرْفِي شَاهِدٌ بِالْهَوَى فَقَالَ: ذَا الشَّاهِدُ مَجْرُوعٌ
التخريج: مُستوفي الدواوين ١/ ١٣٣.

[٢]

قَالَ ابْنُ إِسْرَائِيلَ: [الكامل]
١ - مَا ضَرَّ طَيْفَكَ حِينَ زَارَ وَسَادِي لَوْ كَانَ سَامَحَ نَاطِرِي بِرُقَادِي
٢ - لَمْ تَسْتَلْبِنِي نَعْسَةً تَأْتِي بِهِ إِلَّا وَعَقْدُ ضَمِيرِهِ إِبْعَادِي
٣ - أَوْ لَيْسَ جِسْمِي كَالْخِيَالِ، فَمَا لَهُ يُبْدِي لَدَيَّ تَجَنُّبَ الْأَشْدَادِ؟
٤ - يَا ضَرَّةَ الْقَمَرَيْنِ فِي سَعْدَيْهِمَا أَكْذًا مَنَعَتِ الطَّيْفَ مِنْ إِسْعَادِي؟
٥ - وَهَجَرْتَنِي لَمَّا مَلَكَتْ حَشَاشَتِي هَلَّا هَجَرْتَ وَفِي يَدَيَّ قِيَادِي
٦ - أَعْقِيلَةَ الْحَيِّ الْمُقِيمِ بِرَاهِطٍ مَا بَالُ رَهْطِكَ أَضْمَرُوا إِيْعَادِي^(١٣)

(١٣) في الأصل: «إبعادي»، وهو خطأ، والصواب ما أثبتناه بالباء لا الباء، فالكلمة من الفعل:
أَوَعَدَ: إِذَا هَدَّدَ، فَضْلًا عَنْ أَنَّ إِيْرَادَ كَلِمَةِ الْقَافِيَةِ هُنَا «إِيْعَادِي» تَمْنَعُ الْوُقُوعَ فِي الْإِيْطَاءِ مَعَ
قَافِيَةِ الْبَيْتِ الثَّانِي.

- ٧- سَدُّوا فِجَاجَ الشَّامِ دُونَ بِيُوتِهِمْ بِذَوَائِلٍ وَصَوَارِمٍ وَجِيَادٍ
 ٨- لَوْ أَنْصَفُوا لَمْ يَرْضُدُوا سُومَرَ الْقَنَا لَطَعِينَ أَسْمَرَ قَدَّكَ الْمِيَادِ
 ٩- فَسُيُوفُ لَحْظِكَ لَا تُسَامُ، وَرُبَّمَا قَرَّتْ سُيُوفُ أَبِيكَ فِي الْأَعْمَادِ
- التخريج: تأهيل الغريب ٦١٦-٦١٧.

[٣]

- وَلَهُ: [الكامل]
 عَدَّ الْكُؤُوسَ فَمِنْ رُضَابِكَ أَكْؤُوسِي وَاطْفِ الشُّمُوعَ فَأَنْتَ شَمْعُهُ مَجْلِسِي
 أَأَخَافُ صَحْوًا أَوْ ظَلَامًا وَالطَّلَى فِي نَاطِرِيكَ، وَأَنْتَ نُورُ الْحِنْدِسِ؟
- التخريج: عقود الجمان ٢٨٣ أ.

[٤]

- وَلَهُ فِي مَلِيحٍ لُقْبَ بَزْهَرِ السَّفَرَجَلِ: [مجزوء الكامل]
 زَهْرُ السَّفَرَجَلِ قَدْ أَتَى مِنْ قَبْلِ زَهْرِ اللَّوْزِ سَابِقُ
 مَا عَاقَهُ بَرْدُ الزَّمَا نِ، فَلَا يَعْقُكُمُ عَنْهُ عَائِقُ
 وَتَمَتَّعُوا بِشَبَابِهِ مِنْ قَبْلِ يَضْحَى وَهُوَ حَالِقُ
- التخريج: تاريخ حوادث الزمان ١/١٢٩، عقود الجمان^(١٤) ٢٨٣ أ.

[٥]

- وَقَالَ نَجْمُ الدِّينِ بْنِ إِسْرَائِيلَ يُعَاتِبُ الْحَافِظَ أَبَا الْمَحَاسَنِ يُوسُفَ ،
 وَيُعَرِّضُ بِمَعْشُوقٍ لَهُ يُلَقَّبُ بِالصَّبَا: [الخفيف]
 ١- أَيُّهَا الْحَافِظُ الْمُضِيعُ لِلْوُدِّ دِ، عَلَامَ الصُّدُودِ وَالْإِهْمَالِ؟
 ٢- أَبْهَذَا تُنَمِّي دَرَاهِمَكَ اللَّاتِي تَرَامَتْ مِنْ دُونِهَا الْأَهْوَالُ؟

(١٤) انتهينا من تحقيقه كاملاً قبل سنتين على مخطوطة مكتبة الفاتح في تركيا، بخط المصنّف، وأخرى متأخرة في مكتبة عارف حكمت بالمدينة المنورة.

- ٣- أَمْ بِهَذَا الْإِعْرَاضِ عَنْ وَدِّكَ الْمُخْدِ لِحِصِّ يَبْدُو مِنَ الصَّبَا إِقْبَالُ؟
 ٤- فِي سَبِيلِ الْوَفَاءِ وَدٌّ لِحِلٍّ مَالٌ عَيْنِي بِهِ الْهَوَى وَالْمَالُ
 التخريج: المختارات الفائقة ٣٦٣.

[٦]

قَالَ الشَّيْخُ الْإِمَامُ الْمُحَقِّقُ الْعَارِفُ بِاللَّهِ تَعَالَى نَجْمُ الدِّينِ ابْنُ إِسْرَائِيلَ
 الدمشقي:

[الكامل]

- ١- قُلْ لِلَّذِينَ تَعَرَّضُوا لَوْصَالِهِ هَلْ عِنْدَكُمْ شَغَفٌ يَفِي بِجَمَالِ؟
 ٢- مَنْ مِنْكُمْ رَجَعَتْ عَلَيْهِ حَيَاتُهُ فَسَخَا بِهَا مِنْ سَوْمٍ عَالٍ غَالٍ؟
 ٣- مَنْ مِنْكُمْ حَكَمَتْ عَلَيْهِ إِرَادَتِي لَمْ يَنْشَنْ بِتَمَلُّمٍ وَمَلَالٍ؟
 ٤- مَنْ مِنْكُمْ وَافَيْتُهُ فَوَجَدْتُهُ مُتَجَزِّعًا عَنْ سَائِرِ الْأَشْعَارِ؟
 ٥- إِنَّ الَّذِي رَعَتِ الْمَحَبَّةَ رُوحُهُ قَصْدَ التَّلَذُّذِ وَالتَّنْعُمِ لَا لِي
 ٦- لَوْ فَاتَهُ عَرَضٌ لَكَدَّرَ صَفْوَهُ فَيَبِيْتُ وَهُوَ مُسَامِرُ الْأَمَالِ
 ٧- وَلَقَدْ بَلَوْتُ سُرَاتِكُمْ فَوَجَدْتُهُمْ يَتَنَعَّمُونَ بِلَذَّةِ الْأَهْوَالِ
 ٨- وَإِذَا أَتَى اللَّيْلُ الْمُلِمُّ أُنَادِهِ: يَا لَيْلُ أَيْنَ أَحَبَّتِي وَرِجَالِي؟
 ٩- إِنْ سَرَّكُمْ [هذا]^(١٥) الَّذِي قَدْ قُلْتُهُ فَعِتَابُنَا أَحْلَى مِنَ السَّلْسَالِ
 ١٠- فَلَا خَلَعَنَّ عَلَيْكُمْ خِلْعَ الرِّضَا وَأُقَابِلُ الْأَذْيَالَ بِالْآزَالِ
 التخريج: نزهة النظار وروضة الأشعار ٢١.

[٧]

يُضَافُ إِلَى الْقَصِيدَةِ رَقْمَ (٤٩٦) فِي الصَّحِيفَةِ ٥٨٠ بَعْدَ الْبَيْتِ الثَّالِثِ

[الكامل]

هذه الأبيات:

(١٥) ما بين العضادتين زيادةٌ منِّي كي يستقيم الوزن.

- ١- وَقُلْ: اسْلَمُوا، فَقَدْ تَرَكْتُ بَرَامَةً لَكُمْ سَلِيمَ صَبَابَةٍ لَا يَسْلَمُ
 ٢- يَنْتَسِمُ الْأَرْوَاحَ مِنْ تَلْقَائِكُمْ وَلَقَلَّمَا يُغْنِي الْمَشُوقَ تَنْسَمُ
 ٣- وَإِذَا بَدَأَ بَرْقٌ تَعَرَّضَ سَائِلًا مَسْرَاهُ عَلَّ الْبَرْقَ يُخْبِرُ عَنْكُمْ
 ٤- أَأَحْبَبْتِي بِالْعُوطَتَيْنِ وَجَلَّقِ حَيْثُ دِيَارِكُمُ الْعَيْوُثُ السُّحْمُ
 ٥- لَمْ يُسْلِنِي الْبَيْتُ الْعَتِيقُ، وَلَا غَدَا هَوَاكُمُ عَنِ الْحَطِيمِ وَزَمَزَمُ
 ٦- إِنْ تُمَسِّ أَجْوَازُ الْمَهَامِهِ بَيْنَنَا لَعَلَّ صَرْفَ الدَّهْرِ تُدْنِي مِنْكُمْ
- التخريج: المختارات الفائقة ٤٨-٤٩.

[٨]

نجم الدين بن إسرائيل، له في مَلِيحٍ بِالزِّيَادَةِ: [مخلع البسيط]
 قَالُوا: بِمَنْ قَدْ كَلِفْتَ وَجَدًا؟ قُلْتُ: [بِمَنْ] ^(١٦) فِيهِ لِي إِرَادَةٌ
 كَالْقَمَرِ الَّتِي كَابُرُونِي قُلْتُ: نَعَمْ وَهُوَ فِي الزِّيَادَةِ
 التخريج: مجموع شعري مرتب على الحروف ٧١.

[٩]

قال:
 ١- سَرْجُهُ وَالْحِصَانُ الْأَشْقَرُ، وَالسَّيِّدُ فُ الْمُحَلَّى، وَحُسْنُ ذَاكَ الْمُحَيَّا
 ٢- كَهَلَالٍ مِنْ فَوْقِ بَرْقٍ، عَلَيْهِ بَدْرُ تَمٍّ مُقَلَّدٌ بِالْثُرَيَّا
 التخريج: رَشَفُ الزَّلَالِ فِي وَصْفِ الْهَلَالِ (عائش) ١٠٦، (الربيعي) ١١٨.
 وَلِأَحَدِ الْمَغَارِبَةِ فِي: التذكرة الفخرية ١٠٦.

المنسوب

[١٠]

يقولُ ابْنُ إِسْرَائِيلَ: [الطويل]

(١٦) ما بين العضادتين زيادة مني كي يستقيم الوزن.

- حَكَانِي بِهَارُ الرَّوْضِ حِينَ أَلْفَتْهُ وَكُلُّ مَشُوقٍ لِلْمَشُوقِ يُصَاحِبُ^(١٧)
فَقُلْتُ لَهُ: مَا بَالُ لَوْنِكَ أَصْفَرًا؟ فَقَالَ: لِأَنِّي حِينَ أُعْكَسُ رَاهِبٌ
التخريج: نزهة الأنام في محاسن الشام ١٣٨.
* هما للفضل بن إسماعيل في: حلبة الكميت ٢٥٢.
* من غير عزو في: الكشف والتنبيه ٣٠٢، خزنة الأدب ١/٤٥٧،
نفحات الأزهار ٢٤.

* * *

المصادر والمراجع

المخطوطة:

- البلبُلُ البلبُلُ فيما يَتَعَلَّقُ بِقَصِيدَةِ ابْنِ إِسْرَائِيلَ: محمد خليل المرادي (ت ١٢٠٦هـ)، مكتبة شسترتي في دبلن برقم ٤٧٥٦/مجاميع.
- عقود الجمان على وفيات الأعيان: مُحَمَّد بن بهادر الزركشي (ت ٧٩٤هـ)، مكتبة الفاتح بتركيا، الرقم ٤٤٣٥.
- مجموع شعري مُرتَّب على الحروف بحسب الموصوفات: مختارات من اختيارات كتاب لمجهول من القرن التاسع الهجري، دار الكتب القومية، القاهرة، الرقم ٦٧٨ شعر تيمور.
- نُزْهَةُ النَّظَارِ وروضة الأشعار: مجهول، مكتبة الإسكوريال، الرقم ٤٧٩.

(١٧) في المصادر - عدا الأول -: «مُصَاحِبُ».

المطبوعة:

- المختاراتُ الفائقة من الأشعارِ الرائقة: عبد العظيم بن عبد الواحد بن أبي الإصبع العدواني (ت ٦٥٤هـ)، تحقيق أحمد بن عبد العزيز الربيعي، دار البشائر الإسلامية، بيروت، ١٤٣٤هـ/٢٠١٣م.
- الأعلام: خير الدين الزركلي (ت ١٣٩٤هـ)، دار العلم للملايين، ط ٤، مطبعة كوستوتسوماس، بيروت، ١٩٧٩م.
- بهجة المجالس وأنس المجالس وشحد الذاهن والهاجس: أبو عمر يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر النمري القرطبي (ت ٤٦٣هـ)، تحقيق د. محمد مرسى الخولي، الدار المصرية للتأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ١٩٦٧م.
- تاريخ ابن الفرات: محمد بن عبد الرحيم بن علي بن الفرات (ت ٨٠٧هـ)، تحقيق قسطنطين زريق و نجلاء عز الدين، الجامعة الأمريكية، بيروت، ١٩٤٢م.
- تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام: محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي (ت ٧٤٨هـ)، حققه وضبط نصه وعلق عليه د. بشار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م.
- تاريخ حوادث الزمان وأنبأه ووفيات الأكابر من أبنائه؛ المعروف بتاريخ ابن الجزري: محمد بن إبراهيم بن أبي بكر الجزري القرشي (ت ٧٣٨هـ)، تحقيق د. عمر عبد السلام تدمري، المكتبة العصرية، صيدا - بيروت، ١٤٢٦هـ/٢٠٠٦م.
- تالي كتاب وفيات الأعيان: فضل الله بن أبي الفخر الصقاعي (ت ٧٢٦هـ)، تحقيق جاكين سوبلة، المعهد الفرنسي بدمشق، المطبعة الكاثوليكية، بيروت، ١٩٧٤م.

- تبصيرُ المتنِّب بتحريرِ المشتبه: أحمد بن علي بن محمد بن أحمد بن حجر العسقلاني (ت ٨٥٢هـ)، تحقيق محمد علي النجار، مراجعة علي محمد البجاوي، المكتبة العلمية، بيروت.
- تأهيلُ الغريب: أبو بكر بن علي بن عبد الله الحموي (ت ٨٣٧هـ)، تحقيق محمود حسن المصري، نادي المدينة المنورة الأدبي، ١٤٣٨هـ/٢٠١٧م.
- التذكرةُ الفخريةُ: بهاء الدين علي بن عيسى الإربلي (ت ٦٩٢هـ)، تحقيق د. حاتم صالح الضامن، دار البشائر، دمشق، ١٤٢٥هـ/٢٠٠٤م.
- تكملةُ المعاجم العربية: رينهارت دوزي (ت ١٨٨٣م)، ترجمة د. محمد سليم النعيمي، بغداد، ١٩٩٠م.
- الحماسةُ البصريَّة: صدرُ الدين علي بن أبي الفرج بن الحسن البصري (ت ٦٥٦هـ)، تحقيق ودراسة د. عادل سليمان جمال، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٤٢٠هـ/١٩٩٩م.
- حلبةُ الكميت في الأدب والنوادر: محمد بن حسن النواجي (ت ٨٥٩هـ)، المطبعة المصرية، مصر، ١٢٢٧هـ/١٨٥٩م.
- خزانةُ الأدب وغايةُ الأرب: أبو بكر بن علي بن عبد الله، المعروف بابن حجة الحموي (ت ٨٣٧هـ)، تحقيق د. كوكب دياب، دار صادر، بيروت، ط ٢، ١٤٢٥هـ/٢٠٠٥م.
- الدرُّ المصون المسمَّى بسحر العيون: أبو بكر تقي الدين البدريِّ الدمشقي (ت ٨٩٤هـ)، تحقيق سيد صديق عبد الفتاح، دار الشعب، القاهرة، ١٩٩٨م.
- ديوانُ ابن الظَّهير الإربلي (ت ٦٧٧هـ)، جمع وتحقيق وشرح ودراسة د. عبد الرزاق حويزي، مكتبة الآداب، القاهرة، ١٤٢٧هـ/٢٠٠٦م.

- ديوانُ سيف الدين المشد؛ عليّ بن عمر بن قزل (ت ٦٥٦هـ)، دراسة وتحقيق وتذييل عباس هاني الجَرّاح، رسالة ماجستير، كليّة التربية، جامعة بابل، ٢٠٠٠م.
- ديوانُ نابغة بني شييان، باعتناء أحمد نسيم، مطبعة دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٣٥١هـ/١٩٣٢م.
- ديوانُ نجم الدين بن سوار الدمشقيّ (ت ٦٧٧هـ)، تحقيق محمد أديب الجادر، مجمع اللغة العربية بدمشق، ١٤٣١هـ/٢٠١٠م.
- ديوانُ يوسف بن لؤلؤ الذهبيّ (ت ٦٨٠هـ)، جمع وتحقيق ودراسة د. عباس هاني الجَرّاح، دار صادر، بيروت، ١٤٣٧هـ/٢٠١٦م.
- ذيلُ مرآة الزمان: موسى بن محمّد اليونينيّ (ت ٧٢٦هـ)، تحقيق د. عبّاس هاني الجَرّاح، دار الكتب العِلْمِيّة، بيروت، ٢٠١٣م.
- رَشْفُ الزلال في وصف الهلال: خليل بن أيك الصفديّ (ت ٧٦٤هـ):
* تحقيق أحمد بن عبد العزيز الرُّبعيّ، مكتبة الرُّشد - ناشرون، الرياض، ١٤٣٠هـ/٢٠٠٩م.
- * تحقيق محمد عايش، دار الأوائل، دمشق، ٢٠٠٩م.
- صَحَائِفُ الحَسَنَاتِ في وصف الخال: شمس الدين النواجيّ (ت ٨٥٩هـ)، تحقيق ودراسة د. حسن محمد عبد الهادي، دار الينابيع، عمان، ٢٠٠٠م.
- العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين: تقي الدين محمد بن أحمد الحسني الفاسي المكي (ت ٨٣٢هـ)، تحقيق محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٨م.
- عقد الجُمان في تاريخ أهل الزمان: بدر الدين محمود العينيّ (ت ٨٥٥هـ)، تحقيق محمد محمد أمين، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٨م.

- عيونُ التواريخ: محمد بن شاكر الكتبي (ت ٧٦٤هـ)، ج ٢٣، تحقيق نبيلة عبد المنعم، بغداد، ١٩٩١م.
- فواتُ الوفيات والذيلُ عليها: مُحَمَّد بن شاكر الكتبي (ت ٧٦٤هـ)، تحقيق د. إحسان عَبَّاس، دار صادر، بيروت، ١٩٧٤م.
- كشفُ الحالِ في وصف الخال: خليل بن أبيك الصّفدي (ت ٧٦٤هـ)، تحقيق عبد الرحمن بن محمد بن عمر العقيل، الدار العربية للموسوعات، ط ١، بيروت، ١٤٢٦هـ/٢٠٠٥م.
- الكشفُ والتنبيه على الوصفِ والتشبيه: خليل بن أبيك الصّفدي (ت ٧٦٤هـ)، تحقيق هلال ناجي و وليد بن أحمد بن الحسين الزبيري، ليدز، بريطانيا، ١٩٩٩م.
- المختارُ من شعر ابن دانيال الحكيم، اختيار الإمام صلاح الدين خليل ابن أبيك الصّفدي (ت ٧٦٤هـ): حَقَّقَهُ وعلَّقَ عليه واستدركَ محمد نايف الدليمي، الموصل، مطبعة جامعة الموصل، ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م.
- المختاراتُ الفائقةُ مِنَ الأشعارِ الرائقة: عبد العظيم بن عبد الواحد بن أبي الإصبع العدواني (ت ٦٥٤هـ)، تحقيق أحمد بن عبد العزيز الربيعي، دار البشائر الإسلامية، بيروت، ١٤٣٤هـ/٢٠١٣م.
- مُستوفي الدواوين: محمد بن عبد الله الأزهري (ت ٨٨٧هـ)، تحقيق زينب القوصي و وفاء الأعصر، دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، ٢٠٠٣م - ٢٠٠٤م.
- معجمُ البلدان: ياقوت الحموي (ت ٦٢٦هـ)، دار صادر، دار بيروت، بيروت، ١٩٦٥م.
- النُّجُومُ الزَّاهِرَةُ في مُلُوكِ مصر والقاهرة: جمال الدين يوسف بن تغري بردي (ت ٨٧٤هـ)، دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٩٣٦م.

- نفحاتُ الأزهار على نسَماتِ الأسحار: عبد الغني بن إسماعيل بن عبد الغنيّ النابلسيّ (ت ١١٤٣هـ)، بولاق، ١٢٩٩هـ.
- نزهةُ الأنام في تاريخ الإسلام: إبراهيم بن محمد بن أيّدمر العلائيّ، الملقّب بابن دقماق (ت ٨٠٩هـ)، دراسة وتحقيق د. سمير طباره، المكتبة العصرية، صيدا - بيروت، ١٤٢٠هـ/١٩٩٩م.
- نزهةُ الأنام في محاسن الشام: أبو البقاء عبد الله البدريّ الدمشقيّ (ت ٨٩٤هـ)، تحقيق إبراهيم صالح، دار البشائر، دمشق، ٢٠٠٦م.
- نهايةُ الأرب في فنون الأدب: أحمد بن عبد الوهاب النويريّ (ت ٧٣٣هـ)، دار الكتب المصرية والهيئة المصرية العامّة للكتاب، القاهرة، ١٩٧٥م.
- الوافي بالوفيات: خليل بن أيّبك الصفدي (ت ٧٦٤هـ)، تحقيق مجموعة من المُستشرقين والعرب، جمعية المُستشرقين الألمانيّة، فرانز شتاينر، إسطنبول وبيروت.



المحاضرات والمدارسات (*)

(*) المدارس: هي المقابل العربي لكلمة (seminar) الأجنبية، وتعني بحثاً يقدمه أحد أعضاء المجمع، للتذكّر به ومناقشته في مجلس المجمع.

الكتابة في العلوم الإنسانية من منظور حركة الكفاءة اللغوية

أ. د. مهدي العش (*)

خلاصة:

الغاية من هذه الورقة تقديم منظور جديد لمهارة الكتابة يعتمد توصيفات الكتابة بمستوياتها المختلفة من المبتدئ إلى المتميز (حركة الكفاءة اللغوية - أكتفل ٢٠١٢). والتركيز هنا على أعلى مستويين: المتقدم والمتميز اللذين يمثلان كتابة الطلبة الجامعيين والدراسات العليا من أبناء اللغة وغيرهم.

النظر في عملية الكتابة لا بد أن يتطرق إلى أسلوب اختبار مهارة الكتابة. لهذا الأسلوب نماذج مختلفة تناسب مستوى الممتحن والغاية من الاختبار. فالممتحن قد يكون من أبناء العربية أو من غيرها من الذين يدرسون العربية. في حال أبناء اللغة، ينصب الاهتمام على درجة التحصيل في مقرر من المقررات الدراسية فضلاً عن مستوى الكفاءة اللغوية، وذلك

(*) الجامعة الافتراضية السورية، جامعة دمشق، عضو المجلس الأمريكي لتعليم اللغات الأجنبية (أكتفل) ومدرّب ومستشار.

ألقي الدكتور مهدي العش هذه المحاضرة في قاعة المجمع بتاريخ

٢٥ / ١١ / ٢٠٢٠ م.

لتقييم فاعلية التعليم من جهة ومقدار التعلم من جهة ثانية، أي: أن الاختبار غير موجه للطالب فحسب بل للجهة التي تقوم بالتعليم أيضاً. هذا النوع من الاختبار يدعى الاختبار التحصيلي وغايته قياس كمية المادة العلمية المكتسبة ممّا هو مقررّ، ويكون الاختبار موضوعياً أو مقالياً. في الحالة الثانية يكون التركيز على مستوى كفاءة الطالب الناطق بلغة غير العربية في تحقيق وظائف لغوية محددة وفق مستوى كفاءته في كتابة العربية، وهو جزء من اختبار الكفاءة العامة بالعربية الذي لا يعتمد مقررّاً علمياً محدداً أو مادة علمية بعينها. وستتطرق الورقة إلى بناء الاختبارين المقالّي والموضوعي وأنواع أسئلتهما.

ممارسات حالية في تقييم الكفاءة بالكتابة:

تواجه عملية تقييم الكتابة في مجال الإنسانيات صعوبات جمة في تصميم أدوات فاعلة لقياس قدرة الطالب في الكتابة وأداء المدرس في موضوعات تاريخية وأدبية ونقدية وفي المنطق والبلاغة والفلسفة والقانون وغيرها. إن اختبار الكتابة مؤشّر مهمّ للقدرة اللغوية والفكرية للطالب، والتقدم إليه جزء من عملية التقدم للدراسة الجامعية في العلوم الإنسانية، العليا منها خصوصاً في شتى بلدان العالم. تختلف الإجراءات من جامعة إلى أخرى، لكنها عموماً تحاول الإجابة عن سؤال حول مستوى كفاءة الطالب الكتابية. لكننا نعلم أنه لا يوجد توصيف واضح للمستويات، فكل اختبارات الكتابة عموماً تصحح على أساس شخصي مع وجود سُلمّ للتصحيح في بعض الأحيان مبني غالباً على أساس شخصي. وربما كان التقييم كمياً أو نوعياً، فعلى سبيل المثال قد تحصل إجابة مقالية على درجة ٨٠، لكنها لا تفي بالمناقشة التحليلية التي جرت في غرفة الصف، أو بحثت

في المقرر، وهناك مقالة أخرى ذات نوعية لغوية أدنى، لكنها تحتوي على تحليل وتقييم بـ ٨٠ أيضاً. ومن أهداف هذه الورقة محاولة تجاوز هذا التناقض وتقديم بديل منطقي.

يبدو أن هناك شكاً لدى معظم أساتذة العلوم الإنسانية بقدرة بعض أنواع الاختبارات مثل الاختبار الموضوعي (الاختبار من متعدد) في تقييم المهارات الفكرية التي يحاولون تنميتها عند طلابهم. فهم غالباً يعتادون التقييم الشخصي لاختبار مقالي ولا يعيرون التقييم الموضوعي اهتماماً في معظم الأحيان. يُنتقد النهج الموضوعي على أساس افتقار الأداء لما يدل على قدرة في التعبير المكتوب، وهذا أمر لا يختلف عليه اثنان؛ فالاختبار المقالي إنتاجي في حين أنّ الموضوعي تعرّفي. يكمن الحل في نظر كاتب هذه المقالة في جعل التقييم من شقين مقالي وموضوعي. لكلٍّ من التوجّهين أسسه، وسنأتي على عرضهما لتحقيق الإنصاف لتوقعات الأستاذ وطلابه على حد سواء.

التقييم في العلوم الإنسانية:

ليس لدينا عموماً حتى الآن أدوات تقييم ذات مرجعية علمية معترف بها. لكن هناك بعض الأدوات المستعملة كالملاحظات النقدية أو التحليلية التي يدونها الأستاذ على هامش إجابات الطالب، إلا أن هذه الملاحظات تدلّ على فكر المصحح وتوقعاته، ولا تعتبر أداة تقييمية إلا حينما تتحول إلى قناعات لدى الطالب، وبالتالي إلى نظام تقييمي متكامل. فمعايير النجاح لذلك تظل عموماً ضمنية غير صريحة. يكون الأساتذة غالباً عالمين في موضوعاتهم و متمكنين من علوم اللغة، ولا يقبلون أداءً من طلابهم إلا ما يداني توقعاتهم. وقد يكون للأستاذ سلّمه التقييمي الخاص به، كأن

يحذف عدداً محدداً من العلامات مقابل كل خطأ نحوي، وعدداً آخر لكل خطأ صرفي، وآخر لانحراف في الاستعمال أو في البلاغة، وغيره للخطأ الإملائي. ولم أستغرب ما بلغني أن أحد الأساتذة المرموقين كان لديه نتائج تصل إلى ما تحت الصفر. فربما كان يحذف علامة مقابل كل خطأ متكرر. يبدو أن المطلوب هو نظام تقييمي منصف للجميع يختلف عما درجنا عليه. من مكونات هذا النظام الاختبارات القصيرة المرحلية كي تختفي المفاجآت في الاختبار النهائي وظاهرة «لم ينجح أحد».

اختبار تقييم الكفاءة اللغوية:

تحسن الإشارة بداية إلى أن قيمة الكفاءة اللغوية أعظم من مجموع مكوناتها من نحو وصرف ومفردات ونطق وثقافة. وتقييم الكفاءة وفق الأنظمة المعيارية المعتمدة مثل أكتفل (المجلس الأمريكي) والنظام الأوروبي المشترك عام شمولي لا يركز على الجزئيات، فالأخطاء على أنواعها من إملائية وقواعدية وبلاغية تعتبر مؤشرات تدل على مستوى قدرة الطالب اللغوية، وهي لا تقيم. إن الهدف المشترك للاختبارات المتنوعة كتابية كانت أم غير ذلك، مقالية أو موضوعية، هو الحصول على عينة قابلة للتقييم من الطالب لتحقيق الدقة والإنصاف في نتيجة الاختبار، لذا لا بد أن تكون الأسئلة مبنية على إطار نظري مقبول وواضحة وضوح الشمس، ولها سياق محدد بدقة مما يتيح تجاوز مسألة اعتماد معايير تخص كل مصحح على حدة.

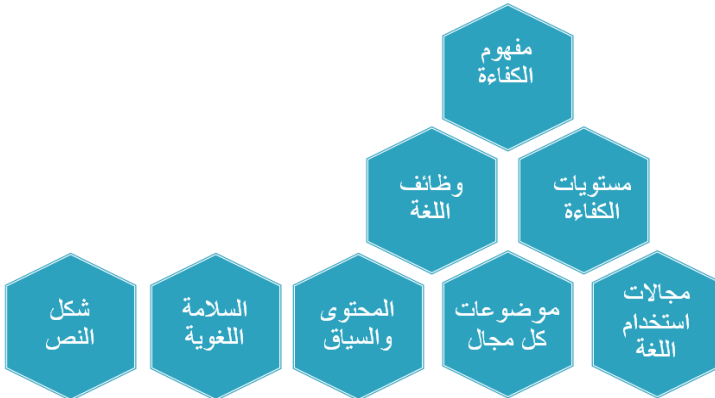
الإطار النظري اللازم كما تبين الورقة مبني على توصيفات المجلس الأمريكي للكفاءة الكتابية التي تستعمل في الولايات المتحدة على نطاق واسع منذ منتصف القرن العشرين. في نتيجة الاختبار يحصل الطالب على تقدير لكتابته في موضوع محدد بوضوح بمقارنة كتابته بتوصيفات مهارة

الكتابة (إرشادات المجلس الأمريكي لتعليم اللغات الأجنبية ٢٠١٢) ومعايير التقييم (الجدول ٢ أدناه) التي قد تنطبق على الطلاب الناطقين بالعربية وبغيرها (ACTFL Proficiency Guidelines English-Arabic, 2012). (انظر الملحق ١).

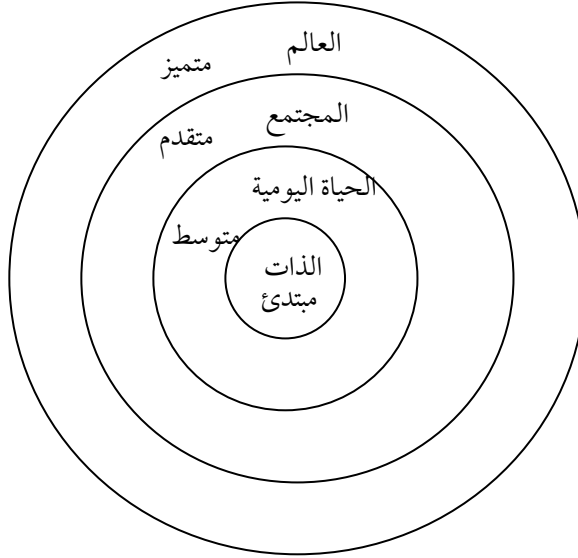
لا تدّعي توصيفات المجلس أن توصيفات المستويات اللغوية تنسحب على أبناء اللغة الأم وعلى الناطقين بلغات أخرى، إلا أن تجربتي الطويلة باختبار الكتابة والتحدث لأبناء اللغة العربية ولدارسيها من غير الناطقين بها، وكذلك تجربة عدد لا بأس به من الزملاء في اللغات المختلفة في هذا النظام = يدعوني للاعتقاد أن كلا النوعين من الطلبة تنطبق عليهم التوصيفات إلى حد بعيد خصوصاً من المستوى المتقدم فما فوق.

إطار نظري للكفاءة اللغوية:

اعتماداً على توصيفات مستويات المجلس للكفاءة اللغوية (الشكل ١) وعلى معايير التقييم المطبقة في تقدير مستوى كفاءة طالب ما خضع لاختبار الكفاءة (الجدول ١) وعلى مجالات التجربة (الشكل ٢) يمكننا تصور الإطار النظري المقترح كما يأتي:



الشكل (١) إطار نظري للكفاءة اللغوية



الشكل (٢) مجالات التجربة ومستويات اللغة

إن عناصر الإطار الثمانية مستمدة من توصيفات المجلس الأمريكي للكفاءة اللغوية ومن مجالات التجربة المفترضة للطالب (الشكل ٢)، وهذه مجالات عامة شاملة تساعد في تكوين صورة عن الموضوعات التي يمكن للطلاب تناولها بنجاح كتابياً أو في تعلم اللغة من خلالها.

١ - مستويات الكفاءة:

تتمايز مستويات الكفاءة الرئيسة بعضها من بعض بالوظائف اللغوية الخاصة بكل منها، فما يستطيع الناطق القيام به من مهام لغوية، وما يفتشل بتأديته كلياً أو جزئياً يحدد مستوى كفاءته؛ لذلك كان من الضروري وضع توصيفات واضحة ودقيقة لكل مستوى تسرد باختصار هنا وبالتفصيل لاحقاً (انظر مستويات الكفاءة في الشكل ٣).

المتميّز: إضافة إلى صفات المتفوق يستطيع المتميز تعديل كلامه وفق الجمهور أو المتحاور معه لتناسب جمهوراً متنوعاً مستخدماً كلاماً أصيلاً

ثقافياً وراقياً لغوياً؛ ويمكنه كذلك القيام بالترجمة الفورية لأشخاص مرموقين، ومناقشة رأي - ليس بالضرورة رأيه الخاص - وعرضه.

المتفوق: يؤيد الرأي ويتعامل مع موقف افتراضي، ويناقش المواضيع بالمحسوس والمجرد في مواقف غير مألوفة لغوياً متجاوزاً تجربته الشخصية.

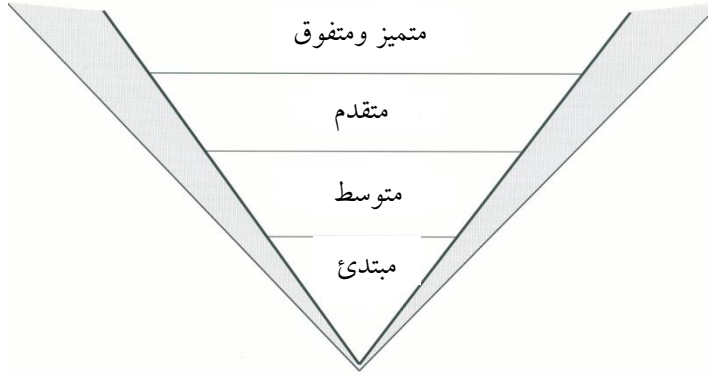
المتقدم: يسرد ويصف في الأزمنة كلها ويقارن، ويقابل، ويعطي تعليمات مفصلة، ويتعامل مع مواقف معقدة في حدود تجربته الشخصية.

المتوسط: يبدأ الخلق باللغة؛ أي: يركب جملاً لم يسمعها من قبل (قد لا تكون سليمة)، ويسأل ويجب عن موضوعات مألوفة، ويصف برنامجه اليومي، ويبدأ حواراً ويتابعه وينهيه، ويتعامل مع مواقف بسيطة.

المبتدئ: أدنى حدود التواصل مستعملاً عبارات محفوظة كالتحيات مثلاً، وقوائم من المفردات والعبارات تخص موضوعاً معيناً، وتقديم معلومات حول الذات، ولا قدرة وظيفية لديه في هذا المستوى.

لا بد أولاً من الإشارة إلى نقطة مهمة تتعلق بالمستويات، ألا وهي مفهوم الهرم المقلوب. إن أهميتها لا ترجع فقط إلى الوظائف اللغوية المرتبطة بكل مستوى، بل إلى الكم اللغوي والموضوعي الذي يتوقع توفره في كل مستوى أيضاً.

يشير مفهوم الهرم المقلوب إلى أن المفردات والتراكيب اللغوية والموضوعات التي تُناقش تزداد من مستوى إلى آخر ليس بصورة خطية بل بصورة متوالية هندسية (العش ٢٠٢٠)؛ أي: أنها لا تتضاعف مرةً أو مرتين من مستوى إلى آخر بل أضعافاً مضاعفةً بسبب اتساع دائرة تجربة الممتحن اللغوية (الجدول ٢ التالي مجالات خبرة الممتحن). ويحسن أخذ هذه الفكرة بعين الاعتبار في التعليم والاختبار.



الشكل (٣) مستويات الكفاءة الرئيسة

هناك أمرٌ آخر يتعلق بالموضوعات التي تناقش في المستويات المختلفة، فمناقشة الموضوعات المختلفة ليست مسألة عشوائية تخضع لرغبات الممتحن أو الممتحن، بل تعتمد على مجالات التجربة التي يراها نظام الكفاءة ممثلة لتجربة الممتحن اللغوية. يبين الجدول التالي مجالات التجربة التي يمكن أن نسأل أسئلة حولها وحول موضوعاتها وفقاً لما نتوقع أن يكون عليه مستوى الممتحن.

وتجدر الإشارة إلى أن مستويات الكفاءة وتوصيفاتها تنطبق على سائر المهارات اللغوية مع بعض الاختلاف بما يتناسب مع طبيعة كل مهارة. وللمهارات توصيفات خاصة بكل منها (انظر إرشادات أكتفل^١ العربية في الملحق رقم ١).

(١) نشرت الإرشادات بالإنكليزية عام ٢٠١٢، وبالعربية عام ٢٠١٣ (موقع أكتفل).

المستوى	المجال	الوظيفة	بعض الموضوعات	المفردات (أمثلة)
المبتدئ	الذات	لا وظيفة لغوية، التعرف على مفردة، إنتاج كلمات متفرقة من مجاله، سرد مجموعات من المفردات في مجال دلالي محدد: الخضار والفواكه والأطعمة وأيام الأسبوع والأشهر والفصول والجو والرياضة والألوان والملابس والدراسة وغير ذلك.	الأسرة، الدراسة، السكن، الرياضات، الأطعمة، المشروبات، أيام الأسبوع، أشهر السنة، المناخ، الملابس، الألوان، الأعداد، الساعة، وسائل المواصلات...	أب، أم، أخ، أخت، زوج، مدرسة، جامعة، لغة ، التاريخ، العلوم السياسية، دراسة الشرق الأوسط، الأدب، شقة، بيت، سكن الطلاب، غرفة (نوم)، جلوس، طعام، حمام، مطبخ، كرسي،، منضدة، سرير، تلفاز، أريكة، صورة، هاتف، حاسوب، كرة القدم (السلة، المضرب، الماء)، الكرة الطائرة، السباحة، المشي، الجري، خبز، جبن، خضار، فواكه، قهوة، شاي، ماء، حليب، عصير، الجمعة، السبت، آذار (مارس)، حار، بارد، غيوم، مطر، ثلج، قميص، سروال، ثوب، أبيض، أحمر، ثلاثة، أربعة، الخامسة والنصف، سيارة، دراجة.

المستوى	المجال	الوظيفة	بعض الموضوعات	المفردات (أمثلة)
المتوسط	الحياة اليومية	البرنامج اليومي، الوصف البسيط (مكان السكن، الدراسة، حديقة عامة، السوق) سؤال وجواب في حوارات .	الدراسة، العمل، التسلية، الرياضة، السفر (بلدان زارها)، مناسبات عائلية واجتماعية ووطنية (ماذا يفعل الناس فيها؟).	الأحياء، العلوم السياسية، الاقتصاد، العلوم، القانون (الحقوق)، الأدب، ملعب، كرة السلة، تذكرة، مباراة، فاز، خسر، تعادل، زفاف، خطبة، عيد وطني، تخرج، سوق، تسوق.
المتقدم	المجتمع	الوصف بالأزمة الثلاثة، المقارنة والمقابلة، إعطاء تعليمات، السرد، نقل أخبار الساعة.	السفر، كيفية الالتحاق ببرنامج دراسي، كيفية الحصول على عمل معين، كيفية الوصول من مكان لآخر، تحضير طبق مفضل، وصف آلية عمل جهاز ما.	تذكرة، شركة طيران، قطار، وصول، مغادرة، طلب، اختبار قبول، رسوم، مقابلة، راتب، تعويض، إجازات، اتجاه، انعطف، اعبر، سر، تقاطع، إشارة مرور، طريق عامة، مبنى، مصعد، طبق تقليدي، تحضير، طهي، حرارة، غلي، سلق، قلي، شوي، صحي.
المتفوق	العالم	الإدلاء بالرأي وتأييده، التعامل مع موقف افتراضي،	البيئة والتنمية الصناعية في العالم الثالث، مفهوم	احترار الجو، تلوث، وقود، طاقة متجددة، احتكار، مخلفات

المستوى	المجال	الوظيفة	بعض الموضوعات	المفردات (أمثلة)
		استعمال اللغة بالمجرد والمحسوس.	الديمقراطية الغربية وملاءمتها للبلدان الأخرى، دور الفن في المجتمع، دور الإعلام.	صناعية، النفايات، صحة المواطنين، رخاء اقتصادي، تضخم، نظام حكم، غسل الأدمغة مقابل التربية والتثقيف، الترفيه الموجه، نقل الخبر وتحليله، الإعلام والمجتمع وثقافته ومثله.
المتميز	العالم	كالمتفوق، إضافة إلى تمكنه من جعل كلامه يناسب المتلقي سناً وجنساً وتعليماً وثقافةً، ويستطيع تقديم وجهات نظر الآخرين، وله قدرة في الترجمة الفورية .	مواضيع مشابهة للمتميز يضاف إليها المواضيع المتخصصة العميقة في العلوم المختلفة.	الاستنساخ، استخدام الخلايا الجذعية في البحث العلمي، العولمة والهوية، الريادة والتبعية الثقافية، حاجات الإنسان الروحية، رغبة الدول العظمى بالهيمنة وانعكاسها ثقافياً واقتصادياً وسياسياً، الدين العام واستقلالية القرار، الفلسفة والدين، مفهوم المواطنة.

الجدول (١) المستويات والوظائف اللغوية والمجالات السياقية

وبعض الموضوعات والمفردات

٢- معايير التقييم:

إن لأدوات التقييم الخاصة بأكتفل معايير تقييم ثابتة تقاس بها العينة اللغوية المستخلصة من خلال الأداء الكتابي. فبينما تقتصر بعض أدوات الاختبار الأخرى على النسبة المئوية أو الدرجة معياراً، نرى أن معايير اختبار الكفاءة تحيط بجوانب اللغة كلها، من معنى ومبنى وسياق ومفردات ونص. يوضح الجدول الآتي باختصار علاقة مستوى الكفاءة بكل واحد من المعايير الأربعة. ولا يكون التقييم صحيحاً وعادلاً إلا إذا أُخِذَ في التقدير المعايير كافة، فالتقييم وفق نظام «أكتفل» ليس تعويضياً؛ إذ ينبغي النظر إلى كل معيار على حدة، وإلى مدى انطباقه على العينة اللغوية، ومن ثم يكون الخروج بتقييم دقيق وعادل. هذه العناصر المكونة للإطار النظري يمكن اعتمادها أيضاً أنموذجاً لتصميم منهج تعليمي يفيد في وضع مادة لغوية للناطقين بغير العربية خصوصاً (Alosh 2017).

المستوى	وظائف اللغة	السياق والمحتوى	سلامة اللغة	النص
متميز	كالمتفوق لكن بإمكانه تعديل مستوى لغته وفق جمهوره، أو محاور هو عرض وجهة نظره (ناطق باسم وزارة).	معظم المواقف الرسمية، مواضيع متنوعة تنوعاً كبيراً عامة وخاصة.	لا وجود لأنماط من الأخطاء النحوية، لا تؤثر منطقياً. الأخطاء المتفرقة في التواصل أو تحويل اهتمام السامع عما يقال.	خطاب مستفيض متماسك بترتيبه

المستوى	وظائف اللغة	السياق والمحتوى	سلامة اللغة	النص
متفوق	مناقشة مستفيضة للموضوعات، رأي مدعم بالحجج، افتراضات، مواقف غير مألوفة لغوياً، المناقشة بالمجرد والمحسوس.	معظم المواقف الرسمية وغير الرسمية، موضوعات متنوعة تنوعاً كبيراً عامة وخاصة.	لا أنماط من الأخطاء النحوية مع وجود بعض الأخطاء المتفرقة (والأخطاء لا تقيم).	خطاب مستفيض متماسك بترتيبه منطقياً أو زمنياً
متقدم	يسرد ويصف في الماضي والحاضر والمستقبل ويتغلب على تعقيدات موقفية غير متوقعة.	معظم المواقف غير الرسمية وبعض الرسمية، موضوعات شخصية وذات أهمية عامة.	يفهمه الناس العايون ممن ليس لديهم احتكاك بدارسي العربية من الأجانب.	فقرة مترابطة بأدوات الربط
متوسط	يخلق معانيه باللغة، يبدأ حواراً سهلاً ويتابعه وينهيه باستعمال أسئلة وإجابات سهلة.	بعض المواقف غير الرسمية وعدد من المواقف التفاعلية، موضوعات مألوفة تتعلق بالحياة اليومية.	يمكن لمن يتعامل مع غير الناطقين باللغة أن يفهمه مع طلب الإعادة.	جملة أو سلسلة جمل غير مترابطة
مبتدئ	أدنى مراحل التواصل باستخدام عبارات ثابتة أو كلمات محفوظة وقوائم من المفردات.	معظم المواقف العاوية، وجوه الحياة اليومية المألوفة.	يصعب فهمه حتى ممن اعتاد التعامل مع غير الناطقين باللغة.	كلمة منفردة أو عبارة أو سلسلة من الكلمات.

الجدول (٢) معايير التقييم

اختبار الكفاءة بالكتابة:

إن اختبار الكتابة وفق نظام الكفاءة هو اختبار معياري وتقييم عام للقدرة على الكتابة الوظيفية العفوية دون إعطاء فرصة للتدقيق والتنقيح. تقدّم أربعة أسئلة تناسب مستويات مختلفة من المبتدئ حتى المتميز تتناول موضوعات عملية تتعلق بالحياة اليومية والاجتماعية وموضوعات مهنية وفكرية يمكن مواجهتها في سياقات رسمية أو غير رسمية. تقدر نتيجة الاختبار وفق قدرة الطالب على الكتابة على نحو فاعل ومناسب حسب المستوى اللغوي المستهدف ثم مقارنة الإجابات المكتوبة بإرشادات أكتفل للكتابة (٢٠١٢) (ACTFL Proficiency Guidelines Writing—2012) لا بعينات أخرى من الكتابة مما يجعله معيارياً. وهو لكونه اختبار كفاءة غير مرتبط بمادة محددة أو مقرر معين.

بنية اختبار الكفاءة في الكتابة:

أولاً - الاختبار المحوسب (ACTFL Writing Proficiency Test)
(Familiarization Manual, 2019).

- ١ - مقدمة تحوي توجيهات حول طريقة الإجابة وطولها.
- ٢ - استبانة شخصية: جمع معلومات عن الطالب وأسرته ودراسته وعمله (إن وجد) واهتماماته وأنشطته. تحدد نتيجة الاستبانة الأسئلة المناسبة للطالب؛ لاختيارها عشوائياً من مخزن الأسئلة.
- ٣ - تقييم ذاتي: يختار الطالب توصيفات مستويات اللغة التي توائم قدرته الكتابية حسب تصوره؛ وذلك لتحديد النموذج المناسب من الاختبار. من نماذج الاختبار ما يناسب مجال المبتدئ-المتوسط، والمتوسط-المتقدم، والمتقدم-المتميز.
- ٤ - عدد الأسئلة: من أربعة إلى خمسة تصاغ بسياق واضح لكل منها، وتناسب المستويات من المبتدئ إلى المتميز.

٥- الزمن: يتراوح وقت الاختبار ما بين ٤٠ و ٨٠ دقيقة وفق مستوى كفاءة الطالب.

ثانياً - الاختبار الورقي:

تعدّل بنية الاختبار ليكون على صورة اختبار ورقي يشمل استبانة مختصرة حول تقييم الطالب الذاتي لقدرته الكتابية (انظر الفقرة التالية) من أجل تحديد نموذج الاختبار المناسب له من خلال اختيار توصيفات مختصرة للقدر الكتابية. فإن كان الطالب مثلاً حسب تصوره في مجال المتقدم، يشتمل نموذج اختباره على سؤال في مجال المتوسط وسؤالين في المتقدم وسؤال في المتميز لتحديد سقف الأداء. أما إذا اتضح أن التقييم الذاتي يشير إلى أنه في المتميز فيُقدّم له سؤالان في المستوى المتقدم وسؤالان في المتميز.

تقديرات التقييم المستعملة:

أدنى	مبتدئ
أوسط	
أعلى	
أدنى	متوسط
أوسط	
أعلى	
أدنى	متقدم
أوسط	
أعلى	
---	متميز

الجدول ٣- سلم تقديرات الأداء

التقدير الواحد له ثلاث دلالات؛ لأن المستوى مجال أو نطاق وليس نقطة على خط. فهو يبين بوضوح لمن يطلع عليه من أعضاء هيئة التدريس أو طاقم مكتب القبول في مدرسة أو جامعة صفات كفاءة هذا الطالب. فعلى سبيل المثال التقدير «متقدم أوسط» يدل على أن أدائه لا يشمل توصيفات المستوى المتقدم فحسب، بل يضاف إليها إحدى صفتين إضافيتين، فهو إما أداءً متقدماً قوياً كمّاً ونوعاً (مفردات متنوعة وتراكيب سليمة وغنية)، وإمّا أداءً يشتمل على وظائف من المستوى التالي الأعلى دون الثبات عليها. يحتوي «الأوسط» على حوالى خمسين بالمئة تقريباً من المستوى التالي، والمستوى الفرعي «الأعلى» يكون معظم الأداء له في المستوى التالي، أو فلنقل: حوالى ثمانين بالمئة من الأداء يكون في المستوى المتميز، لكنه يفتقر إلى الثبات في المستوى التالي الأعلى.

قد يرغب البرنامج الدراسي أو الأستاذ المصحح في استعمال تقديرات كفاءة في الكتابة ليست مبنية على نظام المجلس الأمريكي للكفاءة بالكتابة، ويمكنه بناء تقديراته الخاصة به، على أن تكون معرفة وواضحة تماماً لتفادي اللبس من الطالب أو من البرنامج أو من مكتب القبول. وفيما يأتي سلّم تقديرات عام غير مرتبط بنظام معين.

- ممتاز: يمتلك ناصية الخطاب الكتابي وآلياته، متمكن من أساليب الكتابة الخلاقة، ويستطيع تقييم المصادر بشكل مناسب ويستفيد من محتواها. كتابته متدفقة وخالية تقريباً من الأخطاء النحوية والطباعية.
- جيد: تتحلى الكتابة بوجود الحد الأدنى من الخطاب الكتابي الناجح، ويستخدم مفردات متنوعة، ويستشهد بالمصادر المستخدمة كلها، ويستطيع كتابة أنواع النصوص في مجاله بطلاقة

- كافية، وقد توجد بعض الأخطاء المتناثرة دون أن تكون نمطية.
- مقبول: ينتج نصاً مترابطاً مفهوماً للقارئ، ومحتواه مناسب للموضوع ويستخدم المفردات الأساسية.
- ضعيف: يستطيع كتابة نصوص قصيرة عامة يقلد في كتابتها مثالا جيدا.
- غير مقبول: يفتقر النص إلى عناصر الكتابة الأساسية، أخطاء نحوية متواترة، مفردات غير دقيقة ولا متنوعة، لا يحقق الهدف من السؤال إما بسبب سوء الفهم أو عدم كفايته بالكتابة، الفكرة في النص غير مفهومة.

الجدول ٤ - سلم بديل لتقديرات الأداء

التقييم الذاتي (عبارات من الأبسط إلى الأكثر تعقيداً تصاغ عادة بلغة الطالب الأولى إن أمكن للمستويين المبتدئ والمتوسط)

- ١ - أستطيع أن أكتب بضع كلمات.
- ٢ - أستطيع أن أكتب قوائم بأسماء الأشياء والألوان وأيام الأسبوع والأطعمة والأعداد وغير ذلك. لا أستطيع دائماً أن أكتب جملة كاملة، أو أسئلة بسيطة يفهمها الجميع.
- ٣ - أستطيع كتابة جمل بسيطة حول موضوعات مألوفة، ويمكنني تقديم معلومات والاستجابة لطلب المعلومات.
- ٤ - أستطيع أن ألبي متطلبات العمل والدراسة كتابياً، وسرد الأحداث ووصف الأشخاص والأماكن المتعلقة بحياتي وعملي، وأستطيع كتابة ملخصات وموضوعات إنشاء بسيطة، والقيام بالتراسل العادي المتعلق بعملتي ودراستي على شكل فقرات من عدة جمل

لكل منها. يفهم كتابتي أبناء اللغة وغيرهم ممن يدرسون العربية.
 ٥ - يمكنني تلبية مستويات عديدة من متطلبات العمل أو الدراسة.
 أستطيع تنظيم أفكارى وأسرد أحداثاً وأكتب ملخصات ووصفاً
 لموضوعات مألوفة ولأحداث الساعة. يمكنني بسهولة كتابة
 موضوعات من عدة فقرات. يفهم كتابتي بسهولة كل من يقرأ
 العربية من أبنائها أو غيرهم.

٦ - يمكنني كتابة مراسلات رسمية وغير رسمية وملخصات معقدة
 وتقارير وبحوث في موضوعات عملية واجتماعية وعلمية
 واحترافية. أستطيع من خلال كتابتي شرح أمور معقدة، وأسرد
 بالتفصيل في كل الأزمنة، وأطرح آرائى وأؤيدها بالحجج. يفهم
 كتابتي أبناء اللغة بسهولة.

نماذج من أسئلة اختبار الكفاءة الكتابية وإجابات كتبها دارسو العربية
 من غير الناطقين بها.

السؤال ١: (مبتدئ) اكتب رسالة قصيرة لصديق حول منزلك الجديد.
 ضمّن الرسالة النقاط الآتية:

- حيّ صديقك، وبيّن سبب كتابتك له.
 - صف منزلك من الداخل، والأثاث الموجود فيه.
 - عدّد الأماكن التي تود اصطحابه إليها.
- «اسلام عليكم - كيف حالك - اكتب لان اتحرك الى جديد بت -
 بيتي كبير مع ثلاثة غرف النوم، صالة ومطبخ - عندى تلفاز واثاث - احتاج
 بعض فواكه لطعام - ايضا احتاج تلفاز والحاسوب - احتاج اخر شئى الذى
 طاولة-» (نسخَ حرفياً كما كتبه الطالب).

السؤال ٢ (متوسط): اكتب عن رحلة إلى مكان قريب من بلدتك. من كان معك؟ وماذا حدث فيها؟

صباحة، حافلة في جانب البحر، ابن كثير من
الطلاب في جامعتنا يعيشون، الشخصيات،
طلاب عديدون واحد رئيس الجامعة في الوقت
نفسه، ما يقابل الرئيس
تطلبونني، شرب، ودخول (شيء خطير) مع الطلاب.
ما كنا صعب، وفي صبح، أولاً الرئيس، صبح شرب (نفسه)
ودخول (الحيثية) مع الطلاب، بالإضافة، بعض (ممكن)
كثير من الأشياء، (ممكن) يكونوا أحد عشر علم.
هذه الكتابة، سمعت أيضاً، الذي الرئيس
ذهب إلى غرفة مع طاب، ولا أحد بلاض،
طاب
وعندما الرئيس طاب الرئيس الجامعة، ما هو ضامور
شيء، ولا شيء، على الأقل، (ممكن) (ممكن) (ممكن)

السؤال ٣ (متقدم): طُلب منك كتابة وصف لأحد أساتذتك الذين علموك الإنشاء أيام المدرسة. اكتب وصفاً لأستاذك الذي انطبعت ذكراه في مخيلتك. ما الذي جعل هذا الأستاذ متميزاً؟ وما أهم الصفات التي تحلى بها ما جعله أستاذاً فاعلاً في رأيك؟ وهل تشعر أن هذه الصفات يمكن اكتسابها أم أنها فطرية؟

«لقد تمتعت بحضور عدد كبير من الفصول اللغوية خلال حياتي فدرست الفرنسية ثم والإسبانية ثم العربية وكان لدي مدرسين من مختلف الجنسيات يستخدمون أساليب تعليمية متنوعة لكن ما زلت أفكر دائماً في أستاذة ليز هنتلي عندما أفكر في المدرسة المثالية فهي كانت تتميز بمعرفة عريقة للغة والثقافة بالإضافة إلى دفء شخصيتها وترحيبها وأسلوبها في حث الطلاب للإنخراط في عملية التعلم. دائماً وضحت بشكل فعال توقعاتها لنا وجعلتنا نشارك في التعلم والتعليم كلاهما ولم تتصرف بشكل متكبر مثلما يفعل بعد المدرسين بل أشعرتنا بأننا نشبهها فكثيراً ما ذكرتنا أنها بدأت رحلة التعلم مثلنا في صف وبلا حتى كلمة واحدة في البداية. أعتقد أنه من أهم ميزات المدرس اللغوي الفعال التشجيع على الجرأة وعلى ارتكاب الأخطاء فلا مفر منها ودون الشجاعة فلن يتكلم الطالب خشية أن يخطأ! على المدرس أن يدعم الطالب نفسياً كي

يتحمس ليستجر أن ينطق اللغة ويتفاعل معها بنفسه. هذه الميزات تستطيع أن تُعلّم وتُدرس لكنني أعتقد أن ذوي خصائص شخصية معينة قد تنجح أكثر في ذلك وعلى المدرس أن يطور ذاته حتى يتمكن دعم الطالب بشكل ملائم وفعال». (الإجابة طبق الأصل دون تعديل).

السؤال ٤ (متميز): يعتبر الفقر الذي يصيب الأطفال مصدر قلق عميق للعديد من بلدان العالم. يعتقد البعض أن واجب الحكومة معالجة هذه القضية ويرى آخرون أن التغيير منوط بالمواطنين والمؤسسات الاجتماعية على الصعيد المحلي. اكتب موضوعاً تشرح فيه القضية باستفاضة. حدد رأيك بهذا الشأن، وأي الموقفين تؤيد، وادعم رأيك بالحجج المبررة له، وبيّن ما قد تؤول إليه الأحوال إذا فشلت البلدان في تبني وجهة نظرك في منع تفشي الفقر.

الإجابة:

«إن الفقر وخطورته للطفل من أهم وأكبر الأزمات في مختلف أنحاء العالم ويتعدد أسباب ارتفاعه في بعض المناطق ولا سيما في الدول النامية. فيوجد أطفال في الكثير من بلدان العالم يعيشون في بيئة غير سليمة تخطر على صحتهم وتخفف فرصهم للتقدم في المجتمع وتختلف الآراء فيما يتعلل هذه الأزمة يعتقد البعض أن على الحكومة العمل المباشر على تحسين وضع الأطفال الذين يعيشون في مثل هذه الحالات وثمة من يعتقد أنها على المواطنين والجمعيات الخيرية والمنظمات غير الحكومية أن تعالج المسألة على الصعيد المحلي لكن تختلف حسب المنطقة العوامل التي تؤدي إلى الفقر وتختلف نتائج الفقر على الأطفال كل الاختلاف فهناك بلدان حيث يعيش الأطفال في عشوائيات أو بلا مأوى ولديهم مشاكل صحية بسبب كثبتهم للتلوث وإنما توجد مناطق حيث يتسبب الفقر في أن الأطفال يعملون

بدلاً من الالتحاق بالمدارس بالرغم من أنهم قد يكونون لديهم مأوأة سليمة وآمنة. فأعتقد أنه من اللازم التعاون بين الحكومات والمنظمات المحلية لمعالجة الأزمات التي يسببها الفقر للأطفال لأن هذه المشاكل بالفعل معقدة جداً ولا تستطيع أن تُحل بلا التكتاتف والتضامن على الصعيد الوطني والمحلي كلاهما. فقد شهدت بعض البلدان إخفاقات متكررة في محاولات عديدة لمعالجة تأثيرات الفقر على الأطفال في مصر على سبيل المثال حين تجد منظمات محلية نفسها تحت قيود هيئات حكومية لا تكثرث بأنشطتها ولا تتقبل الانتقاد فتتراكم المشاكل أكثر فأكثر في حال سريع التدهور. إذا لم تشرع الحكومة التعاون قريباً فليس هناك أمل كثير للأطفال الذين يجتهدون في العمل منذ سن مبكر من أجل «أكل العيش» إذا صح التعبير. أعتقد أنه من اللازم أن تتناول الحكومات مسألة الفقر مباشرة وأن تمول المنظمات التي تعمل على هذه المشاكل وألا تفرض عليها قيود صارمة ومتعسفة وأيضاً أن تعالج مصادر ارتفاع مستوى الفقر من حيث إصلاح الاقتصاد بشكل كامل وليس التركيز على فئات معينة (أي البورجوزية) فقط وتجنب مشاريع تفيد الطبقات العالية فقط (مثل بناء المدن الجديدة بلداً من إصلاح البنية التحتية التي تنهار في المدن الموجودة). إذا لم تنفذ الحكومات مثل هذه الخطوات فستزيد الفجوة بين الأغنياء والفقراء وستستمر معاناة الأطفال». (الإجابة منقولة كما هي دون تعديل).

نصائح للمصمم في مجال التدريب المدرسي على الكتابة:

الغرض من هذه الاقتراحات بناء قدرة الطالب تدريجياً في الاستجابة لتعليمات الأستاذ والارتقاء بمستوى كتابته، وقد تشكل في المستقبل نواة نظام تقييمي للكتابة.

- قِيم بدقة مع بعض الإسهاب.
- قدّم بعض الملاحظات.
- أطر الكاتب المستحق.
- قدّم النقد البناء بلطف.
- قدّم ملاحظات واضحة.
- حدد قواعد المهمة المنوطة بالطالب.
- تعامل مع الأمانة العلمية بحزم.

طريقة لتيسير عملية التقييم:

هناك بعض الأمور البسيطة يمكن النظر إليها؛ لتعطي المصحح فكرة عن مستوى الطالب. الأفعال المدرجة أدناه تقع ضمن كتابة الطالب في المستوى المتميز، أما في المستوى الأدنى (المتقدم) فقد تتحقق جزئياً أولاً تتحقق بتاتاً. يحسن الرجوع دائماً إلى توصيفات هذين المستويين (ACTFL Proficiency Guidelines-Writing, 2012) كي يكون حكمه منصفاً ودقيقاً وتكون هذه الأفعال بمثابة معايير للكتابة. وكي يشجع الكاتب على تحقيق هذه الأفعال، فإن ذلك يقتضي أن تكون التعليمات دقيقة وواضحة تماماً.

- يستجيب للسؤال أو المهمة استجابة كاملة.
- يستهل النص الإنشائي بمقولة يحدد فيها القضية المطروحة وموقفه منها.
- يستعمل التفكير التحليلي.
- يعبر عن الغرض من النص بوضوح وإقناع.
- يستخدم معطيات وحقائق من مجاله العلمي.
- يقدم حججاً وأدلة وأمثلة لدعم رأيه.
- يكتب بوجه منظم متماسك، وله هدف واضح.

- يستخدم لغة ملائمة للموضوع.
- يستشهد بمصادر موثوقة عند اللزوم.
- تخلو لغته تقريباً من الأخطاء النحوية والإملائية.
- تتسم كتابته بالأصالة في التفكير وبالإبداع اللغوي.

صفات النص المكتوب:

الغرض من سرد هذه الصفات تذكير المصحح بالأوجه التي يبحث عنها في النص الذي يُصحَّح من الناحية المثالية، وقد لا تتجلى في كثير من أعمال الطلاب؛ فهي تظل مرجعاً أو مجموعة معايير للمصحح أو المصححين مما يحسّن من درجة الثبات للمصحح الفرد أو لمجموعة المصحّحين.

- قيمة المحتوى من حيث التعمق في بحث الموضوع واكتمال البيانات
- التنظيم من حيث وضوح الموضوع ووجود الأفكار الرئيسة والتفاصيل الداعمة وفائدة المقدمة والخاتمة.
- تماسك مناقشة الموضوع من خلال تطوير الأفكار وإحكام الترابط بين الأجزاء.
- تناول موضوع البحث من خلال القرائن والمعلومات في مجاله العلمي.
- استخدام البيانات وأسلوب عرضها إن وجدت.
- أسلوب حل المشكلة والتفكير التحليلي.
- أصالة الفكرة أو معالجتها من منظور متميز.
- الدقة اللغوية من نحو وصرف ومفردات وأساليب بلاغية وتهجئة دقيقة.
- الأمانة العلمية وخلو النص من اقتباسات غير موثقة.
- الاقتصاد بالكلام والابتعاد عن الحشو واللغة الفضفاضة.

بناء على ما سبق من وصف أفعال قام بها الكاتب وصفات النص يمكننا وضع جدول يسهّل للمصحح تقدير درجة الطالب. استعمال هذا الجدول إضافة إلى صفة تيسير العملية قد يرفع من درجة ثبات التصحيح.

تقييم أفعال قام بها الطالب					
يسهل النص الإنشائي بمقولة يحدد فيها القضية أو القضايا المطروحة للبحث وموقفه منها.	١	٢	٣	٤	٥
يدلل على استخدامه التفكير التحليلي.	١	٢	٣	٤	٥
يعبر عن الغرض من النص بوضوح وإقناع.	١	٢	٣	٤	٥
يستخدم معطيات وحقائق من مجاله العلمي.	١	٢	٣	٤	٥
يقدم حججاً وأدلة وأمثلة لدعم رأيه.	١	٢	٣	٤	٥
يكتب بوجه منظم متماسك وله هدف واضح.	١	٢	٣	٤	٥
يستخدم لغة ملائمة للموضوع.	١	٢	٣	٤	٥
يستشهد بمصادر موثوقة عند اللزوم.	١	٢	٣	٤	٥
يكتب بلغة خالية من الأخطاء النحوية والإملائية.	١	٢	٣	٤	٥
يدلل على أصالة التفكير والإبداع اللغوي.	١	٢	٣	٤	٥
يستجيب للسؤال أو المهمة استجابة كاملة.	١	٢	٣	٤	٥
الدرجة النهائية					

الجدول ٥ - تقييم أفعال الطالب

أدوات بديلة لتقييم الكتابة:

الاختبار المقالي ليس الأداة الوحيدة لتقييم الكتابة التي تبرز قدرة

الطالب على التعبير الكتابي. فهناك كتابة اليوميات، والمحفظة الدراسية، والإملاء، وغيرها (Alosh 2019). وفي هذا الخصوص تميز جيمس بين التقييم والاختبار (Mary James, 2015)، وهذا أمر متفق عليه، إلا أنها تدرج بعض أدوات الكتابة البديلة تحت التقييم لأن الطالب لا يحصل على درجة محددة. ولا أظن أن هذه مسألة خلافية. وقد وضع براون (٢٠٠٤) تصنيفاً لأدوات الكتابة البديلة، وحدد لها الأهداف الأربعة الآتية:

- ١ - المحاكى: استعمال كلمات وعبارات لأداء مواقف غير رسمية تتعلق بالحياة الواقعية.
- ٢ - الموجّه: يكون التركيز فيه على دقة المفردات والتراكيب النحوية.
- ٣ - الاستجابي: يهتم بشكل الخطاب كما في الوصف والتقارير القصيرة والملخصات وشرح الرسوم البيانية.
- ٤ - التوسعي: كما في المقالة وورقة الاختبار الكتابي الأخير حيث تتجلى القدرة على تنظيم الأفكار منطقياً باستعمال المفردات المناسبة والتراكيب السليمة.

- ١ - المحفظة الدراسية: يحفظ الطالب فيها أعمالاً مختارة يهتم بأدائها في مدّة قد تصل إلى فصل دراسي برمته (Alosh, 2019). من الملاحظة والتجربة تبين أن الطلاب يضيفون إلى البنود خلال الفترة أو يحسنون طريقة عرضها. أذكر أن أحد الطلاب من المجموعة التي أرسلتها لدراسة العربية في جامعة حلب عام ١٩٩٩، واسمه إرفه توماس، وكان في المستوى المبتدئ الأعلى. بدأ بتكوين محفظته من أيامه الأولى في حلب، ولم يكن فيها ما يتعلق باللغة في شيء. جمع مقتنيات من أسواق حلب القديمة التي أذهلته وصوراً

تذكارية للمدينة وقلعتها، حتى إنه جمع بطاقات ركوب الحافلات ودخول المسبح. حين طلبت منه تقديم المحفظة لدى عودته إلى كلبس في نهاية الفصل طلب تمديداً لأسبوع أو عشرة أيام. أخبرني أنه كان يستكمل جمع المعلومات من المكتبة حول محتوى المحفظة وتوصيفها باللغة العربية. كانت حقيقته عملاً فذاً، وعرضتها في مكان بارز في القسم ليتفقدوها جميع الطلاب. لم يكن الوحيد الذي قدم محفظة، لكنها كانت متميزة باختيار المحتوى والتعليق عليه من المراجع ومن تجربته.

٢- اليوميات: لعل كتابة اليوميات خمس مرات أسبوعياً من أفضل التمرينات التي تدفع الطالب لتقديم أفضل ما لديه من فكر ولغة (Alosh, 2000). يمانع الطلاب في البداية عادة في قبول هذا التكليف متعللين بأن حياة الطالب لا تنوع فيها؛ ويتبين لهم بعد فترة قصيرة أنها وسيلة تواصل باهرة مع الأستاذ. هذا إذا بدأ الأستاذ بالتواصل. فعلى سبيل المثال يذكر أحدهم أنه ذهب مع أصدقائه إلى مطعم مساء الجمعة؛ فأسأل على الهامش: أي مطعم هو؟ وماذا تناول هناك؟ وكيف أصل إليه؟ دون الإشارة إلى الأخطاء اللغوية التي تحفل بها اليومية. يمكن تلافي الأخطاء بوسائل ناجعة أخرى مشروحة بدليل المعلم (Alosh, 2000).

٣- الإملاء: هو ليس كتابة بالمعنى المتعارف تقليدياً. لكن بالطريقة التي استخدمتها في صفوف المتوسطين فما فوق، يفيد الطلاب - إضافة إلى الدقة اللغوية - في حمل مسؤولية تعلمهم والتعاون الفعلي فيما بينهم. الطريقة موصوفة في العش (٢٠١٩). وتذكر

كتابي (Ketabi, 2015) أن أكثر تمرينات الكتابة البديلة استعمالاً
الإملاء والمقالة.

تقديم مناقشة الاختبار المقال على الموضوعي:

لا دخل للقيمة العلمية لأحد الاختبارين في تقديمه على الآخر، بل إن التقديم سببه التوجه تدريجياً نحو اعتماد الاختبار المقال الأداة الأساسية في الغرب والولايات المتحدة خصوصاً بعد سيطرة الاختبار الموضوعي سيطرة شبه تامة في إعداد اختبارات القبول الجامعي والمهني كما في مجالات الطب والقانون والإدارة (Breland, 1994). إلا أن اختبارات القبول في مجالات عديدة أخرى بدأت منذ العقد الأخير في القرن العشرين بإدخال عنصر مقال. يعتمد هذا الميل على أهمية أثر الاختبار في المنهج والتعليم، ويعزوه بعضهم إلى مسألة صلاحية الاختبار وثباته من الناحية النظرية. ويخشى بعض المتخصصين بالقياس والتقييم من ضعف معدل الثبات بين المصححين نظراً لأعدادهم وتفاوت أدائهم. ويقترح بريلاند (1994) دمج نوعي الاختبار المقال والموضوعي، وهو مما يؤدي إلى تحسين معدل الثبات.

الاختبار الموضوعي:

كان ولا يزال شائعاً في الغرب وسط دعوات لاعتماد الاختبار المقال أيضاً. ويقوم هذا النوع من الاختبار (الاختبار من متعدد) على افتراضين اثنين: تفكيك الفكرة وتجريدها من سياقها. في تفكيك الفكرة يُعتقد في الاختبار الموضوعي أن الفكرة أو الموضوع يمكن تجزئتهما إلى معلومات مستقلة بذاتها يمكن أن يستفاد منها في تشكيل البدائل في سؤال الاختبار من متعدد (Resnick & Resnick, 1990). وفي مسألة السياق يفترض أن

الكفاءة اللغوية يمكن تقييمها في سياق مختلف تماماً عن السياق الذي تمارس فيه اللغة وتستعمل. لذلك يرى معظم أساتذة العلوم الإنسانية أن تقييم الكتابة لا يمكن أن يتم بنجاح إلا من خلال الإنشاء. لكن اعتماد الاختبارين في تقييم الكتابة قد يكون له أثر إيجابي. وربما تعتبر هذه نقطة بحثية مفيدة.

ما هو الاختبار الموضوعي؟

هو عبارة عن أسئلة يلي كل منها أربعة بدائل غالباً (أحياناً من ثلاثة إلى عشرة)، واحد منها فقط ينطبق على معنى متن السؤال تماماً، أما البدائل الأخرى فتبدو صحيحة أيضاً، لكنها تتفاوت في بعدها عن معنى متن السؤال. أحدها قد يكون صحيحاً بنسبة ثمانين بالمئة وآخر بنسبة خمسين والآخر بنسبة ثلاثين بالمئة. هذا الاختبار ليس مصمماً لإنتاج اللغة بل لمعرفة معان ومفاهيم وربطها بسواها المناسب لها. ومن مزاياه درجة الثبات العالية؛ لأنه لا يتأثر برأي المصحح. وله ميزة أخرى أنه يصلح للاختبارات العامة ويصحح آلياً. ومن صفاته أن وضعه يحتاج إلى خبرة ووقت طويلين، وإلى مكتر للأسئلة يضاف إليه باستمرار. وبعد كل تقديم للاختبار تقيم نتائجه وتحلل وتعديل.

وينتقده العاملون بالتقييم والقياس: بأن نسبة التخمين فيه عالية تصل إلى ثلاثة وثلاثين بالمئة في حال الأسئلة ذات البدائل الثلاثة، على أن عدد البدائل الشائع أربعة. وبناء عليه نقترح أدناه معادلة بسيطة تخفف من أثر الحزر. وقد بحث إسبينوزا وزميلها (٢٠١٠) بصورة مفصلة وتعمق في المسائل الرياضية وفي معامل الصعوبة لعدد من المتخصصين في هذا المجال. إلا أننا يمكن تلخيص غاية البحوث في معادلة بسيطة يمكن تطبيقها على نتائج أنواع من اختبارات الاختيار من متعدد.

(ص-خ/ ٣=د)؛ أي: مجموع الإجابات الصحيحة ناقص الإجابات الخطأ تقسيم ٣.

(في حال أربعة بدائل) يساوي الدرجة المعدلة.

مثال مطبق على درجة (٧٢): $٧٢ - ١٢ / ٣ (٤) = ٦٨$

الجدول ٦ - معادلة التخفيف من أثر الحزر

نصائح تراعى في وضع الاختبار الموضوعي:

- ١ - يفضل استعماله لتقييم مهارتي القراءة والاستماع والمعرفة.
- ٢ - استعمال أربعة بدائل وتطبيق المعادلة السابقة على النتائج للتقليل من أثر الحزر.
- ٣ - تبدو جميع البدائل منطقية، واحد منها فقط يتفق والمعنى في النص.
- ٤ - تحدد البدائل الصحيحة، ويجرب الاختبار قبل تقديمه.
- ٥ - عدم وجود معلومات غير ضرورية في متن السؤال.
- ٦ - خلو السؤال من أخطاء إملائية أو قواعدية.
- ٧ - اللغة مختصرة وفي مستوى الطالب.
- ٨ - وجود معلومات كافية للإجابة عن السؤال.
- ٩ - وجود اختيار واحد فقط يطابق المعنى المقصود في النص.
- ١٠ - الإجابات متجانسة وذات أطوال متساوية، والسؤال مناسب للاختبار.

مثال عن تدرج البدائل في بعدها عن الجواب الصحيح:

«عند أخي الكبير سيارة حمراء وسيارة بيضاء».

أ. يريد أخي سيارة سوداء. (أقل من خمسين بالمئة)

ب. سيارة أخي حمراء وبيضاء. (ممكن ثمانون بالمئة)

ج. عند أخي سيارتان. (مئة بالمئة)

د. تعجب أخي السيارة البيضاء أكثر من الحمراء. (ربما سبعون بالمئة)

من محاسن الاختبار الموضوعي:

- درجة ثبات عالية لا تتأثر بحكم المصحح الشخصي.
- مقصد الممتحن واضح من شكل السؤال، وهو مما يبعد اللبس عن الطالب.

- لا يضطر الطالب إلى الاستعانة بمهارة لغوية غير المهارة المقصود اختبارها، وليس كما في أسئلة القراءة التي تقتضي إجابات مكتوبة.

من مساوئ الاختبار الموضوعي:

- الإجابة الخاطئة قد تحصل إما بسبب عدم فهم النص أو عدم فهم السؤال، لكن الاختبار لا يبين لنا سبب الخطأ.
- قد يحصل الطالب على الإجابة الصحيحة بإلغاء البدائل الأخرى، لا بسبب فهم البديل المختار أو النص.
- بنية هذا الاختبار تشجع الطالب على التخمين، وفي حال تصميم الأسئلة السيئ يستطيع الطالب الإجابة بنجاح دون النظر إلى النص.
- يستغرق إعداد هذا النوع من الأسئلة وتنقيحها وقتاً طويلاً، وتقتضي كتابتها وتحليل الإجابات خبرة وعناية فائقتين، ثم يكون تعديل الاختبار.

خاتمة:

هذه الورقة تنظر في القدرة الكتابية لطلاب من أدنى مستويات الكفاءة إلى أعلاها في محاولة لإلقاء الضوء على الصعوبات والعراقيل في اختبار الكتابة، بينا فيها أن الاختبار كي يكون صالحاً وثابتاً من الأفضل أن يعتمد على إطار نظري مرجعي. بذلك تكون اختباراتنا المرحلية أو النهائية والعامّة أيضاً مُعتمَدة محلياً وعالمياً لأبناء اللغة وغيرهم. لكن من تداعيات اعتماد

إطار نظري القناعة بأن التعليم أيضاً لا بد أن يعتمد على نفس الإطار. وبذلك تكون العملية التربوية متكاملة من حيث التعليم والتعلم والاختبار.

* * *

المصادر والمراجع

- ACTFL Proficiency Guidelines English-Arabic. 2012. accessed at: <https://www.actfl.org/publications/guidelines-and-manuals/actfl-proficiency-guidelines-2012/arabic>
- ACTFL Proficiency Guidelines 2012—Writing ©, accessed at <https://www.languagetesting.com/oral-proficiency-interview-opi>
- ACTFL WRITING PROFICIENCY TEST FAMILIARIZATION MANUAL ©2019.
- Alish, Mahdi. 2000. Ahlanwa Sahlan: Instructor's Handbook. New Haven, CT: Yale University Press.
- Alish, Mahdi. 2017. A forward-looking conceptual framework for Arabic curriculum design and instructional in Methodology, in **Applied Linguistics in the Middle East and North Africa: Current practices and future directions**, by Gebril, Atta (ed.). John Benjamins Publishing Company.
- Alish, Mahdi. 2019. Unleashing the power of the learner (163-182). In *The Arabic Classroom: Context, text, and learners*. Mbaye Lo (Editor). New York, NY: Routledge.
- Brown, H. D. (2004). *Language assessment: principles and classroom practices*. New York: Pearson Education.
- Breland, M. Hunter 1996. *Writing Skill Assessment: Problems and*

- Prospects. Educational Testing Service, Princeton, NJ.
- Espinosa, María Paz and Javier Gardeazabal.2010. Optimal Correction for Guessing in Multiple-Choice Tests. Journal of Mathematical Psychology. 54(5):415-425.
 - James, Mary. 2015. Educational assessment: Overview (161-171). In Educational Assessment E. Baker, B. McGraw (Eds.). International Encyclopedia of Education: Third edition, Vol. 3: Oxford, Elsevier.
 - Ketabi, Somaya. 2015. Different methods of assessing writing among EFL teachers in Iran. In International Journal of Research Studies in Language Learning. Online edition ISSN: 2243-7762.
 - Resnick, L. B., &Resnick, D. P. (1990). Tests as standards of achievement in schools. In The Uses of Standardized Tests in American Education: Proceedings of the1989 ETS Invitational Conference (pp. 63-80).Princeton, NJ: Educational Testing Service.
 - العش، مهدي (٢٠٢٠) تقييم مهارة التحدث من منظور حركة الكفاءة. مؤتمر جامعة ابن زهر، أغادير، المغرب.

الملحق (١)

إرشادات أكتفل للكفاءة ٢١٢ -الكتابة

تمهيد:

تصنّف إرشادات أكتفل للكفاءة ٢٠١٢ - الكتابة في خمسة مستويات كفاءة رئيسة: المتفوّق والمتميّز والمتقدّم والمتوسط والمبتدئ. وتمثل توصيفات كل مستوى رئيس مجالاً محدداً من المقدرات. وتكوّن هذه التوصيفات مجتمعة تسلسلاً هرمياً يشتمل فيه كل مستوى على المستويات التي تكون أدنى منه. وتنقسم المستويات الرئيسة للمتقدم والمتوسط

والمبتدئ إلى مستويات ثانوية هي الأعلى والأوسط والأدنى.

تصف الإرشادات المهام التي بإمكان الكاتب التعامل معها في كل مستوى، وكذلك المحتوى والسياق وسلامة اللغة وأنواع الخطاب المتعلقة بالمهام في كل مستوى. وهي تقدم أيضاً الحدود القصوى التي يواجهها الكاتب حين يحاول أن يؤدي المهام في المستوى الرئيس والتالي والأعلى.

يمكن استخدام الإرشادات في وصف النص المكتوب الذي يكون إما تقديمياً (مقالات، تقارير، رسائل) أو تفاعلياً بين شخصين (رسائل نصية قصيرة، تواصل بالبريد الإلكتروني). وعلاوة على ذلك، تنطبق على الكتابة العفوية (فورية، غير منقحة)، أو تأملية (مراجعة ومنقحة). وهذا الأمر ممكن؛ لأن الإرشادات تصف المنتج لا عملية الكتابة أو غرضها.

إن التوصيفات التحريرية للكفاءة بالكلام يصاحبها على الشابكة عينات من الكتابة تبين صفات كل مستوى رئيس.

يمكن استخدام إرشادات أكتفل للكفاءة ٢٠١٢ - الكتابة لأغراض تربوية غير ربحية فقط، على شرط تقديمها كاملة دون تحريفات، وأن تعزى لأكتفل.

(لأسباب دلالية كانت تسمية المصطلحين الأعلىين بالعربية: متميز ومتفوق على التوالي دون تغيير في التوصيفات الخاصة بكل منهما. يبقى المصطلحان الإنكليزيان كما هما: المتفوق، المتميز.)

التميز:

يمكن الكاتب في المستوى المتميز من تنفيذ مهام كتابية رسمية مثل المراسلات الرسمية، ومقالات الرأي والمقالات الصحفية. وهي تكتب بصورة تحليلية حول قضايا جامعية علمية (أكاديمية) أو اجتماعية. وإضافة إلى هذا يتمكن

الكاتب في المستوى المتفوق من تناول قضايا عالمية بأسلوب فكري رفيع. ويستطيع الكاتب استخدام الخطاب المقنع والافتراضي أسلوبين يسمحان بالدفاع عن موقف ليس بالضرورة موقفه الخاص. وباستطاعته كذلك نقل ظلال المعاني الدقيقة. والكتابة في المستوى المتميز مصقولة موجهة إلى القارئ المحنك. والكاتب في هذا المستوى يكتب لجمهوره مكيفاً لغته وفق قرائه.

إن الكتابة في المستوى المتميز كثيفة ومقعدة، وتتصف بالاقتضاب في التعبير في آن معاً. وهي مصوغه بمهارة، والأفكار فيها منظمة وفق الأنماط الثقافية الخاصة باللغة الهدف. وطول النص في المستوى المتميز ليس عاملاً محدداً، ويمكن أن يكون قصيراً كقصيدة، أو مطولاً كبحث أو كتاب. يمتلك الكاتب في المستوى المتميز ناصية نحو اللغة وصرفها ومفرداتها وأساليبها البلاغية بغض النظر عن درجة تعقيدها؛ يستخدم تركيب الخطاب وعلامات التنقيط لتنظيم المعنى ولتحسينه. والتقاليد الإنشائية مناسبة لنوع النص عموماً ولثقافة اللغة الهدف.

المتفوق:

يتمكن الكاتب في المستوى المتفوق من صياغة معظم أنواع المراسلات الرسمية وغير الرسمية، والملخصات المتعمقة والتقارير والمقالات البحثية في باقة من المواضيع الاجتماعية والعلمية والمهنية. ويتمكن الكاتب في المستوى المتفوق من شرح أمور معقدة، وأن يطرح رأياً ويؤيده من خلال افتراضات ومناقشة مقنعة. ومما يحسن معالجته للموضوع الاستخدام الفعال للتراكيب والمفردات والأساليب البلاغية. ويستطيع الكاتب المتميز تنظيم أفكاره وترتيبها من حيث الأهمية لينقل

للقارئ النقاط الهامة. وتكون العلاقة بين الأفكار واضحة بانتظام بفضل مبادئ تنسيق الأفكار وتطويرها كالسبب والنتيجة والمقارنة والترتيب الزمني. وهذا الكاتب قادر على معالجة موضوع ما باستفاضة، وهو ما يقتضي عادة بضع فقرات على الأقل، وقد يمتد إلى عدد من الصفحات. وييدي الكاتب في المستوى المتفوق تمكناً تاماً من قواعد اللغة والمفردات العامة والمتخصصة وقواعد التهجئة (الإملاء) وأدوات الربط وعلامات التنقيط إلى حد بعيد. واستخدامه للمفردات دقيق ومتنوع. ويستطيع توجيه كتابته إلى الجمهور المقصود. وكتابته سلسلة مما يسهل مهمة القارئ.

إن الكاتب في المستوى المتفوق قد لا يسيطر تماماً على أنماط اللغة الهدف الثقافية والتنظيمية والبلاغية، وتتصف كتابته بعدم وجود أي أنماط للأخطاء اللغوية، وإن كانت بعض الأخطاء المتناثرة قد تظهر خصوصاً في التراكيب قليلة الشيوع. وحين تظهر هذه الأخطاء لا تؤثر في فهم النص، ونادراً ما تصرف انتباه القارئ من أبناء اللغة.

المتقدم:

يتصف الكاتب في المستوى المتقدم بقدرته على كتابة مراسلات عادية رسمية (إلى حد ما) وغير رسمية، وعلى السرد والوصف وكتابة ملخصات لنصوص تحوي حقائق، ويستطيع أن يصف ويسرد في الماضي والحاضر والمستقبل مستخدماً إعادة الصياغة والإطناب لتحقيق الوضوح. وينتج الكاتب في المستوى المتقدم خطاباً مترابطاً بطول الفقرة وتركيبها. وييدي الكاتب في هذا المستوى تمكناً جيداً من معظم التراكيب الشائعة التداول، ومن المفردات العامة، وهو ما يتيح للقارئ غير المعتاد كتابة غير أبناء اللغة فهمها.

المتقدم الأعلى:

يستطيع الكاتب في هذا المستوى الفرعي الكتابة في عدد من المواضيع بدقة ملحوظة ووفرة في التفاصيل؛ وبإمكانه التعامل مع المراسلات الرسمية وغير الرسمية وفق قواعد مناسبة. ويمكنه كتابة ملخصات وتقارير ذات صبغة محسوسة. ويمكنه كذلك الكتابة باستفاضة حول مواضيع تتعلق باهتمامات محددة ومجالات كفاية خاصة. وتميل كتابته نحو التركيز على الجوانب المحسوسة في تلك المواضيع. ويستطيع المتقدم الأعلى الوصف والسردي في جميع الأزمنة والتمكّن التام من أشكال المضارع الثلاثة. وعلاوة على ذلك يستطيع أن يتعامل مع مهام مرتبطة بالمستوى المتميز كمناقشة موضوع بأسلوب مقنع وطرح افتراضات، لكنه لا يستطيع المثابرة على إنتاج كتابة في المستوى المتميز عبر عدد من المواضيع المختلفة متناولاً إياها بالمجرد تناولاً شاملاً. ولديه أيضاً تمكن معتبر من مجموعة من التراكيب النحوية والمفردات العامة. وحين يكتب في المستوى المتقدم يبدي سلاسة ملحوظة في التعبير، إلا أنه بضغط متطلبات مهام المستوى المتميز تظهر أنماط من الأخطاء. وقد تصرف الكفاية اللغوية المحدودة انتباه القارئ من أبناء اللغة عن مقصد الكاتب.

المتقدم الأوسط:

يستطيع الكاتب في المستوى الفرعي المتقدم الأوسط أن يحقق حاجات كتابية متنوعة في العمل والدراسة. إنه يبدي مقدرة على الوصف والسردي بالتفصيل في جميع الأزمنة مع تمكن جيد من أشكال المضارع. وهو قادر على كتابة ملخصات غير معقدة في مواضيع ذات صبغة عامة. وتتصف كتابته باستخدام أدوات ربط متنوعة في نصوص تصل إلى عدة

فقرات طويلاً. وهناك تمكن جيد من معظم التراكيب النحوية الشائعة في اللغة الهدف، ومن حصيلة جيدة من المفردات العامة. ويعبر عن أفكاره غالباً بوضوح وتوسع. وتشتمل كتابته على سمات لتنظيم الأفكار من اللغة الهدف ومن لغته الأولى، وقد تشابه أحياناً الخطاب الشفوي. وتُفهم كتابة المتقدم الأوسط بيسر من أبناء اللغة غير المعتادين التعامل مع كتابة غير أبناء اللغة. وحين يطلب منه تنفيذ مهام أو تناول قضايا في المستوى المتميز، ترى تدهوراً يظهر في نوعية كتابته وكميتها.

المتقدم الأدنى:

يستطيع الكاتب في المستوى الفرعي المتقدم الأدنى تلبية حاجات كتابية أساسية في العمل والدراسة. إنه يبدي قدرة على السرد والوصف في الأزمنة الثلاثة، وبعض التمكن من أشكال المضارع. ويمكنه صياغة ملخصات في مواضيع مألوفة. وبإمكان الكاتب المتقدم الأدنى ربط الجمل بعضها ببعض في نصوص بطول الفقرة وبشكل بنائها. ورغم أن كتابته وافية وفق معايير المستوى المتقدم، فإنها ليست مستفيضة. وتتصف كتابة المتقدم الأدنى باحتوائها على عدد محدود من أدوات الربط، وقد يلجأ إلى التطويل أو التكرار، ويعتمد أنماط الخطاب الشفوي وأسلوب الكتابة في لغته الأولى. وتتصف كتابته بالحد الأدنى من التمكن من التراكيب والمفردات الشائعة المتعلقة بالمستوى المتقدم. وتُفهم كتابته من أبناء اللغة غير المعتادين كتابة غير أبنائها، مع أنهم قد يحتاجون إلى جهد إضافي في قراءتهم للنص. وحين يحاول تنفيذ وظائف في المستوى المتميز ترى نوعية الكتابة تتدهور بوضوح.

المتوسط:

يتصف الكاتب في المستوى المتوسط بالقدرة على تلبية الحاجات الكتابية

العملية كالرسائل البسيطة، والاستفهام حول معلومات، وكتابة الملاحظات. ويمكنه كذلك طرح أسئلة والإجابة عنها كتابياً. ويستطيع هذا الكاتب الخلق باللغة، وتوصيل حقائق وأفكار بسيطة بسلسلة من الجمل غير مترابطة بإحكام حول مواضيع واهتمامات شخصية وحاجات اجتماعية. ويكتب أساساً في الزمن الحاضر. والكاتب في هذا المستوى يستخدم مفردات وتراكيب أساسية للتعبير عن معان يفهمها القارئ المعتاد لكتابة غير أبناء اللغة.

المتوسط الأعلى:

الكاتب في المستوى الفرعي المتوسط الأعلى قادر على تلبية كافة الحاجات الكتابية العملية للمستوى المتوسط. وإضافة إلى ذلك يمكنه كتابة مواضيع إنشاء وملخصات تتعلق بتجربته في العمل أو الدراسة. ويستطيع أن يسرد ويصف في الحاضر والماضي والمستقبل حين يكتب حول الأحداث والأحوال اليومية. ويكون هذا الوصف والسرد غالباً في طول الفقرة. وتحتوي كتابته عموماً على دلائل للتعطل اللغوي في واحدة أو أكثر من سمات المستوى المتقدم. فعلى سبيل المثال، قد لا يكون هذا الكاتب ثابتاً في استخدامه لعلامات الزمان، وهو مما يؤدي إلى فقدان الوضوح. ومفردات المتوسط الأعلى وتراكيبه تتلاءم أساساً مع التراكيب والمفردات المحكية. وهو بالرغم من أخطائه المتعددة وربما الفادحة، مفهوم عموماً لأبناء اللغة غير المعتادين كتابة غير أبناء اللغة، إلا أنه يحتمل وجود فجوات في الفهم.

المتوسط الأوسط:

يستطيع الكاتب في المستوى الثانوي المتوسط الأوسط أن يلبي عدداً من الحاجات الكتابية العملية، فهو يستطيع أن يتواصل كتابياً بنصوص

قصيرة بسيطة، ومواضيع إنشائية، وطلبات للمعلومات على صورة جمل ضعيفة الترابط حول الأمور الشخصية المفضلة والحياة اليومية وغيرها من المواضيع الشخصية. وكتابته محصورة في الحاضر، لكنها قد تحوي إشارات إلى أزمنة أخرى. وأسلوب كتابته يشبه إلى حد بعيد الخطاب الشفوي. يبدى الكاتب في المستوى المتوسط الأوسط دلائل على تمكنه من تركيب الجمل الأساسي وتصريفات الأفعال. ويمكن وصف كتابته بأنها مجموعة من جمل أو أسئلة متفرقة ذات ترابط ضعيف، ولا يكاد يوجد دليل على تنظيم واع لها. يمكن فهم كتابة المتوسط الأوسط بيسر من أبناء اللغة المعتادين كتابة غير أبناء اللغة. وحين يحاول الكاتب المتوسط الأوسط تنفيذ مهام كتابية في المستوى المتقدم تتدهور نوعية كتابته وكميتها، وقد يكون مقصده غير واضح.

المتوسط الأدنى:

يمكن الكاتب في المستوى الثانوي المتوسط الأدنى من تلبية بعض الحاجات الكتابية العملية المحدودة، فهو قادر على الخلق في العبارات وصياغة الأسئلة معتمداً على مادة مألوفة، ومعظم جملة مركبة من مفردات وتراكيب محفوظة، وهي جمل بسيطة قصيرة ذات أسلوب محكي وترتيب كلماتها بسيط. وهذه الجمل تُكتب حصراً بالزمن الحاضر. وتتكون الكتابة هذه من بضع جمل بسيطة ذات تركيب متواتر، ويرتبط محتواها بنواح متوقعة في هذا المجال وبالمعلومات الشخصية، ومفرداتها كافية للتعبير عن حاجات أولية. وقد يكون فيها أخطاء نحوية وصرفية وإملائية وفي علامات التنقيط. ويمكن لأبناء اللغة ممن اعتادوا كتابة غير أبناء اللغة فهمها، إلا أن جهداً إضافياً ضرورياً للفهم. وحين يحاول المتوسط الأدنى القيام بمهام

كتابية في المستوى المتقدم تتدهور الكتابة تدهوراً ملحوظاً، وقد يبقى المعنى غير كامل.

المبتدئ:

يتصف الكاتب في المستوى المبتدئ بقدرته على إنتاج قوائم مكونة أساساً من كلمات وعبارات، ويمكنه تقديم قدر محدود من المعلومات لملء استمارات أو وثائق رسمية، ويستطيع إنتاج مادة محفوظة لينقل أبسط المعاني. وإضافة إلى ذلك، بإمكانه نسخ حروف الأبجدية وكلمات وعبارات مألوفة ببعض الدقة.

المبتدئ الأعلى:

إن الكاتب في المستوى المبتدئ الأعلى قادر على تلبية حاجات كتابية عملية بدائية مستخدماً القوائم والرسائل القصيرة والبطاقات البريدية، ويمكنه التعبير عن نفسه ضمن السياق الذي تعلم فيه اللغة معتمداً أساساً على مادة محفوظة، وتتركز كتابته على عناصر عادية من الحياة اليومية. إن المبتدئ الأعلى قادر على دمج كلمات محفوظة مع تراكيب لخلق جمل بسيطة حول مواضيع مألوفة جداً، لكنه لا يستطيع الثبات على الكتابة في مستوى الجملة كل الوقت. وبسبب عدم كفاية المفردات والقواعد قد لا تنقل الكتابة في هذا المستوى إلا جزءاً من مقصد الكاتب. وكتابة المبتدئ الأعلى مفهومة غالباً لأبناء اللغة المعتادين كتابة غير أبنائها، إلا أن فجوات في الفهم قد تحدث.

المبتدئ الأوسط:

بإمكان الكاتب في المستوى المبتدئ الأوسط كتابة عدد متواضع من المفردات والعبارات المحفوظة في سياقها، ويمكنه تقديم معلومات محدودة

لملء استمارات رسمية بمعلومات ذاتية كالأسماء والأعداد والجنسية. ويبدى الكاتب في المستوى المبتدئ الأوسط دقة لا بأس بها حين يكتب حول مواضيع مألوفة تدرب عليها مستخدماً لغة محدودة ذات صيغ ثابتة. وحين يكتب حول مواضيع غير مألوفة ترى تناقصاً ملحوظاً في الدقة يظهر. والأخطاء الإملائية قد تكون متواترة. والدليل على مقدرة وظيفية ضئيل إن لم يكن معدوماً. وفي هذا المستوى يصعب فهم الكتابة حتى ممن اعتاد قراءة كتابة غير أبناء اللغة.

المبتدئ الأدنى:

يستطيع المبتدئ الأدنى نسخ كلمات وعبارات مألوفة مستخدماً الحروف الأبجدية. وإذا أُعطيَ الوقت الكافي والتلميح المؤلف فإن بإمكانه إنتاج عدد محدود من الكلمات والعبارات من ذاكرته، لكن الأخطاء في ذلك متوقعة.

* * *

العربية وحرب اللغات

أ. د. جورج جبور^(*)

أولاً: مقدمة في اللغات والحروب وأسلوب المقاربة:

للغات حدود كثيراً ما كانت تحددها الحروب، شأنها في ذلك شأن القوميات والدول. كلُّنا يعلم أن القوة الفعلية على الأرض هي المحدد الأهم لمكونات عالمنا البشري. ولعل ممّا يعلمنا إياه التاريخ - على تنوع ما يعلمنا إياه وتضاربه - أن القوي إذ يتجاوز حدود الأرض التي هو فيها، ويتقدم إلى أرض أخرى فيخضع ناسها، إنما يجعل لغته بقوته لغة عليا، لغة السيطرة. ومن المرجح أن تبقى الأقلية الفاتحة تمارس السيطرة اللغوية على لغات الناس الخاضعين. وبالمقابل تتنوع بين حدين تفاعلات الخاضعين مع اللغة المسيطرة: إمّا أن تبقى لغة الحكام والحكم فقط، أو تتوسع، فتنتشر بين السكان الذين كان نصيبهم الخضوع، فتصبح لغتهم أيضاً إمّا وحيدة، وإمّا متشاركة مع ما كان لهم من لغات.

تلك خلاصة عامة عن اللغات والحروب أردت منها القول البسيط الواضح: للقوة الفعلية على الأرض الدور الأول في حروب اللغات. إلا أن

(*) رئيس الرابطة السورية للأمم المتحدة.

ألقى الدكتور جورج جبور هذه المحاضرة في قاعة المجمع بتاريخ

٢٦/٢/٢٠٢٠م.

الجملة التقريرية السابقة ليست كل الحكاية. ثمة لغات خضع ناسها، لكنهم في بعض الأحيان توصلت لغتهم إلى تسجيل الغلبة على لغة الفاتح.

ثم إن لدي عاطفتين متناقضتين في استعمال كلمة «حروب» للإشارة إلى العلاقات بين اللغات. هناك بين اللغات تفاعل وتعارض وتداخل وأحياناً علاقات ود وحسن جوار، وليس بالضرورة أن تكون بينها حروب. إلا أن «الظاهرة الحربية» لا تخفى في كثير من الأحيان، ومثالها الأوضح عبرة أسماء الأمكنة في فلسطين المحتلة، ومن المتوقع أن تزداد بعد إعلان ما دُعي بـ «صفقة القرن»، والتريك الذي نشهده الآن في بعض الأجزاء الثائرة على الاحتلال التركي في الشمال السوري، تريك هو متبعة يائسة لحملة التريك التي قام بها الحكم العثماني في بلاد الشام خاصة، والتي جعلت اللغة التركية وسيط تعليم اللغة العربية لأبناء العربية. والحماقه فنون بل جنون.

وأختم هذه الكلمات التقديمية باعتذار. ليست العربية اختصاصي ولا اللغات؛ فإذا كنت أقدم على كتابة هذا البحث، فإنني أفعل بروح هاوٍ لا محترف - والهاوي مُعرّض للسقوط في هاوية - فإذا فعلت فلا تترددوا في انتشالي.

ثانياً: حروب اللغات في عالم اليوم: بضعة نماذج:

يطول البحث في ماضي حروب اللغات وتفاعلاتها، إلا أن في الوقت الراهن بضعة نماذج من العلاقات بين اللغات اخترت ثلاثة منها، وإمكانات النمذجة متعددة في كل حال، فلا يحجب ما اخترت نماذج أخرى.

إلا أن ما ينبغي ألا يفوتنا حقيقة واضحة، رغم أننا - في ما أقدر - لا نحبها. تلك الحقيقة هي أن الإنجليزية تتفوق وتوالي التفوق. هي ليست اللغة الرسمية لكثير من دول العالم، إلا أنها اللغة الأولى في التداول العالمي. وأظنكم تعلمون أن كثيراً من الشركات الكبرى تجهر علناً بأن

الإنجليزية لغتها الرسمية، وإن كانت امتدادات فروعها في دول لا تتكلم الإنجليزية. إلى جانب الحقيقة السابقة ثمة حقائق أخرى تحسن الإشارة إليها أهمها أن الإسبانية تتوغل في الولايات المتحدة الأمريكية نتيجة ازدياد هجرة مواطني أمريكا اللاتينية، وأن مواطني بعض الدول المتقدمة يزداد إقدامهم على تعلم اللغتين الصينية واليابانية، ونعلم أن الصين واليابان دولتان تشهدان منذ مدة ازدهاراً اقتصادياً ملحوظاً. ولا ريب أن من المفيد للهيئات المعنية باللغات متابعة تطورات الإقبال على لغة ما أو الابتعاد عنها. والآن إلى النماذج الثلاثة التي أشرت إليها في ما سبق:

١- النموذج الطامح إلى الانفصال معلناً اللغة سبباً كافياً أو أول لهذا الطموح. ولعل مثله الأوضح في أيامنا الوضع في إسبانيا. إلا أن الطموح إلى الانفصال ذي الدافع اللغوي لا يقتصر على تلك الدولة العريقة التي كثيراً ما تأخى فيها الناس تاريخياً ضمن تكون إمبراطوري باحث عن الأمجاد مسطر لها. أسكتلندا لها شغفها بلغتها، ولكن نزعة الانفصال عندها لا تقتصر على الجانب اللغوي. للنزعة الاستقلالية الأسكتلندية دوافع اقتصادية واضحة تتمثل خاصة في مزيد من الرغبة في توثيق الصلات مع الاتحاد الأوروبي. أمّا المثال التاريخي الأوضح للانفصال الذي كان للغة دور كبير فيه فانفصال بنغلادش عن باكستان. ونعلم أن يوم اللغة الأم يستعيد ذكرى ٢١ شباط ١٩٥٢، حين احتج البنغاليون على كون الأوردو اللغة الرسمية الوحيدة لباكستان.

٢- النموذج المتشكل منذ عقود طويلة، القائم على أساس العيش المشترك بين اللغات، المتوازي المتساوي، والمعلن قناعته بهذا النمط من العيش. ولعل مثاله الأوضح الاتحاد السويسري. وتطمح كندا في أن تكون مثلاً

جذاباً جديداً لهذا النموذج، رغم عاطفة انفصالية لدى بعض أهل كيبيك.

٣- النموذج الذي يقوم على أساس محاولة دعم لغة بعينها على حساب اللغات الأخرى التي في الحيز السيادي، دعماً غير معلن، ولكنه ليس خافياً. ولعل فرنسا أحد أهم الأمثلة لهذا النموذج؛ عارضت الأكاديمية الفرنسية، وهي أم اللغة الفرنسية والقومية الفرنسية، عارضت أن يكون للغات الفرنسية الجهوية أو المحلية مكان في الدستور. وكذلك أصدرت قانون حماية اللغة الفرنسية عام ١٩٩٤. وحاول الرئيس ساركوزي ذات عام، أمام تكاثر أعداد المسلمين في فرنسا، مواطنين ومتجنسين ولاجئين، حاول فتح نقاش لم يصل إلى نتيجة مرضية متفق عليها متعلقة بعناصر الهوية الفرنسية والثقافة الوطنية الفرنسية. ثم إن من الإنصاف لثقافة حقوق الإنسان التي تعتر بها فرنسا - حقاً أحياناً وباطلاً أحياناً أخرى - أن نشير إلى أمور تقع في النطاق نفسه، نطاق اللغة والهوية والقومية. في فرنسا قانون خاص باللغات المحلية من الواجب تدارسه، هو - كما أقدر - يعطي اللغات المحلية حيزاً يحميها، لكن عليها ألا تتعداه. ثم إن إدخال اللغات المحلية في الدستور أمر اقترحه في زمن ليس بعيداً عشرات النواب الفرنسيين. والرئيس شيراك الذي خرج من اجتماع أوربي ذات يوم من آذار ٢٠٠٦ حين تكلم من المنبر بالإنجليزية موظف فرنسي عالي الرتبة، هو نفسه رجل الدولة المعتر بالفرنسية الذي اضطر يوم ٢٢ تشرين الأول ١٩٩٦ إلى مخاطبة قوى الأمن الإسرائيلية بالإنجليزية حين أحاطت به ومنعته من التواصل مع الفلسطينيين أثناء زيارة له شهيرة للقدس. ولنتذكر أيضاً أن السياسي الفرنسي جوسبان صرح مرات أنه يحبذ الانفتاح على اللغة الإنجليزية. بل قد أقترح عابراً المجال الطائفي الفرنسي فأبوح بأنني ألاحظ أن حماسة الكاثوليك في فرنسا للفرنسية تتفوق على حماسة

البروتستانت لها. وقد أتقدم فأقول: إن أغلبية الأدبيات الكاثوليكية إنما هي في الإيطالية والفرنسية، والإسبانية، وأغلبية الأدبيات البروتستانية هي في الألمانية والإنجليزية. وأذكر عن فرنسا تجربة شخصية خبرتها من خلال مؤتمر عن حقوق الإنسان دعاني إليه آنذاك محافظ نانت، الذي أصبح في وقت لاحق رئيساً للوزراء. فوجئت بأن المشاركين أغرقوا بالمنشورات الداعية إلى دعم اللغة البريتونية. أطلت في الشأن الفرنسي لأن سياساتها اللغوية - وهي المؤثرة في السياسات اللغوية لليونسكو - إنما ينبغي أن توضع تحت مجهر مضخم، فهي الرائدة في مجال الدفاع عن لغتها وثقافتها، والفرنكفونية مثال، والاتفاقية الدولية لحماية التنوع الثقافي مثال آخر. قلت: إن فرنسا هي أحد أهم الأمثلة لأنموذج الدولة التي تدعم لغة بعينها. ويتطور أمام أعيننا أنموذج آخر هو الهند التي ينص دستورها على العديد من اللغات. ثمة ما يشير إلى أن الهند العلمانية التعددية تتجه، بعد انتهاء عهد حزب المؤتمر، إلى دعم واضح للهوية الهندوسية والثقافة الهندوسية. وربما كان من المناسب إعاره المجمع اهتمامه لوضعية اللغات في بلدان آسيا شرقي العراق، وهي التي تأثرت لغاتها بالعربية تأثراً كبيراً، ومثاله الأوضح إيران. ذلك بحث مطلوب ضمن سياستنا العامة الكبرى في الانفتاح على الشرق بمكوناته جميعها. ولا ننسى أن يوم اللغة الأم الذي اعتمدته اليونسكو عام ١٩٩٩ إنما يؤرخ لحرب من البنغاليين ضد الأوردو كما أسلفنا.

تحدثت عن نماذج ثلاثة، وتقبل تلك النماذج وأمثلتها مزيداً من التدقيق القائم على حقيقة ثابتة، هي أن كل حالة تنوع لغوي إنما هي - بالعلم الدقيق - حالة خاصة.

ثالثاً: العربية وحرب اللغات: الوضع الراهن :

العربية لغة أولى ورسمية معاً في دول جامعة الدول العربية، ولغة رسمية في دول أخرى منها إيران وتشاد. وثمة وضع خاص بدولتين عربيّتين عضوين في جامعة الدول العربية هما الصومال وجزر القمر.

في الصومال اللغة الصومالية إلى جانب العربية، وثمة حضور بارز للإنجليزية في التعامل الرسمي الدولي.

وأذكر عن تلك الدولة العضو في الجامعة حادثة كنت شاهداً عليها، ولا أود لها أن تُطوى إيفاء لحق واحد من شخصيات جامعة الدول العربية. فأما الشخص فهو الدكتور سيد نوفل، رحمه الله، العليم الأول بشؤون الجامعة، وكان وقت وقوع الحادثة أوائل عام ١٩٧٩ أميناً عاماً مساعداً للجامعة.

كنت في مكتبه نتباحث في كيفية إعداد دراسة عن مؤتمرات القمة العربية كلّفني بإعدادها معهد البحوث والدراسات العربية، حين قال لي: «حان موعد قدوم السفير الصومالي». أبقاني رغم محاولتي الاعتذار شارحاً: «هي مقابلة بسيطة قصيرة يسلمني خلالها في دقيقة أو اثنتين دعوة الصومال إلى قمة عربية. اجلس وشاهد واشهد. قدم الضيف، وسلم رسالة الدعوة إلى القمة. رفض الحريص الدكتور نوفل استلامها. لماذا؟ هي مكتوبة بالإنجليزية. ثم توصلاً، الضيف والمضيف، إلى حل وسط: يترك السفير الرسالة على الطاولة الصغيرة أمامه، ثم يأتي لاحقاً برسالة باللغة العربية.

كانت تلك حادثة مؤلمة عن الصومال، ولا أعرف الكثير عن جزر القمر وما يتكلمه أهلها إلى جانب العربية. إلا أن مذكرة مني إلى رئيس مجلس الوزراء السوري تاريخها ١١ آب ١٩٩٧، أخذت على الحكومة السورية

عدم اكترائها بمحاولات تجزئة تلك الدولة الشقيقة^(١).

أتابع الحديث عن الوضع الراهن للعربية.

هي لغة رسمية منذ النشأة في منظمة الدول الإفريقية - الاتحاد الإفريقي حالياً -، وفي منظمة الدول الإسلامية - منظمة التعاون الإسلامي حالياً. أما الجمعية العامة للأمم المتحدة فقد عدلت من أجلها الميثاق، واعتبرتها لغة رسمية بعد أقل من شهرين من انتهاء حرب تشرين التحريرية. كان ذلك في ١٨ كانون الأول ١٩٧٣، وهو اليوم الذي سُمي لاحقاً يوماً عالمياً للغة العربية، كما سيرد تفصيله. وفي هذا المعرض نقطتان تتطلبان تدقيقاً وثائقياً: الأولى: هل نوقش جدياً موضوع اعتبار العربية لغة رسمية في مؤتمر سان فرانسيسكو؟ بلغتي أحاديث أنّ محاولة جرت لاعتمادها لغة رسمية لكنني لم أتيقن، والعودة إلى المحاضر مستحسنة. أما النقطة الثانية فهي أن بعض المصادر المكتوبة تشير إلى أن ليبيا تقدمت بطلب اعتبار العربية لغة رسمية في أول السبعينات، إلا أنه لم يؤخذ بذلك الطلب. ويقتضي حرصنا على لغتنا أن ندقق في النقطتين.

إلا أن اعتبار العربية لغة رسمية للأمم المتحدة لا يعني أن لغتنا كانت غائبة عن المنظمات الدولية قبل ذلك التاريخ. يصح دائماً في الحديث عن العرب والمنظمات الدولية أن نتذكر أن الهيئة العليا في أية منظمة دولية عقدت مؤتمرها العام للمرة الأولى - وربما الأخيرة - في عاصمة دولة عربية هي لبنان. كان ذلك عام ١٩٤٨. إلى المؤتمر العام لليونسكو أشير. في ذلك المؤتمر كانت العربية لغة رسمية. لا أعلم هل كانت أعمال

(١) ص ١٨٠ من كتاب: «مذكرات إلى رئيس مجلس الوزراء السوري: ١٩٩٠-١٩٩٨»

المؤتمر منشورة بالعربية في بيروت أو باريس، لكن من المناسب التقصي. وتدرج استعمال العربية في منظمات الأمم المتحدة المتخصصة، وبلغ الذروة عام ١٩٧٣ حين توجت لغتنا إحدى اللغات الست الرسمية.

وإذ أتيت إلى مؤتمر بيروت فلن تفوتني عنه ملاحظتان. لفرنسا سلطة مؤثرة في علاقتها باليونسكو لا يضاهيها تأثير الولايات المتحدة الأمريكية في علاقتها بمنظمة الأمم المتحدة. ولا ريب أن من المفيد للباحثين في شؤون المنظمات الدولية التدقيق في نسبة القرارات المتخذة في اليونسكو التي عارضتها فرنسا، مع نسبة القرارات المتخذة في الأمم المتحدة التي عارضتها الولايات المتحدة. أرحح أنه بما لفرنسا من تأثير في اليونسكو كان لها فضل تزكية بيروت لكي تكون مكاناً لانعقاد المؤتمر العام عام ١٩٤٨. خطر ببال فرنسا - كما أحسب - أن تعلن للعالم أن بيروت باريس صغرى. تلك ملاحظة جادة، والتدقيق فيها مطلوب. أما الملاحظة الثانية فساخرة: حين اختتم مؤتمر بيروت أحب السيد جوليان هكسلي، وهو العلامة الإنجليزي الذي كان يشغل آنذاك منصب المدير العام لليونسكو، أحب أن يقوم بجولة سياحية في المنطقة. سجل يومياته السياحية في كتاب سخر فيه من ضعف القدرة الإملائية باللغة الفرنسية لنادل مطعم في طرطوس تناول فيه السمك. أثبت العالم الكبير نص فاتورة المطعم في كتابه. تولّد لدي انطباع أنه إنما فعل ذلك لأنه أراد التباهي بإتقانه الفرنسية.

ثم إن ثمة نقطة كثيراً ما نهملها رغم أهميتها الفائقة: ما نسبة استعمال

العربية في المنظمات السابقة؟

في الأمم المتحدة للإنجليزية مكان الصدارة، تليها الفرنسية. أما اللغات الرسمية الأخرى فاستعمالها أقل. وقد اطلعت على إحصائيات تقول: إنّ

استعمال اللغات غير الإنجليزية في الأمم المتحدة يتضاءل باستمرار^(٢). أما في منظمة التعاون الإسلامي ومقرها جدة في المملكة العربية السعودية، فالعربية أولى تليها الإنجليزية والفرنسية. هكذا سجلت في دفتر مذكرات خاص بي خلاصة لحديث في ندوة شاركت فيها الدكتور أكمل الدين إحسان أوغلو الأمين العام. كان ذلك عام ٢٠٠٧.

ولا معلومات لدي عن منظمة الاتحاد الإفريقي، وإن كنت أرجح أن العربية تأتي في الدرجة الثالثة من حيث الاستعمال بعد الإنجليزية والفرنسية.

كانت العربية لغة رسمية وحيدة في كل دول الجامعة - ربما - ما عدا الصومال. إلا أن هذه الوحداية أخذت تتعرض للانحسار. بدا الأمر في العراق أولاً مع التقدم الدستوري للغة الكردية، واستمر غرباً في الجزائر، حيث اعتبرت الأمازيغية لغة وطنية أولاً ثم أصبحت لغة رسمية تشارك العربية في هذه الصفة. إلا أن التبعر الأكبر إنما هو قدر العراق. في الدستور العراقي الراهن ذكر للغات أخرى لا أرى ضرورة للتدقيق في أسمائها وأعدادها.

ومما يجدر ذكره أن بعض الدول العربية أصدرت قوانين لحماية اللغة العربية، ومنها مصر. وأسجل هنا أن صديقاً عزيزاً علي، كثيراً ما كرّمني بالذكر في كتاباته، هو الدكتور عبد الوهاب المسيري - رحمه الله - رفع أمام القضاء المصري دعاوى على بعض أجهزة الدولة المصرية لاستعمالها الإنجليزية في مواضع تصلح لكي تستعمل فيها العربية. ومما يجدر ذكره أن

(٢) إبراهيم بن يوسف البلوي، مندوب السعودية لدى اليونسكو، في بحثه: «حضور اللغة العربية في المنظمات الدولية» ص ١٣٩ - ١٤٦ المنشور ضمن كتاب: " اللغة العربية حاضراً ومستقبلاً: التحديات والتطلعات. الفكرة والإحصائيات في ص ١٤٠. صدر الكتاب بمناسبة اليوم العالمي للغة العربية، عام ٢٠١٧.

المجلس الدولي للغة العربية تبنى فكرة حثّ الدول العربية على إصدار قوانين لحماية العربية، ووضع نصاً نموذجياً لذلك لديّ نسخة منه.

وذاث يوم، أوائل عام ١٩٧٨، حدثني الدكتور محيي الدين صابر - رحمه الله - وكان المدير العام للمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم (ألكسو)، عن النية في تأسيس منظمة خاصة لنشر اللغة العربية. أرجح أنها أُسّست، إلا أن أخبارها غائبة. فإذا كنت مخطئاً فمن الواجب زيادة تعريفنا بها.

قدمت في ما سبق لمحة عن وضع العربية في الدول العربية، وفي المنظمات الإقليمية التي تضم الدول العربية. أتقدم الآن لأبحث باختصار عن معوقات استعمال العربية، وهي كثيرة. إلا أنني سأركز على معوقي العامة وتكاثر المفردات والتعابير الأجنبية.

في وضع اللغة العربية الراهن معوّقان شبه طبيعيين وان لم يكونا بريئين كلية من الافتعال: الأول هو العامة، والثاني هو تكاثر المفردات والتعابير الأجنبية في حياتنا اليومية، ولا سيما منها المفردات والتعابير الإنجليزية.

فأما العامة فقد أصبح لها قواميس متخصصة في آلاف الصفحات، وقد أشرت إلى موقف المجمع الرافض لهذه الظاهرة، كما عبر عن هذا الموقف المجمع بكامل أعضائه، وفي المقدمة رئيسه. وكذلك أشرت إلى الموقف الداعي إلى تقنين العامة، وبينت رأيي بوضوح في كتابي «يوم اللغة العربية»^(٣) والعامة وثيقة الصلة باللحن، وكلا الأمرين: اللحن والعامة، قديمان لدى العرب، ولم تثبت قدرتهما على إبعادنا عن اللغة في قوامها السليم.

وبمناسبة حديث اللحن لا بأس من التفكّه بما قرأته مؤخراً عن الخليفة الوليد ابن عبد الملك فيما ذكره الإمام السيوطي في كتابه «تاريخ الخلفاء»^(٤).

(٣) دار البعث ووزارة الثقافة، الكتاب الشهري السادس والستون ٢٠١٤، ص ٢٠٦-٧.

(٤) القاهرة، مطبعة المدني، ط ٣، ١٩٦٤ ص ٢٢٣.

قال أبو عكرمة الضبي: قرأ الوليد على المنبر: «يا ليتها كانت القاضية (بضمّ تاء ليتها)، وتحت المنبر عمر بن عبد العزيز وسليمان بن عبد الملك، فقال سليمان: وددتها والله».

هي تفكّهة موجزة تصلح للاستشهاد بها حين يثار حديث الخوف من تُغُول العامية على الفصحى. أليس اللحن جزءاً من العامية؟ وفي رأيي ورأي الكثيرين أن فصيحاً محصنة بالقرآن الكريم وهو عاصم من اكتساح العامية لما ننطق.

أمّا عن تكاثر المفردات والتعابير الأجنبية في حياتنا اليومية فحدث ولا حرج؛ أهنيء المجمع بنجاحه في إزاحة لوحة تهتف بالإنجليزية: «أحب دمشق». وأحيي جريدة «الوطن» لأنها نشرت ذات يوم قريب رسماً كاريكاتورياً بارعاً يسأل به طالب زميلاً له: «كيف كان امتحانك بالعربية؟» فكانت الإجابة «فيري غود» - أي جيد جداً بالإنجليزية. أما ظاهرة الخوف على العربية من اللغات الأخرى فيبدو أنها قديمة، وفي ذلك ما يطمئن، ولو إلى حد. وإليكم هذا النص من محاضرة للدكتور رامز بعلبكي ضمن احتفالية اليونسكو بيوم اللغة العربية العالمي عام ٢٠١٦. في النص مقتطف بالغ الدلالة:

«من يقرأ مقدمة (لسان العرب) لابن منظور يجد عجباً.... فهو يقول في تسويغ تأليفه المعجم: «وذلك لما رأيته قد غلب في هذا الأوان، من اختلاف الألسنة والألوان حتى لقد..... صار النطق بالعربية من المعايير معدوداً، وتنافس الناس في تصانيف الترجمات في اللغة الأعجمية، وتفاصحوا في غير اللغة العربية، فجمعت هذا الكتاب في زمن أهله بغير لغتهم يفخرون...»^(٥).

(٥) ص ١٣ من كراس: "ندوة جائزة الملك فيصل العالمية احتفالاً بيوم اللغة العربية العالمي باريس اليونسكو ٢٠١٦. التشديد مضاف.

ومن الجميل أن نتدارس: ما هي اللغات التي هددت العربية أيام ابن منظور المتوفى سنة ٧١١ هجرية. ويطمئنا هذا المقتطف بثبات صخرة العربية. وقبل ذلك وفوقه لدينا طمأنة من القرآن الكريم. إلا أن الطمأنات كلها لا ينبغي أن تشغلنا عن التصدي لتكاثر غير محمود العاقبة في المفردات والتعابير الأجنبية التي نتداولها.

قلت: إن معوّقي العامية والكلمات الأجنبية شَبها طبيعيين، إلا أن ثمة معوقاً ذاتياً، هو زهد أبناء العربية بلغتهم زهداً يريدونه هم أنفسهم أو يريد شطر كبير منهم. وحين طلعت علينا اليونسكو ذات عام قبل ما يقرب من عقدين بأن العربية مهددة بالاندثار كانت إلى زهد العرب بلغتهم تشير. إلا أن من الجميل أن أحداً لم يصدق حكاية الاندثار ما عدا - في ما أعرف - أحد الأدباء المغاربة الذي جاهر برأيه، وكان السيد عمرو موسى، الأمين العام لجامعة الدول العربية، في طليعة من تصدّوا له.

كان ذلك حديثاً عن معوقين لغويين، وبه تفاؤل أمدنا به السيوطي وابن منظور، ويمدنا بمزيد منه دائماً تراثنا الذي نفخر به.

أما الحديث عن الحرف العربي فالتفاؤل فيه معدوم. يتراجع الحرف العربي. تنتقل لغات كثيرة من الكتابة بالحرف العربي إلى الكتابة بالأحرف اللاتينية. وليس في علمي أن لغة من التي هجرت الحرف العربي عادت إليه. أحد مسوغات الانتقال غياب بعض الأصوات عن الحرف العربي. هو غياب عولج ويعالج، وأمره سهل كما في P و V و g. وقد يود البعض التقدم في المعالجة إلى خلق أحرف جديدة. ذلك أمر مغرٍ بحته. وقد أفعل في وقت لاحق، متذكراً دائماً أن الأكاديمية الفرنسية عجزت عن الاتفاق على جعل فاء (فيليب) حرفاً واحداً.

يبقى بعد ذلك من المعوقات حديث صعب خطير هو مكان اللغات المحلية في الدول العربية، وأول وثائق الدولة دستورها. وقد ألمعت سابقاً إلى شيء من هذا الحديث، وأعود إليه هنا بشيء من التوسع لراهنيته في شأننا العام.

في معظم الدول العربية - وربما في كل واحدة منها - مجموعات من المواطنين لها لغة خاصة بها تطورت عبر التاريخ وحافظت على نوع من الاستقلالية عن العربية. لست مطلعاً على دراسة جادة لهذه الظاهرة باتساعها الكبير، إلا أن جوانب منها خضعت للدراسة، وخضعت مع الدراسة إلى عناية دولية هادفة في توجهات منها إلى تفتيت المجتمعات الوطنية وإضعاف الشعور العربي العام.

في سورية مثلاً لغات محلية متعددة تتكلمها مجموعات صغيرة، ولا تمثل مشكلة حقيقية كالسريانية والأرمنية والشركسية. ولا بد هنا من تمييز السريانية من غيرها. إنها اللغة الأصلية في سورية قبل الفتح الإسلامي. وهي التي كانت بها الكتابة الرسمية حتى عهد عبد الملك بن مروان، وبينها وبين العربية صلات تقارض كانت موضوع كتاب قيم لعضو المجمع العلامة قداسة البطريك يعقوب أفرام الثالث - رحمه الله - وثمة بالمقابل لغتا مجموعتين هما التركمان والكرد. أولاهما كان وجودها خافياً لمعظم السوريين وظهر مؤخراً، أما الثانية منهما فقد كانت دائماً بادية للعيان، وأخذ ما تثيره في أيامنا هذه منحى خطيراً.

في خبرتي الشخصية أنني اكتشفت وجود مجموعة تتكلم التركمانية من خلال عملي معاوناً للنياحة العامة في اللاذقية قبل ستين عاماً بالضبط، أي: عام ١٩٦٠. كانت «العدالة» كثيراً ما تحاكم بالعربية رعاة ماعز من التركمان

يفهمون الإجراءات والأحكام عبر الترجمة. وفي أيامنا هذه نعلم أن الحكومة التركية الحالية كثيراً ما تحاول تسويق أعمالها العدوانية على وطننا - وهي التي لا تسوغ - بالحديث عن حماية التركمان. ويعرف كل متابع لما تتعرض له سورية من إرهاب أن هناك مجموعة إرهابية تتناقل أنباءها وسائل الإعلام، تدعى الوحدات التركمانية.

أما الثانية البادية للعيان سابقاً التي عالجها بحكمة فائقة ابن لها كان له شرف أن يكون أول رئيس لمجمعنا، أقصد العلامة الأستاذ الرئيس محمد كرد علي، رحمه الله. أما هذه اللغة الثانية - الكردية - فقد أخذ المستثمرون الأجانب فيها - أعداداً قليلة من المجموعة المتكلمة بها، إلى منح خطيرة في ظروفنا الراهنة، ولا سيما منذ أوائل العشرية الأولى من هذا القرن. يمكن لنا تأريخ بدء المناحي الخطيرة من حرب الخليج الأولى عام ١٩٩١، ثم تضاعف الأمر مع الغزو الأمريكي للعراق عام ٢٠٠٣ وما تركه من أثر في سورية. ولا ريب أن كل واحد منا في هذه القاعة لديه إحاطته بالموضوع الذي يعرف القاصي والداني أنه ليس بريئاً أبداً من الاستثمار الخارجي فيه، العدائي في طبيعته لمبدأ وواقع السيادة السورية على كامل أراضي الدولة السورية. وأكتفي بهذا القدر.

ونعلم أن ما تثيره اللغة الكردية في سورية وفي العراق له ما يماثله في المغرب العربي. هناك اللهجة أو اللغة الأمازيغية التي وجدت مكاناً لها في دستور الجزائر. وكلنا يعلم الدور الفرنسي في تطور وضع لغوي أدى بالنتيجة - توخياً من قادة الجزائر لصيانة السلامة الإقليمية للدولة - إلى اعتراف دستوري. ولا تطيب النفس بمغادرة هذا الموضوع في الحديث دون توجيه التحية إلى سوري جليل اعتنى بإرجاع الأمازيغية إلى أصول عربية هو

الزميل العميد المستشار محمد علي المادون - عافاه الله -، وإلى دبلوماسي ومناضل جزائري شديد المراس اعتنى بالأمر نفسه الذي اعتنى به المادون، هو الصديق الدكتور عثمان السعدي، وقد عمل في الخمسينات معلماً في القرى النائية من جبالنا الغربية، وفي السبعينات سفيراً للجزائر في دمشق.

أختم هذا الجزء من البحث بإصرار على أمرين هما: أولاً: ضرورة الإحاطة الكاملة بأوضاع اللغات المحلية في بلادنا العربية، وثانياً: ضرورة التعامل مع التنوع بروح المسؤولية عن وحدة الثقافة العربية المحترمة لحقوق الأقليات الثقافية. وتقف تلك الحقوق عند حاجز تهديد الوحدات الوطنية وإضعاف الشعور العربي العام.

رابعاً: أساليب دعم العربية في حرب اللغات مع تركيز خاص على

يوم اللغة العربية:

لا يدعم اللغة العربية أمرٌ مثل الوحدة العربية. الوحدة قوة تتجسد في أمور عديدة أهمها أو من أهمها اللغة. وفي شهر شباط هذا نتذكر بفرح أننا أقمنا، ذات شباط جميل، وحدة بين سورية ومصر. ونتذكر بأسى أننا لم نعرف كيف نصونها ونوسعها.

الوحدة قوة، فكيف ندعم اللغة العربية ونحن في حالة من «شقاق الأصدقاء»، لا يشتهيها لنا إلا الآخر الطامع بما لدينا من خيرات؟ وبالمقابل إنَّ اللغة تصنع الوحدة كما في علم القومية العربية. العلاقة جدلية، ولعل بإمكاننا في هذا المكان تحسين وضع اللغة تحسناً يؤدي - أو قد يؤدي - بالنتيجة إلى تحسين الوضع العربي.

ولا بأس أن أضع أمام الدول العربية فكرة تبلورت لدي في عام ٢٠٠٥، وكنت وقتها عضواً في لجنة دولية تستقصي كيفية تعامل بلجيكا مع من هم

على أرضها من أصول إفريقية. توصلت أثناء قيامي بالمهمة إلى حقيقة غائبة عن كثيرين، مؤداها أن متكلمي العربية من مواطني بلجيكا يزيد عددهم أضعافاً عن متكلمي الألمانية فيها. والألمانية في الدستور البلجيكي إحدى ثلاث لغات رسمية. طالبت رسميين بلجيكيين بتعديل الدستور البلجيكي بإضافة العربية، أو بحذف الألمانية. وكانت الاستجابة مغرية بالمتابعة. نهمل كثيراً من الأمور التي لا ينبغي أن تهمل. حين كرمني المنتدى القومي العربي في بيروت عام ٢٠١٦ بصفتي صاحب فكرة يوم اللغة العربية عدت إلى إثارة موضوع بلجيكا، ولكن باختصار. ثم ربما نسيته ونسيه الحضور. إلا أنني في ندوة عن المتنبي شهادتها، عقدت في دار النعمان للثقافة في جونية، لبنان، عام ٢٠١٨، تكلم شخص لم أكن أعرفه، فأوضح أنه مقيم في بلجيكا، وهو حالياً في زيارة لبنان، أوضح أنه يود إعلامنا أن أمام البرلمان البلجيكي اقتراحاً قدم مؤخراً لاعتماد العربية لغة رسمية رابعة في دستور تلك الدولة.

أذكر هذه الحادثة وأضعها أمام الدول العربية. من المتداول أن الدول الغربية تطالب بعض الدول العربية بإفساح المجال في دساتيرها لذكر لغات غير العربية. أليس من واجب الدول العربية أن تتحد أصواتها لتطالب بالحقوق الدستورية للغة العربية في بعض دول الغرب؟

قد تنجح المحاولة التي قيل: إنها تجري في بلجيكا وقد لا تنجح. إلا أنها ذات فائدة للعرب المقيمين في بلاد الاغتراب. إنها تحثهم على الافتخار بلغتهم. ونعلم أن كثيرين منهم يتجنبون علو النبرة حين يتكلمون العربية في إشارة ذاتية منهم إلى أنفسهم بأنهم مضغوفون^(*).

(*) في القاموس المحيط (ضعف): «أضعفه: جعله ضعيفاً، وهو مَضْعُوفٌ، والقياس: مُضْعَفٌ». = [المجلة].

كانت تلك بعض المعوقات، وهي أكثر من أن تحصى. أساليب تحسين الوضع الراهن هي أيضاً أكثر من أن تحصى. وأية نظرة إلى أدبياتنا في هذا المجال تدلنا على أساليب عديدة للتحسين، بالعشرات بل بالمئات، تمتد من تبسيط قواعد اللغة ولا تنتهي بالبراعة في ترجمة المصطلحات. وفي الخطة الشاملة للثقافة العربية المقررة من قبل الدول العربية عام ١٩٨٥ تفاصيل غنية بما يمكن أن يدعم انتشار اللغة. وحين ننظر إلى الخطة الوطنية للتمكين للغة العربية في سورية نجدها حافلة بالكثير القيم من هذه الأساليب التي تتبعها دولة كان لها شرف تأسيس أول مجمع للغة العربية. أما خطة النهوض باللغة العربية التي قدمتها سورية إلى مؤتمر القمة في دمشق، فهي - ومعها مآلها - تتطلب وقفة خاصة.

إلا أن أياً من كل ما سبق لم يلحظ فكرة فائدة اعتماد يوم للغة العربية. أعلنت فرنسا تأسيس منظمة الفرانكوفونية في ٢٠ آذار ١٩٧٠ قمة فعاليات المنظمة تتجسد في اعتبار تاريخ التأسيس يوماً للغة الفرنسية. منذئذ تحاول فرنسا ما وسعتها الطاقة شغل العالم بذلك اليوم عن طريق كل ما تستطيع القيام به من فعاليات. تكاد الفرانكوفونية تستولي في دول عديدة على كامل شهر آذار. توسع يوم ٢٠ آذار إلى أسبوع فيإلى شهر. لم تلحظ هذا التحرك الفرنسي الدؤوب المتحفز دائماً أية جهة عربية.

ويثور هنا سؤال: هل لغير فرنسا من الدول ولغير الفرانكوفونية من المنظمات أيام للغاتها؟ نعم لبعض الدول والمنظمات أيام للغاتها، ولست على إحاطة تامة في هذا المجال الذي تنفع متابعته. للإنجليزية لغتها وتحتفل به دول الكومنولث، ولمجلس أوروبا وللاتحاد الأوروبي يوم للغات الأوربية هو ٢٦ أيلول من كل عام، ولليونان يوم للغتها المرتبط

بواضع نشيدها الوطني. وثمة منظمات لبعض اللغات كمنظمة الدول الناطقة بالتركية، والأخرى الناطقة بالإسبانية، والثالثة الناطقة بالبرتغالية. ولعل لكل منظمة منها يوماً للغة التي تنتظم حولها.

كانت كل هذه الأيام قبل أن تتجه اليونسكو خريف ٢٠١٢ إلى اعتماد أيام عالمية للغات الرسمية الست في الأمم المتحدة.

في حديث الأيام نلاحظ أن العربية أتت متأخرة في ترصيع أيام العام بيوم لها. لا أعرف أنه انطلقت مناداة بإحداث يوم للعربية قبل مناداتي بهذا الأمر في ١٥ آذار ٢٠٠٦. ويطيب لي أن أفصل في ظروف المناداة.

اتفقت مع جامعة حلب على إلقاء بحث في مؤتمر عن اللغات ينظمه معهد اللغات فيها، بالتعاون مع هيئات دولية عديدة كما أذكر. ولجامعة حلب قصب السبق على الجامعات السورية في مجال التعاون الدولي، وهي فضيلة تسجل لها. كان عنوان بحثي الشفهي «التنافس اللغوي العالمي ومكان العربية فيه». وضعت للبحث في أسطر قليلة خطة تهديني في كلامي الشفهي، وانهمكت في التفكير بموضوع الخاتمة. أردتها خاتمة وازنة(*) - وقد غفلت في ما سبق لي قوله عن محاولات محترمة لتحديد أوزان للغات، وهو حديث شائق يستحق محاضرة خاصة - قلت: إنني أردتها خاتمة وازنة فمن أين آتي بها وما تكون؟ ارتفعت الفرائكوفونية بيومها من ٢٠ آذار ليلتهم الشهر كله كما أشرت قبل قليل. ويبدو أن مؤتمر حلب وموعده ١٥ آذار إنما حُدد موعده ليناسب جدول الانشغالات الفرائكوفونية. بل لقد تأكد لي هذا الأمر حين وصلت مساء ١٤ آذار إلى فندق «بولمان الشهباء» الذي تستضيف به جامعة حلب مدعويها. وجدت

(*) خاتمة وازنة: أي: راجحة جيدة ذات وزن وقيمة. = [المجلة].

بهو الفندق غارقاً في أنواع الزينة كافة. سألت موظفة الاستقبال عن سبب الزينة: هل هو عرس غني من أغنياء العاصمة الاقتصادية لسورية؟ قالت: كلا. بل هو عرس الفرانكوفونية. تملكني شعور بالحدز. كأننا ما نزال في قبضة الانتداب. وسريعاً ما استقرت في ذهني خاتمة البحث: «أريد عرساً للغتي». شغلت ذلك المساء بالبحث عن الموعد المناسب: يوم الوحدة السورية المصرية؟ ولكنها انهارت يوم تأسيس جامعة الدول العربية؟ ولكن من يفخر بجامعة هي محل انتقادات مجمع عليها. وبنور قذفه الله في الصدر - كما علمنا صاحب (المنقذ من الضلال) - هتفت لنفسي كما فعل أرخميدس: «وجدتها! يوم العربية هو يوم بدء التنزيل الشريف. يوم كانت أو نزلت من السماء «اقرأ». شعرت بالارتياح مضاعفاً. إنه يوم جليل من أيام العربية يربط الأرض بالسماء، وهو أيضاً وثيقة تأمين لاستمرار فاعلية ما سأقول؛ لأنه لن ينسى، بل سيكون له أثر. وكان الأمر.

بعد أيام قليلة، وكنا على عتبة قمة عربية تعقد كما تعلمون أواخر آذار من كل عام، وضعت على الورق نصاً مكتوباً يثبت ما قلته شفهيّاً. بعثت بالنص عن طريق الفاكس إلى المعنيين، وفي عدادهم الأمين العام لجامعة الدول العربية، وبينني وبينه شيء من المعرفة؛ لأنه دعاني إلى «مؤتمر المفكرين العرب» الذي عقده بُعيد أحداث انهيار برجي نيويورك عام ٢٠٠١. دعمت النص المكتوب بقصاصات صحف تظهر حماسة الرئيس شيراك للغته حين قاطع اجتماعاً شعر بأن الفرنسية أهينت فيه؛ إذ تكلم بغيرها أحد المسؤولين الفرنسيين. وسريعاً ما تناقلت الأنباء من الخرطوم في وهلة انتهاء مؤتمر القمة العربية تصريحاً للسيد عمرو موسى يقول به: إن القمة القادمة في الرياض سوف تبحث لأول مرة موضوع حال اللغة العربية.

لا أدعي أنني السبب في التصريح، إلا أنني وضعت أمامكم تسلسل الأحداث كما بدا لي.

أستميحكم عذراً إذ أوغلت في تفاصيل تجربة أراها مثيرة لي شخصياً. فلاختصر. يذهب الوقت، وهو من ذهب. كان للجنة التمكين فضل نقل اقتراحي المزدوج إلى المنظمة العربية للتربية والعلوم والثقافة: اقتراح أن يكون للعربية يوم، واقتراح أن يكون ذلك اليوم هو بدء التنزيل الشريف. كان ذلك عام ٢٠٠٨. عاد الاقتراحان بقرار يوافق على إحداث يوم، ولكنه جعل مواعده تربوياً في الأول من آذار من كل عام. حجة اختيار أول آذار: أنه يكون الطلاب في مدارسهم في ذلك التاريخ، وهم المستهدفون، في حين يقع يوم بدء التنزيل في الصيف، أيام العطلة المدرسية السنوية. هكذا قيل، وليس بين يدي نص رسمي للكيفية التي سارت بها المداولات في منظمتنا للتربية والعلم والثقافة.

أحببت يوم أول آذار وتفاعلت معه، ومن أسف إبلاغي لكم هنا ما لم يبلغ، وهو أن «ألكسو» أهملت ذلك اليوم. لماذا؟ ربما لأن اليونسكو سألتهما ألا «تشاغب» على يوم العربية العالمي، طبقاً لقاعدة: لغة واحدة، يوم واحد. أمر نأتي إليه في النقاش. أتابع. تفاعلت مع يوم أول آذار، لكن همي بقي مشدوداً إلى ذلك اليوم ذي الارتباط العميق بالتاريخين العربي والإسلامي، يوم اللغة العربية الأكبر، بل يومها العالمي الحقيقي، الذي يحسن أن تعتبره يوماً وطنياً ثلث دول الأمم المتحدة؛ بل أن تعتبره يوماً جامعاً لها، عاصماً سياساتها من التعثر والتبعثر.

وتحت عنوان: «بدء التنزيل الشريف يوماً عالمياً للغة العربية» حاضرت

في بيروت، يوم ٢٠ آذار ٢٠١٢، بدعوة من المجلس الدولي للغة العربية -

وهو هيئة نشطة مقرها دبي، تشكر لاهتمامها الدؤوب بالذكي بالعربية - حاضرت مجدداً المناداة التي أطلقتها في جامعة حلب. نصت خلاصة وزعها المجلس عن مؤتمر بيروت على فائدة إحداث يوم عالمي للغة العربية بحسب التعبير الذي ورد في كلمتي. لكن الخلاصة لم تتقدم لتأييد فكرة تحديد اليوم العالمي ببدء التنزيل، تركت - لأمر في نفس البعض، والله أعلم - مغفلاً تحديد موعد لليوم. بعث المجلس بخلاصة أعمال المؤتمر إلى اليونسكو. حددت اليونسكو خريف عام ٢٠١٢ مواعيد لأيام عالمية للغات الرسمية. كان نصيب العربية - بموافقة المندوبين العرب في اليونسكو - يوم ١٨ كانون الأول، المرتبط بقرار اعتبارها لغة رسمية. أما اللغات الرسمية الأخرى فكانت أسعد حظاً في دلالة تواريخ أيامها العالمية على ثقافتها الذاتية؛ فكان شكسبير للإنجليزية، وبوشكين للروسية، وسان جيه للصينية، وهو الشخصية الموغل تاريخها في القدم وذات الشأن في اللغة الصينية. وتوحد يوم الفرنسية العالمي بيوم الفرانكوفونية. أما الإسبانية فكان نصيبها يوماً يكاد يكون مقدساً لدى الإسبان، وهو يوم اكتشاف كريستوف كولومبوس العالم المدعو جديداً. لكل يوم مآثرة تشير إلى إنجاز ذاتي إلا يومنا.

ما الشرح الرسمي العربي لهذا الإجحاف بحقوق الثقافة العربية وبالتاريخ العربي؟ لم أقع على شيء من هذا الأمر. هل عرف العرب بالرموز الثقافية للأيام الأخرى قبل أن يوافقوا على موعد لا رمز ثقافياً عربياً فيه؟ لا أدري.

تنفق المملكة العربية السعودية مشكورة على اللغة العربية في اليونسكو. وفي المرويات أن السيدة المديرة العامة لليونسكو أعلنت مندوب الدولة متولية الانفاق باليوم المقترح، فذهب به إلى الرئيس الدوري

للمجموعة العربية، فوافق باسم المجموعة، بعد استشارة زملائه مندوبي الدول العربية أو دون استشارتهم. الإجابة غائبة. قضي الأمر. غابت ثقافتنا وغاب تاريخنا عن يوم لغتنا العالمي.

لا صفة رسمية لي في شؤون العربية وشجونها، لكنني لم أرض عن اليوم المقترح. أنا الذي يعتبر نفسه قيماً على الفكرة، وإن لم تقر بقوامتي إلا هيئة لبنانية كرمتني، وإلى جانبها في الإقرار تعميم تاريخه ٢٠ شباط ٢٠١٧ من السيد وزير الإعلام بشأن يوم أول آذار من ذلك العام.

لا صفة رسمية لي في شؤون العربية، ولكنني أخذت أنادي، منذ وصل إلى علمي جدول الأيام العالمية، أخذت أنادي بضرورة تغيير موعد يومنا العالمي لكي يغدو منسجماً مع الأيام الأخرى، مرتبطاً بمأثرة ثقافية لنا. الموعد الراهن تذكير دائم بأن لغتنا أضيفت ولم تكن أصيلة كزميلاتنا. وكان من حقها - عندي وعندكم كما أرجح - أن تكون رسمية منذ إنشاء الأمم المتحدة في سان فرانسيسكو. ظلمت، وكنا آنذاك مثلها مظلومين، قليلي العدد.

برز المتنبي أولاً في مطالباتي بالتغيير، وقد نشرت المطالبة الأولى عام ٢٠١٤. أعلم أن لمالء الدنيا وشاغل الناس أخصامه في حياته كما في مماته. وفي فعل تقية من الأخصام، ناديت أحياناً بأن تختار هيئاتنا ذات العلاقة واحداً من ستة رموز ثقافية عربية، هم بالترتيب الأبجدي: ابن خلدون، ابن رشد، ابن سينا، المتنبي، المعري، سيويه. لكنني تابعت تفضيلي للمتنبي، وبالتحديد ليوم مصرعه في ٢٧ أيلول. أيدت وجهة نظري علناً هيئات غير حكومية محترمة مثل اتحاد الكتاب اللبنانيين، والمؤتمر القومي العربي، وجمعية العاديات السورية، وأفسحت وسائل الإعلام المجال لمطالباتي بيوم المتنبي، ولا سيما منها جريدة «البناء» اللبنانية اليومية.

ثم كان يوم ٦ آذار ٢٠١٩. فيه تصدرت جريدة «البناء» افتتاحية مفاجئة أيد الأستاذ ناصر قنديل فيها، وهو رئيس التحرير، انتقاداتي الموجهة إلى الموعد الراهن ليوم اللغة العربية العالمي، وامتدح جهودي في سبيل تغييره، لكنه، وهنا تكمن المفاجأة، اقترح اسماً خارج نطاق الأسماء الستة التي ألفت ذكرها في محاضراتي ومقابلاتي ومقالاتي. اقترح رئيس تحرير البناء، وهو الشخصية المعروفة عربياً، اسم المعلم بطرس البستاني ليحل محل المتنبّي. والمعلم البستاني - كما هو معروف - شخصية باذخة تفتخر العربية بقاموسه «محيط المحيط»، كما تبني هيئات عربية كثيرة أفكاره التحديثية، إضافة إلى ذلك، هو من جعل من كلمة «سورية» مصطلحاً سياسياً، فتحدث عن السوريين والوطن السوري. ثم في أيار ٢٠١٩ أقيم احتفال كبير بمرور مئتي عام على ولادة العلامة الكبير، وألقيت كلمات، وصدرت تصريحات لمسؤولين لبنانيين تنادي بالمعلم البستاني رمزاً يرتبط اسمه بيوم اللغة العربية العالمي بعد القيام بمسعى ناجح هادف إلى إلغاء الموعد الراهن لذلك اليوم.

فتحت الجريدة لي صدرها للتعليق. في عدد لاحق، وعلى الصفحة الأولى من الجريدة ذاتها، طالبت بأن تتحالف الجهود أولاً من أجل إلغاء الموعد الراهن، المجحف بحقوق الثقافة العربية وحقوق التاريخ العربي؛ ثم بعد أن ننجح في إلغاء الموعد الراهن نتباحث في أي الرمزين الثقافيين الكبيرين أخرى بأن يربط اسمه بيوم لغتنا العالمي: أبو الطيب المتنبّي أم المعلم بطرس البستاني؟

أقول قولِي هذا في دمشق، في مجمعها للغة العربية، وهو بين مجامع لغتنا الأعرق. ولو كان لي أن أسأل لسألت أن يوضع الأمر على جدول أعمال الهيئة الأكثر أهلية للدفاع عن لغتنا العربية، وعن ثقافتنا وتاريخنا.

خامساً: خاتمة:

موضوع حرب اللغات أو التنافس بينها أو تعايشها المشترك ومكان العربية في الحرب أو التنافس أو التعايش كبير لا يُشَبَّع. إنه من جهة موغل في القدم قدم الاجتماع البشري، وهو أيضاً متجه إلى المستقبل، فصانعو المستقبل هم الأكثر نفوذاً في صناعة اللغات. وإذا كان للخواطر والمواقف والذكريات السابقة فائدة، فهي فائدة الإصرار على أن على أبناء العربية الكثير مما يفعلونه في سبيل رفعة شأنهم. وأول عنوان لرفعة الشأن رفعة اللغة، واستيعابها لحاجات متكلميها ولمتطلبات العصر. وإذا بدا ما قدمته مفتقراً في أحيان إلى الصلابة المنطقية المطلقة في ترتيب الأفكار، وفي أحيان أخرى إلى التوثيق الدقيق المحكم، وإذا بدا في أحيان ثالثة جانحاً إلى الاستطراد، فما يكفي من أنه أثار نقاطاً أحسب أن فيها الجديد.

أهم الجديد من النقاط إيضاحه بجلاء أن يوم اللغة العربية الذي بدأت احتفالاتنا به منذ أكثر من عقد، إنما كانت ولادة فكرته من سورية، من الجمهورية العربية السورية، وأن علينا أن نعرف ذلك ونذيعه، وأن نفخر به ونفاخر.

* * *

أبناءُ جمعيةٍ وثقافيةٍ

كلمة الدكتور محمود السيد في حفل تأبين الأستاذ الدكتور ميخائيل معطي رحمه الله^(*)

أيها الحفل الكريم: أسعد الله أوقاتكم:
ما أصعب أن يفقد الوطن قاماتٍ علميةً شامخةً في مجالات
اختصاصها! وما أفدحها من خسارة لها في عالم أزمته أخلاقية في الدرجة
الأولى حيث غابت الرحمة من القلوب، والحكمة من العقول، والعواطف
والمشاعر الإنسانية من الضمائر!

وما كنت أحسبني أن أقف مؤبناً عالمنا الجليل الدكتور ميخائيل معطي الذي
عرفته عندما كنت عضواً في مجلس أمناء الجامعة السورية الألمانية الخاصة في
وادي النضارة، وكان رحمه الله رئيساً لهذا المجلس، فعرفت فيه آنذاك النزاهة
والموضوعية والإخلاص والتحلي بالقيم السامية، ثم توطدت العلاقة بيننا عندما
انتخبه مجمع اللغة العربية بدمشق عضواً مراسلاً له، وقد استمر في هذا الموقع
سنوات عدة حتى وفاته رحمه الله، وكان مرشحاً بفضل كفايته العلمية وأدائه الفائق
ليكون عضواً عاملاً في المجمع منذ شهور عدة، إلا أن القدر حال دون تحقيق
هذا المسعى، ويا للأسف! فكانت وفاته قبل انعقاد جلسة الانتخابات.

إن المسيرة العلمية لحياة فقيدنا الكبير زاخرة بالعطاء، إذ إنها تشير إلى

(*) ألقى الدكتور محمود السيد هذه الكلمة في كلية العلوم بجامعة دمشق بتاريخ ٧/٩/٢٠٢١م.

أنه عالم متميز وطنياً وقومياً وعالمياً، فهو في عمله الجامعي مؤسس لقسم الجيولوجيا في كلية العلوم بجامعة دمشق، ولا يظنُّ أحد أن عملية التأسيس سهلة. ولنا أن نتصور المعاناة التي عاناها، والمكابدة التي كابدها آنذاك، ثم عمل رئيساً لهذا القسم، وهو الأدرى به، ومارس التدريس والإشراف على رسائل الطلبة في الدراسات العليا، وتأليف الكتب في مجال تخصصه، وتقويم البحوث العلمية، وإلقاء المحاضرات في بعض الجامعات العربية والأوروبية، واكتشاف المستحاثات التي حُفظ عدد منها في متحف باريس وجنيف؛ نظراً لأهمية هذا الاكتشاف على الصعيد العالمي.

من سمات راحلنا الكبير الإخلاص في العمل، والتفاني في أدائه وإتقانه، وقد حوَّله ذلك الإتقان لنيل جائزة المجلس الأعلى للعلوم، وجائزة باسل الأسد للبحث العلمي، وأهَّله ليكون عضواً في مجمع اللغة العربية. ولقد أدَّى عمله المجمع عندما غدا خبيراً فيه ورئيساً للجنة المصطلحات الجيولوجية بكل إتقان، فكان مثلاً يحتذى في أدائه الرائع، تحديداً لهذه المصطلحات باللغة العربية مقابل المصطلحات الأجنبية، وشرحاً لها بكل وضوح ودقة بغية إصدارها في معجم خاص بالمصطلحات الجيولوجية، إلى جانب ما أنجزه المجمع من معاجم في المعلوماتية والرياضيات والفيزياء وألغاز الحضارة والمصطلحات التربوية والنفسية... الخ.

وكان ثمة شعور عال بالمسؤولية تجاه أي عمل كان يؤديه. وأذكر في هذا المجال الصدى الطيب الذي كانت تحدثه المحاضرات العامة التي كان يلقيها في المجمع بتكليف من لجنة النشاط الثقافي، فقد كانت محاضراته في ذروة الإتقان تحضيراً جيّداً لها، وعرضاً ممتازاً لشرائعها على الشاشة، وتسلسلاً منطقياً لمحتوياتها، وصوراً تكاد تكون ناطقة، ولغة عربية سليمة وواضحة،

وتوصيات ومقترحات تنعكس خصباً ونماءً على الفرد والمجتمع.
ولكم يحظى بالاحترام والتقدير من يتقن لغته العربية الأم، ويكون
حريصاً على استخدامها سليمة في جميع مناشطه الثقافية! وكان راحلنا
الكبير هو الأنموذج والمثال في اتسامه بهذه السمة، إذ كان يصون لغته
القومية بسواد القلب والهدب على حدّ تعبير المجمعى الراحل القدير
أستاذنا الدكتور عبد الكريم اليافي رحمه الله.

وكان يزين أداء عالمنا الراحل الدكتور ميخائيل خلق رفيع وتهذيب جمّ
يتغلغل في حنايا النفس، فيزيد المرء تقديراً عالياً لمناقبه الرفيعة، واحتراماً
عميقاً لشخصيته النبيلة، وسريره الصافية، ونفسيته المحبة المعطاء، إذ إن
الله محبة، وما كان الحب بكل أبعاده أسرة وعملاً ووطناً إلا المقوم
الأساسي لبناء الأمة، ورحم الله الشاعر بدوي الجبل القائل:

وما بنيت إلا على الحب أمة ولا عزّ إلا بالحنان زعيم
ولكم كان الشاعر المهجري أبو ماضي مصيباً عندما قال:

إن نفساً لم يشرق الحب فيها هي نفس لم تدر ما معناها
أنا بالحب قد تعرفت على نفسي وبالحب قد عرفت الله!

كان عالمنا الجليل يرى أن حب وطنه واجب مقدّس، فقدّس في نفسه
محبه فكرًا ونزوعاً وأداءً، وطالما تغنى بجمال سورية وعمقها الحضاري،
وبقيم أمتة التي علّمت العالم الأبجدية الأولى، وطالما أعجب برقائق
الحضارات في طبقات الأرض السورية التي وظّف معرفته العلمية في إدراك
كنهها بكل رعاية ومحبة، وكأن لسان حاله يردد قول الشاعر محمود درويش:

هذه الأرض جلد عظمي وقلبي فوق أعشابها يطير كنحلة

وطالما كان معجباً بشعر الشاعر بدوي الجبل الذي التقاه في سويسرا،

وكان جليساً معه في أثناء إقامته فيها. وقد دعاني مرة إلى إلقاء محاضرة عن أدبه في المركز الثقافي بمرمریتا، وحالت مشاغلي دون تلبية الدعوة. وقد قال شاعرنا البدوي عن أرض وطنه:

هذا التراب أبي وأمي والبداية والمآبُ

هذا التراب شمائلُ غرٍّ وأحلامُ عذابُ

وتجدر الإشارة إلى أن قيم المواطنة كانت في أبهى صورها العملية لدى فقيدنا الغالي من حيث الانتماء، والقيام بالواجب قبل أخذ الحقوق، والمشاركة المجتمعية والغيرية والمحبة والتفاعل الإيجابي والإيمان بالحوار والمبادرة والمناقشة الهادئة والتفكير النقدي، والشعور العالي بالمسؤولية تجاه الفرد والمجتمع في تماسكه ووحدته الوطنية. وإلى جانب ذلك كله كان التحلي بالتفاؤل في مواجهة التحديات التي واجهها الوطن، ومحاولات التئیس والتشيط وغرس روح الانهزامية في النفوس، والدعوة إلى التربية على عزة النفس وكرامتها وقوة الإرادة، مؤمناً بأن الحياة ما هي إلا وقفة عز وكرامة، أمام جحافل التكفير والظلام والإرهاب والإجرام التي لم يعرف التاريخ مثيلاً لها.

تعازيننا القلبية الحارة لرفيقة درب راحلنا الكبير زوجته الفاضلة السيدة دلال، ولنجله الطبيب القدير الدكتور طنوس، ولكريماته العزيزات السيدات يارا وورنا وربا، ولأهله وذويه ومحبيه وطلابه وللوطن الغالي، والسلام عليكم.

* * *

من قرارات مجلس الجمع في الألفاظ والأساليب (*)

(٢١٥)

طَبَّ وَمَطَّبَ

١ - المسألة:

يشيع في الاستعمال اللغوي المعاصر الفعل (طَبَّ) بمعنى وقع أو سقط، كما يشيع اسم المكان منه: (مَطَّبَ) لدالتين:
الأولى: انخفاض أو هَوِيَّ مفاجئ في مستوى ارتفاع الطائرة أثناء طيرانها، ويسمى: (المطَّب الجوي).

الثانية: محدَّب اصطناعي يرتفع عن مستوى الطريق ليضطرَّ سائق السيارة إلى تخفيف سرعتها، أو حفرة تُحَفَّر في عُرْض الطريق لتخفيف سرعة وسائل السير الحديثة.

وقد استعار بعض الناس في زماننا هذه الكلمة «المطَّب»، واستعملوها في مقامات أخرى للتعبير على وجه المجاز عن العقبات والعوائق، فقالوا مثلاً: مطَّبات سياسية، ومطَّبات اقتصادية.

ولم ترد هذه الدلالة لهذه الكلمات في المعاجم القديمة ومعظم الحديثة.

(*) هذه قرارات مجلس مجمع اللغة العربية بدمشق، وهي قابلة للتعديل في مؤتمر المجمع.
(يرجى ممَّن له ملاحظات عليها أن يتفضل بإرسالها إلى المجلة).

٢- الاقتراح:

- ١- جواز استعمال الفعل (طَبَّ) بمعنى وقع أو هوى إلى الأرض.
 - ٢- جواز استعمال اسم المكان (مَطَبَّ) بمعنىين:
 - أ- محدَّب مرتفع عن مستوى الطريق البري، أو حُفرة في عَرْض الطريق يكونان لغرض تخفيف سرعة السيارة.
 - ب- انخفاض قليل ومفاجئ في مستوى ارتفاع الطائرة أثناء تحليقها.
 - ٣- جواز استعارة كلمة «مَطَبَّ» واستعمالها للتعبير على وجه المجاز عن العقبات والعوائق، في نحو: مطَّباتٌ سياسيَّة، ومطَّباتٌ اقتصاديَّة. وإضافة ذلك إلى المعجم العربي.
- ٣- التعليل:

لم يرد في المعاجم التراثية القديمة ومعظم الحديثة ما يدل على نحو صريح على هذا المعنى. ومما ورد فيها:

- تاج العروس: «الطَّبُّ: الحاذق.. وقولهم: مَنْ أَحَبَّ طَبَّ: احتال لما يُحِبُّ؛ أي: تَأَتَّى للأُمور وتَلَطَّفَ.. ومن المجاز: المُطَابَّة: المُداورة».
- الوسيط: «طَبَّ فلانٌ طَبًّا: مَهَرَ وحَذَقَ.. وطَبَّ به: تَرَفَّقَ وتَلَطَّفَ.. وطَبَّ الشيء: أَصْلَحَهُ وأَحْكَمَهُ».

ويلاحظ أن الدلالة المستحدثة لهذا الفعل واشتقاقاته ليس لها أصل يُركن إليه في لغتنا التراثية مما يساعد في حمل هذه الدلالة عليه، لكن لنا من ظاهرة الإبدال اللغوي في العربية ما يسوِّغ هذه الدلالات المستحدثة لهذه المادة اللغوية. والإبدال اللغوي الذي نتوسل به يحيلنا على الأفعال مَظَنَّة الإبدال من بعض حروفها. وباستعراض إمكانات الإبدال في هذا الفعل لم نجد ما يسعف في مقارنة هذه الدلالات المحدثَة إلا الفعل (طَفَّ) الذي معانيه:

- في لسان العرب: «ما طَفَّ لك؛ أي: ما أشرفَ لك، وقيل: ما ارتفع لك».
 - وفي الوسيط: «طَفَّ الشيء طَفًّا: طفا وارتفع.. وطَفَّ له بحجر ونحوه: أهوى إليه ليرميّه.. وطَفَّ الحائط طَفًّا: علاه.. وطَفَّ الشيء بيده أو برجله: رفعه».
- ويلحظ أن العلو والارتفاع والهويّ والسقوط كلّها متضمنة في معاني (الطَفَّ) مصدر الفعل (طَفَّ).
- وبإعمال ظاهرة الإبدال اللغوي في الفعل (طَفَّ) يُتوصّل إلى الفعل (طَبَّ) بإبدال الباء من الفاء، فيصبح لهذا الفعل الجديد المُبدل (طَبَّ) دلالات مقارنة لما أبدل منه، وهو الفعل (طَفَّ):
- فالفعل (طَبَّ) بمعنى وقع وسقط متضمّن في معنى الهويّ في (طَفَّ).
 - واسم المكان (مَطَبُّ أرضي) متضمّن في معنى العلو والارتفاع، لأن المطب في الطريق عالٍ وبارز عن مستوى الطريق.
 - واسم المكان (مَطَبُّ جوي) متضمّن في معنى الهويّ، إذ تهوي فيه الطائرة وتنخفض قليلاً عن مستوى علوّها وتحليقها.
- ولنا أن نربط اسم المكان «مَطَبُّ» بشيء من الدلالة التراثية للفعل «طَبَّ» التي نصّت عليها المعاجم من وجهين:
- أ- المطبُّ اسم مكان يدلّ على موضع من الطريق الذي يسلكه الناس وتمرّ به السيّارات وما إليها، يُصطَنع فيه ما يدعو إلى تخفيف سرعة السير من مرتفع أو منخفض. وهو بهذا يمكن أن يكون موصولاً بالفعل «طَبَّ» وتصريفاته من حيث كانت دالة على الترفّق بالشيء والتلطّف له؛ فالطَّبُّ بمعنى الرفق، ومنه سُمّي البعيرُ يتعاهد مواضع خفّه أين يطأ به «طَبًّا».

ب- المطبُّ يقترن أحياناً بحالة إصلاح بعض الخِدْمَات من مياه وكهرباء وهاتف أرضي وترميم طريق حيث يكون أو قريباً منه. فهو من هذا الوجه موصول بدلالة «طَبَّ» على إصلاح الشيء وإحكامه. ولذلك يقال: سُمِّيَ ذلك الموضع من الطريق مَطْبًا لمجاورة منطقة الإصلاح، أو لكونه علامة دالة عليه، تدعو إلى تخفيف سرعة السير والترفق لمنع إفساد ذلك الإصلاح. وربما كان ذلك الأصل في بناء اسم المطب، ثم عُمِّمَ فسُمِّيَ به كلُّ مطبٍّ، وإن لم يقترن بإصلاح ما يجاوره.

وبهذا يكون توجيه اسم المكان «المَطْب» على هذين الوجهين موصولاً بدلالة أصل تراثي نصّت عليه المعاجم واستعملته العرب، وكانت له بذلك مناسبةٌ صحيحة.

واستعارة كلمة «مطب» للتعبير المجازي عن العقبات والعوائق في قول بعض الناس: «مطبّات سياسيّة، ومطبّات اقتصاديّة...» ضرب من التطوّر الدلاليّ السائغ، فلا ضير فيه.

ولبعض الباحثين في توجيه هذا الاستعمال آراءٌ أخرى يمكن الاستئناس بها على وجه التأييد والمؤازرة في تسويغ هذا الاستعمال، منها مثلاً، وهو أشهرها، ذهبُ بعض الباحثين إلى حمل هذا الاستعمال على المحاكاة الصوتيّة، على أنّ كلمة «مَطْب» مبنية من الفعل «طَبَّ» بمعنى صوّت، الذي يحكي ضرباً من الصوت يحدث من وقوع شيء على شيء، أو اصطدام شيء بشيء، وهو صوت «الطب»؛ مستدلّين لذلك بما ورد في الفصحى من أنّ «الطبطة: صوتُ تلاطم السيل، وقيل: صوت الماء إذا اضطرب واصطكّ».

(انظر: العربيّة تواجه العصر، د. إبراهيم السامرائي، دار الجاحظ - بغداد، ١٥٨-١٥٩، وموسوعة حلب المقارنة، خير الدين الأسدي، جامعة

حلب، ٥ / ٢٤١، وانظر: لغويات محدثة في العربيّة المعاصرة، د. محمد محمد داود، ١٣٩ - ١٤٠).

ومما يُستأنس به أن كلاً من (معجم اللغة العربية المعاصرة) للدكتور أحمد مختار عمر و (المعجم العربي الأساسي) للمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم قد أثبت للفعل (طَبَّ) هذه الدلالة.

العضو: د. ممدوح خسارة

٤ - قرار اللجنة:

- ١ - جواز استعمال الفعل (طَبَّ) بمعنى وقع أو هوى إلى الأرض.
 - ٢ - جواز استعمال اسم المكان (مَطَبَّ) بمعنىين:
 - أ - محدَّب مرتفع عن مستوى الطريق البري أو حُفرة في عُرْض الطريق يكونان لغرض تخفيف سرعة السيارة.
 - ب - انخفاض قليل ومفاجئ في مستوى ارتفاع الطائرة أثناء تحليقها.
 - ٣ - جواز استعارة كلمة «مَطَبَّ» واستعمالها للتعبير على وجه المجاز عن العقبات والعوائق، في نحو: مطبّات سياسيّة، ومطبّات اقتصاديّة.
- وإضافة ذلك إلى المعجم العربي.

* * *

(٢١٦)

تطبيع العلاقات

١ - المسألة:

يشيع في الاستعمال اللغوي المعاصر عبارة (تطبيع العلاقات)، بمعنى

جعلها طبيعية تجري على العادة والعرف. وليس لهذا الفعل هذه الدلالة في المعاجم العربية.

٢- الاقتراح:

جواز قولهم: (تطبيع العلاقات) بمعنى جعلها طبيعية تجري على ما هو معتاد لا غرابة فيها، وإضافة هذه الدلالة إلى المعجم.

٣- التعليل: أ- في المعاجم:

- لسان العرب: «الطَّبَع والطبيعة: الخليفة والسَّجِيَّة التي جُبِلَ عليها الإنسان.. وطَبَعَهُ الله على الأمر يَطْبَعُهُ طَبْعاً: فَطَرَهُ.. والمُطَبَّعَةُ: الناقة التي ملئت لحماً وشحماً فتوثَّقَ خَلْقُهَا».
- تاج العروس: «طَبَعَ الرجل على الشيء: إذا جُبِلَ عليه.. وفُطِرَ عليه. تَطَبَّعَ بطباعه: تَخَلَّقَ بأخلاقه».
- الوسيط: «طَبَّعَهُ: مبالغة طَبَعَهُ، ويقال: طَبَّعَهُ على كذا: عَوَّدَهُ إياه.. الطَّبَّع: الخُلُق والمثال والصيغة».

ب- في الدلالة والصرف:

يُفْهَمُ مما سبق أن الطبيعي هو نسبة إلى الطبيعة، وهو ما يتوافق وطبيعة الإنسان وسجيته، وأن (التطبيع) هو مصدر الفعل (طَبَعَ) على بناء (فَعَّلَ) الذي من معانيه الجعل والتصيير. وهذا الفعل مشتق من الطَّبَع والطبيعة التي هي الخليفة والسجية وما فُطِرَ الإنسان عليه؛ أي: الفطرة. والاشتقاق من أسماء الذوات كثير في العربية، وهو مقيس عند بعضهم. وعلى هذا قولنا: (طَبَّعَ العلاقات) يعني جعلها تجري على ما هو طبيعي ومألوف ومعتاد بين الناس، وما هو طبيعي ومعتاد بينهم أن تكون علاقاتهم مستقرة على ما جُبِلَ عليه الإنسان من فطرة الاجتماع والتآلف والتعارف، أو ما جرى عليه المعتاد في عرف الناس،

وهذا ما يذهب إليه الاستعمال اللغوي اليوم. ولعله يمكن حمل العبارة على المجاز من قولهم: المطبّعة: (الناقة موثّقة الخلق)، ذلك أنها تامة الخلق مستويته، فالعلاقة المطبّعة هي التامة المستوية، ومادام ورد في التاج: «تطبّع بطباعه: تخلّق بأخلاقه»، فالتطبيع هو أن يُجعل الشيء على خِلْقَةٍ أو خُلُقٍ ما يريد المطبّع.

د- في الاستئناس:

- أجازها مجمع اللغة العربية بالقاهرة في الدورة (٧٦) لعامي (٢٠٠٩-٢٠١٠).

- صحّح (معجم الصواب اللغوي) هذه العبارة، بل فصّحها.
العضو: د. ممدوح خسارة

٤- قرار اللجنة:

جواز قولهم: (تطبيع العلاقات) بمعنى جعلها طبيعية تجري على ما هو معتاد لا غرابة فيها، وإضافة هذه الدلالة إلى المعجم.

* * *

(٢١٧)

عَسْكَرٌ وَالْعَسْكَرَةُ

١- المسألة:

يشيع بين الكتاب والصحفيين عبارة: (عسكر المجتمع) ونحوها، بمعنى جعله ذا طبيعة عسكرية من حيث المظاهر والانضباط، أو عبارة (عسكر الانتفاضة) بمعنى جعلها تعتمد قوة السلاح لتحقيق هدفها. وليس لهذا الفعل هذه الدلالة في المعاجم العربية.

٢- الاقتراح:

جواز قولهم: (عسكر المجتمع) ونحوه بمعنى جعله ذا طبيعة عسكرية من حيث المظهر والانضباط والقوة، وإضافة هذه الدلالة إلى المعجم.

٣- التعليل: أ- في المعاجم:

- لسان العرب: «العسكر: مجتمع الجيش، والعسكر: الكثير من كل شيء. وعسكر بالمكان: تجمّع. وعسكر الرجل فهو مُعسكر؛ [أي: أقام بالمكان]. والموضع مُعسكر».
- تاج العروس: «عسكر القوم بالمكان: تجمّعوا».
- المحكم: «وقد عسكره».
- شمس العلوم لنشوان الحميري: «عسكر العساكر: إذا هيأها».
- الوسيط: «العسكري: الجندي. والمعسكر: مكان العسكر ونحوهم. عسكر القوم بالمكان: تجمّعوا، وعسكر الشيء: جمعه».

ب- في الصرف والدلالة:

(عسكر) فعل رباعي على بناء (فَعَّلَ)، ودلالته في المعاجم هي: تجمّع القوم أو إقامتهم بمكان، وهو فعل لازم ومتعدّد في آن. ويستعمل المحدثون هذا الفعل الرباعي متعدّياً اشتقاقاً من (العسكر)، وهو الجيش، ويعطونه معنى جعل الشيء على هيئة أو حالة الجيش، وأهم ما يتصف به الجيش هو الكثرة والشدة والانضباط، كما اشتقوا منه ما يلبسه من جهة أخرى، ولعلها الأظهر فيه، وهي الانضباط والقوة. وهو اشتقاق جائز ومقبول؛ لأن اشتقاق فعل من اسم قد يكون لأدنى ملابسة، فقد قالت العرب: حلقم الحيوان: ذبحه، قطع حلقومه، وقالت أيضاً: عَرَقَبَ الدابة: ضرب عرقوبها لا قَطَعَهُ، وَلَهَزَمَ فلاناً: أصاب لهزيمته، وهي عظم تحت الحنك. ويلحظ أنهم استعملوا بناء (فَعَّلَ) مرّة للقطع البائن، ومرّة للضرب، ومرّة للإصابة.

وإلى ذلك، من الواضح الصحيح أنّ الفعل الرباعي المجرد (فَعَّلَ) كما نصَّ العلماء قد يُصاغ من أسماء الأعيان الرباعية للدلالة على مشابهة المفعول لما أخذ من الفعل ومحاكاته، نحو: بندقتُ الطين، وعقربت فاطمة شعرها، أي: جعلته ملتويًا كالعقرب، وعثكلت شعرها، أي: أرسلته شبيهاً بالعثكال، وهو العذق.

وفي ضوء هذا يقال: إنّ استعمال المعاصرين «عسكَرَ المجتمع» ونحوه مبنيّ على المشابهة والمحاكاة، وهو ممّا تسمح به أصول العربيّة وتجوّد به. وبناءً على ما تقدّم فلا مانع صرفياً ولا دلاليّاً من إقرار هذه الدلالة الجديدة لفعل (عسكَرَ). العضو: د. ممدوح خسارة

٤ - قرار اللجنة:

جواز قولهم: (عسكَرَ المجتمع) ونحوه بمعنى جعله ذا طبيعة عسكرية من حيث المظهر والانضباط والقوة، وإضافة هذه الدلالة إلى المعجم.

* * *

(٢١٨)

اغْتَنَمَ الفرصةَ وانتَهَزَها

١ - المسألة:

يستعمل كثير من المتكلمين عبارة: (اغْتَنَمَ الفرصةَ وانتَهَزَ) بمعنى واحد، هو أفاد منها واستثمرها، ويرى بعضهم التمييز بين الدالّتين: (انتَهَزَ) للدلالة السلبية، و(اغتنم) للدلالة الإيجابية).

٢ - الاقتراح:

صحة قولهم: (اغتنم الفرصةَ وانتَهَزَها) بمعنى واحد، والأولى أن يقال:

(اغتنمَ الفرصة) تجنباً للبس الذي أدى إليه الانزياح الدلالي والعرفي السلبي في كلمة (انتَهَزَ).

٣- التعليل:

- جاء في تاج العروس: «التُّهْزَة: الفرصة تجدها من صاحبك.. تناهزا: تبادلًا واغتنما.. والمُنَاهِزَة: المسابقة. وانتَهَزَها: اغتنمها». وجاء فيه: «الْغُنْم: الفوز بالشيء بلا مشقَّة».
 - وجاء في لسان العرب: «الاغتنام: انتهاز الغنم والغنيمة، وانتَهَزَها: تناولها وبادرها واغتنمها».
 - وجاء في الوسيط: «انتَهَزَ الفرصة: اغتنمها وبادر إليها».
- وواضح أنه لا فرق بين العبارتين من حيث الدلالة، ولكن الانزياح الدلالي لكلمات «انتَهَزَ وانتَهَازَ وانتَهَازِيٌّ»، وانصرافها إلى معنى سلبي، هو (الاهتيال) بمعنى الاحتيال للكسب، ولو بالخدعة والتغدير، جعل بعضهم يماري في صحّة قولهم: «اغتنمَ الفرصة وانتَهَزَها» بمعنى واحد. ولا داعي للممارة مادام النصّ واردًا في ترادفهما، ويبقى السياق هو الفيصل الذي يميز إحدى الدالتين من الأخرى.

العضو: د. ممدوح خسارة

٤- قرار اللجنة:

صحّة قولهم: (اغتنمَ الفرصة وانتَهَزَها) بمعنى واحد، والأولى أن يقال: (اغتنمَ الفرصة) تجنباً للبس الذي أدى إليه الانزياح الدلالي والعرفي السلبي في كلمة (انتَهَزَ)، والفيصل في تمييز إحدى الدالتين من الأخرى هو السياق.

(٢١٩)

الفاتورة وفوتر

١ - المسألة:

تشيع في الاستعمال اللغوي اليومي كلمة (الفاتورة)، كما تشيع في الكتابات الاقتصادية والمالية حتى لا يكاد يخلو منها كتاب أو بحث، مثلما شاعت في المكاتبات الإدارية والرسومية. ويرى بعضهم أن الكلمة عامية ويجب أن تستبدل بها كلمة عربية من الفصحى.

٢ - الاقتراح:

جواز استعمال كلمة (الفاتورة) بمعنى قائمة بأسعار مواد أو بضائع، أو تكلفة أجور خدمات، وجواز استعمال الفعل (فوتر) أخذاً من الفاتورة للدلالة على تنظيم الفاتورة أو كتابتها، وإضافتهما إلى المعجم العربي.

٣ - التعليل:

هذه الكلمة معربة من الكلمة التركية (fatura) المنقولة من الإيطالية (fattura) التي تعني: (قائمة، كشف حساب، صنع، طريقة صنع، مذكرة). ولكن المقابل الذي شاع لها هو (الفاتورة). وما أدى إلى قبول هذه الكلمة وشيوعها أشياء:

١ - إن الكلمة القديمة التراثية التي تقابلها في المعاجم العربية هي (الفُنداق). جاء في لسان العرب (فندق): «الليث: الفُنداق: هو صحيفة الحساب، قال الأصمعي: أحسبه معرّباً». وفي المادة نفسها ورد: «الفندق: الخان فارسيّ معرّب، حكاه سيبويه»، أي: إن كلمتي (فُنداق وفندق) هما كلمتان معرّبتان قديماً، ولكنهما صارتا

في عداد الكلمات العربية من حيث صحة الاستعمال والدلالة والاشتقاق منهما.

إذن، نحن هنا أمام كلمتين لدلالة واحدة، وكلتا هما معرّبة: الفُنداق معرّب قديم، والفاتورة معرّب حديث، فالمفاضلة هنا ليست بين كلمة عربية فصيحة قديمة وكلمة معرّبة حديثة، بل هي بين كلمتين معرّبتين لدلالة واحدة، والمتفق عليه لدى المصطلحيين في مثل هذه الحالة أنه يؤخذ بالمعرّب القديم إلا إذا شاع المعرّب الحديث كما هي الحالة في كلمة (الفاتورة)، ذلك أن معظم الناس - إن لم نقل كلّهم - يعرفون معنى (الفاتورة)، في حين لا يكاد يعرف معنى (الفُنداق) إلا خاصة الخاصة.

٢- إن الكلمة المعرّبة (فاتورة) جاءت مستوفية ضوابط التعريب اللفظي، فأحرف الكلمة عربية، والإيقاع الذي جاءت عليه (فاعولة) هو وزن عربي، جاءت عليه معرّبات قديمة مثل: (تامورة) لصومعة الراهب (كما في التعريب والمعرّب لابن بري ٥٣/١)، و(ناعورة) و(نافورة)، ومثل: (الماموسة) للنار، أو (الياقوتة) (كما في لسان العرب ممس / يقت).

٣- الاستثناس بما أوردته معاجم معاصرة مثل: معجم اللغة العربية المعاصرة لأحمد مختار عمر وفريقه، حيث قال: «الفاتورة، ج. فَوَاتِير: قائمة الحساب أو المبيعات تُدرج فيها أصناف البضاعة مع بيان كميتها وثمانها ومصاريفها».

وإذا أُجيزت الكلمة المعربة (فاتورة) فإن صوغ فعل (فَوَتَرَ) منها على بناء (فَعَّلَ) أو غيره لا يتعارض مع أصول العربية التي أجازت الاشتقاق من

المعرّبات، كقول الإمام علي رضي الله عنه: «نَيْرِزُونَا كُلَّ يَوْمٍ»؛ أي: أطعمونا طعام عيد (النَّيروز)، الذي هو اسم معرّب، وقول العرب: «دَرْهَمَتِ الْخُبَّازِي»: إذا صارت أوراقها كالدرهم المعرّبة، وقولهم: (دَبَّجَ كَلَامَهُ) من الديباج، و(دَوَّنَ) بمعنى سجّل أخذاً من (الدَّيَّوان)، وكقول المحدثين: (برمَجَ النشاط): إذا وضع له برنامجاً.

على أنّ «فوتر» ليس لها كبيرُ شيوع، ولا موقع حسن في الأذن، وليس لاستعمالها حاجة ملزمة أو فضيلة محققة. ومن هنا ربما كان أولى من استعمالها أن يقال: كتب فاتورة، أو نظّم فاتورة.

العضو: د. ممدوح خسارة

٤ - قرار اللجنة:

جواز استعمال كلمة (الفاتورة) بمعنى قائمة بأسعار موادّ أو بضائع، أو تكليف أجور خدمات، وجواز استعمال الفعل (فَوْتَر) أخذاً من الفاتورة للدلالة على تنظيم الفاتورة أو كتابتها، وإضافتهما إلى المعجم العربي.

* * *

(٢٢٠)

جاءَ فوراً

١ - المسألة:

تشيع في الاستعمال اللغوي المعاصر كلمة (فوراً) في مثل قولهم: (جاءَ فوراً)، أو في مثل قولهم: (حضرَ إلينا فور عودته من السفر)، ويخطئها بعضهم لعدم ورودها في اللغة على هذا النحو.

٢- الاقتراح:

جواز مثل قولهم: (جاء فوراً) بالنصب على الحالية، و(جاء فور عودته) بنصب (فور) على نيابة الظرف أو على نزع الخافض.

٣- التعليل: أ- في المعاجم:

• جاء في لسان العرب: «فَورٌ كلُّ شيءٍ: أوَّلُهُ... وذَهَبَتْ في حاجة ثم أتيت فلاناً من فوري، أي: قبل أن أسكن... وفعلتُ أمر كذا وكذا من فوري: من ساعتي [أي: الفور هي الساعة هنا]، والفور: الوقت... وفار الشيء فوراً وفواراً وفوراناً: جاش قال تعالى: ﴿حَتَّى إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ﴾ [هود: ٤٠].»

• وجاء في تاج العروس: «يقال: أتوا من فورهم؛ أي: من وجههم. وبه فسر الزجاج قوله تعالى: ﴿وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فَوْرِهِمْ هَذَا﴾ [آل عمران: ١٢٥]: أي: قبل أن يسكنوا. وذَهَبَتْ في حاجة ثم أتيت فلاناً من فوري: أي: قبل أن أسكن.»

• وجاء في الوسيط: «فَارَ الماء فوراً: خرج من الأرض وجرى متدفقاً.. وفارتِ القدر: اشتدَّ غليانها.. الفور: أول الوقت.. يقال: أتيت من فوري، وفعلتُ ذلك من فوري وفوراً وفور وصولي، أي: في غليان الحال قبل سكون الأمر.»

ب- في الدلالة:

مادام الفور هو أول الوقت، فقولنا: (جئتكَ فوراً) تعدل قولنا: (جئتكَ أول الوقت، أو جئتكَ أول شيء، أو جئتكَ وأنا فائر جيّاش قبل أن أسكن أو تبرد همّتي). وفي كل هذه العبارات يمكن توجيه كلمة (فوراً) على الحالية أو الظرفية، أو على أنّها مفعول مطلق نابت فيه الصفة عن المصدر، فإذا قلت: جئتكَ فوراً، كنت كأنّك تقول: جئتكَ مجيئاً فوراً.

ج- في الاستئناس:

- استعمال «فوراً» بالنصب في مثل هذا الأسلوب قديم، تردّد في كلام الفقهاء وعلماء الأصول قديماً. ومن أقدم من استعمله إمام الحرمين عبد الملك الجويني (ت ٤٧٨هـ) في غير كتاب من كتبه.

ومن ذلك قوله: «إنّ الأمر لا يقتضي الامتثال فوراً، ولكن يقتضي فعل المأمور به في أيّ وقت يقدر إمّا معجلاً وإمّا مؤخراً». (التلخيص في أصول الفقه، الجويني ١/ ٣٢٣)

وقوله: «فإذا قال: أنت طالق إن شئت، اقتضى ذلك فوراً». (نهاية المطلب في دراية المذهب، الجويني، ١٤ / ١٢٤).

- أقرها مجمع اللغة العربية بالقاهرة في القرارات الجمعية في الألفاظ والأساليب (١٩٣٤ - ١٩٨٧) ص ١٠.

- أثبتها المعجم الوسيط كما قدّمنا في باب الفاء.

- وردت في معجم اللغة العربية المعاصرة: (فور).

العضو: د. ممدوح خسارة

٤ - قرار اللجنة:

جواز مثل قولهم: (جاء فوراً) بالنصب على الحالية، و(جاء فوراً عودته) بنصب (فوراً) على نيابة الظرف، أو على نزع الخافض.

* * *

الفهارس العامة للمجلد الرابع والتسعين

أ - فهرس أسماء كتاب المقالات

٣٢٩	د. أحمد قدور
٥٦١	د. جورج جبور
٣٧٥	د. رضوان الداية
٤٦٥	د. رفعت هنزيم
٣٩٩	د. سالم شرابي
١١٣	د. سمر الديوب
٤٩٩، ١٤٣	د. عباس الجراخ
٤٣٥	د. عباس السوسوة
٤٧٧، ١٩٥	د. عبد الإله نبهان
٣٥٥، ٤٩	د. عيسى العاكوب
٩١	د. لمى غانم

- د. مازن المبارك ٤٥٥، ٢٣٧
- د. ماهر حبيب ٧٣
- د. محمد بهاء ككو ٢٢٥
- د. محمد جمعة الدربي ٤٨٣
- د. محمود السيد ٥٨٧، ٧
- د. مكّي الحسني ٤٦١، ١٨٥
- د. ممدوح خسارة ٣١٥، ٣١
- د. مهدي العش ٥١٩
- د. وفيق سليطن ١٦٣

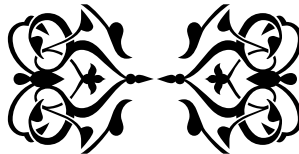
* * *

ب - فهرس عناوين المقالات

٣٠٧	استدراك
٩١	استشراف المعجم التأيلي لألفاظ اللغة العربية
٢٨٧	أعضاء مجمع اللغة العربية بدمشق مطلع عام ١٤٤٢هـ - ٢٠٢١م
٤٦١	تذكرة بقاعدة كتابة ألف التفريق
٣١	تكملة مادة لغوية وصل، راد، شخص، فعل
٣٩٩	التلفيق في شواهد النحو الشعرية
١١٣	الثنائيات الضدية في يائية قيس بن الملوّح
٢٣٧	دور المجامع اللغوية العربية في خدمة اللغة العربية
٧	دور مجامع اللغة العربية في خدمة اللغة العربية
٤٩٩	ديوان نجم الدين بن سوار الدمشقي (نظرات نقدية)
	شروح التسهيل كتاب التذليل والتكميل أنموذجاً لأبي حيان
٢٢٥	الأندلسي تحقيق وليد السراقبي
٣٥٥	الشكر مفهوماً أخلاقياً فضاء التصوف الإسلامي
٤٩	الشكر مفهوماً أخلاقياً فضاء ما قبل التصوف الإسلامي
٥٦١	العربية وحرب اللغات
١٨٥	عن التقويم الشمسي
٦٠٧	فهرس المجلد الرابع والتسعين
١٦٣	في نظرية المعرفة عند الغزالي
٧٣	قراءة في المصطلحات الصوتية في مقدمة كتاب العين

- ٣٧٥ كتابة الأشعار على الجدران
- ٥١٩ الكتابة في العلوم الإنسانية من منظور حركة الكفاءة اللغوية
- ٢٦٧ الكتب والمجلات المهداة إلى مكتبة المجمع
- ١٩٥ كشف المشكل في النحو تأليف الحيدرة اليميني وتحقيق هادي عطية
- ٤٦٥ الكشف اللغوي (١)
- ٥٨٧ كلمة الدكتور محمود السيد في حفل تأبين الدكتور ميخائيل معطي
- ٤٥٥ مدرسة دار الحديث الأشرفية
- ٤٨٣ مراجعة نقدية لمعجم محمد محمد شاكر
- ٣٢٩ مطالعة في مفهوم الساكن والسكون
- ٤٧٧ المُعرب: شرح كتاب القوافي قرأه وحققه د. وليد سراقبي ومحمد سراقبي
- ٣١٥ مقاربات في تيسير النحو الممنوع من الصرف نموذجاً
- ٥٩١، ٢٦٩ من قرارات مجلس المجمع في الألفاظ والأساليب
- ٤٣٥ نظرات لغوية تقابلية في التراث العربي الإسلامي
- ٢٦١ نعي فاضل
- ١٤٣ النفع العاطر النشق في مدح مشمش دمشق لمحمد خليل المرادي

* * *



تنفيذ وإخراج: عمار البخاري